الترابُط الموضوعي
في سُورِ القرآن الكريم
(من سورة يونس – سورة العنكبوت)

الطبعة الأولى
1445 هـ / 2024 م

اسم الكتـــاب: الترابط الموضوعي في سور القرآن الكريم
المـــؤلـــف: د. هاني درغام
موضوع الكتاب: إسلامي
عدد الصفحات: 296 صفحة
عدد المـــلازم: 18.5 ملزمة
مقاس الكتـاب: 24 × 17
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
الترقيم الدولي: 978-9921-815-450

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

كِتابٌ أُحْكِمتْ أياتُهُ (2)

الترابُط الموضوعي
في سُورِ القرآن الكريم

(من سورة يونس – سورة العنكبوت)

د. هاني درغام

دار البشير

المقدمة

الحمـد لله الـذي أنـزل على عبـده الكتـاب ولم يجعل له عوجـاً، قيماً .. وأشـهد أن لا إلـه إلا الله وحـده لا شريـك لـه، نـوَّر بكتابـه القلـوب، وأنزلـه في أوجز لفظٍ وأعجـز أسـلوب، فأعيـت بلاغتـه البلغـاء، وأعجـزت حكمته الحكـماء، وأبكمت فصاحتـه الخطباء..

وأشـهد أن محمـداً عبـده ورسـوله المصطفـى، ونبيـه المرتضى، الظاهـر بفضله عـلى ذوى الفضـل.. معلـم الحكمـة، وهادى الأمة، أرسـله سـبحانه وتعـالى بالنور السـاطع والضيـاء اللامع

صلى الله عليه وعلى آله الأبرار وصحبه الأخيار ..

أما بعد ..

(فالقـرآن الكريـم سراجٌ لا يخبـو ضيـاؤه، وشـهابٌ لا يخمـد نـوره وسـناؤه، وبحـرٌ لا يـدرك غوره، بهـرت بلاغته العقـول، وظهرت فصاحته عـلى كل مقول.. فقـد أحكـم الحكيـم –سـبحانه– صيغته ومبنـاه، فهو مع تناسـب ألفاظه، وتناسـق أغراضـه، قـلادةٌ ذات اتسـاق .. بهـر العقـول بتمكُّـن فواصلـه، وحسـن ارتبـاط أواخـره وأوائلـه، وعجيـب انتقالاتـه مـن قصـص باهـرة، إلى مواعـظ زاجـرة، وأمثـالٍ سـائرة، ومواقـع تعجـب واعتبـار، ومواطـن تنزيـه واسـتغفار.. إلخ).

والناظـر في القـرآن الكريـم يجـده –أحيانـاً– يذكـر طرفاً من الشـئ ثـم يتركه، ثـم يعـود إلى إتمامه بطريقةٍ لا تسـأم النفـوس هديَه، ولا تسـتثقل حديثـه، مراعياً في تسلسـل نصوصـه أن يقـارب بـين أفرادهـا، فتجد الآيـة متسـقةً في كلماتهـا، متآزرةً

مـع أخواتهـا مـن الآي)[1]، فـكان بذلك معجـزاً بنظمه، بديعاً في اتسـاقه، متناسـباً في آياتـه، وسـوره، وأجزائه.

و(مـن خـلال الوقـوف عـلى الارتبـاط الوثيـق بين محـاور السّـورة يـبرز بديع النّظـم ودقّـة السّـبك؛ ومـن ثمّ إعجـاز القـرآن الكريـم بصـورةٍ لا يجـادل فيها إلا جاهـلٌ أو معانـد .

حيـث يظهر مـن خلال ذلـك جوانب متعـدّدة من الإعجـاز القـرآني، فكما أن القـرآن العظيـم معجـزٌ في فصاحـة ألفاظـه، ومعجـز مـن جهـة ترتيبه ونظـم آياته، فهـو معجـزٌ كذلـك في شرف معانيـه وتناسـق موضوعاته؛ مـن جهة اتسـاق النظم في عقـدٍ واحـد في جملـة الآيـات، ومعجـزٌ كذلـك في التناسـق البديـع في مقاطـع السـورة ومحاورهـا كتناسـق مجموعـة العقـود في جيدٍ واحـد)[2]

وفكـرة هـذا الكتـاب لاحـت في ذهنـي قبـل بضـع سـنوات عندمـا اطَّلعـت عـلى التفسـير القرآني للقـرآن للدكتـور عبد الكريـم الخطيب، رحمه الله، واكتشـفت اهتمامـه بالترابـط والتناسـب بـين مقاطـع الآيـات في كثير مـن المواضـع، فجمعت كل مـا كتبـه في هـذا البـاب في ملـف يتجـاوز ٣٠٠ صفحـة، ثـم ظـل هـذا الملـف حبيـس الأدراج لبضـع سـنوات. ثـم شـاءت إرادة الله عـز وجـل أن أعـود إليـه بعـد فـترةٍ طويلـة للاطـلاع عليـه، فلمعـت في عقلي فكـرة تنفيـذ (مـشروع الترابط الموضوعـي في سـور القـرآن)، وأعنـي بالترابط الموضوعـي: (انتظـام الموضوعات الـواردة في السـورة وتسلسـلها ، ومعرفـة أوجـه وعلـل الترابـط والتلاحـم بينهـا، بحيـث يكـون كل موضـوع آخـذاً بعنـق الآخـر، في ترابـط وتلاحـم لا يخـرج منه شيء خـارج السـياق)[3] أو بعبـارة أخـرى : (تتابـع وترابـط وتآلف آيات السـورة وموضوعاتهـا فيـما بينهـا في غايـة الجـمال والحسـن والإبـداع ، حتى تكون السـورة كالآيـة الواحدة) .

---

(1) بحث علم المناسبات القرآنية دراسة نظرية ونماذج تطبيقية – د. محمد عبد الغني سلامة
(2) التناسق الموضوعي في سورة الفتح ص7 – إبراهيم بن محمد مليسي
(3) التناسق الموضوعي في سورة الأنفال ص 30 – بدر إبراهيم الذيابي

(ولا شك أن هذا العلم دقيق المسالك خفي المدارك، وهو من العلوم التي تحتاج إلى بذل الجهد في التتبع والاستقصاء اللغوي لدلالات الألفاظ القرآنية، والإحاطة بأسباب النزول، والتوسع في أفانين علم البلاغة والأساليب البيانية، وفوق كل ذلك ينبغي أن يكون الباحث ذا حس مرهف ونفس شفافة وذكاء لماح، ليدرك سر هذا الترتيب للآيات التي وُضعت بجوار بعضها، وقد أكدت الأخبار الصحيحة عن المعصوم أن الفاصل الزمني بينها يتجاوز السنوات العديدة أحيانًا.

وعلى الباحث أن يبذل قصارى جهده للتعرف على وجه المناسبة بين الآيات، فإن ظهر له شيءٌ من ذلك فذلك نعمةٌ من الله تعالى وفضل عليه، وله أن يقول به ويظهره خدمة لكتاب الله تعالى، وإن خفي عليه وجه المناسبة فعليه أن يمسك ولا يتكلف، وينسب علم ما خفي عليه إلى مُنزل الكتاب الذي أمر بترتيبه على هذا الشكل، ولا يدرك أسرار كتاب الله كلها أحدٌ من البشر ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.[الفرقان 6]. [1]

وقد اعتمدت بصفة رئيسية – في بداية المشروع وأصله– على التفسير القرآني للقرآن، والتيسير في أحاديث التفسير للشيخ محمد المكي الناصري، ثم توالت المصادر المتنوعة بعد ذلك كالغيث المنهمر؛ فعدت إلى تفاسير أخرى متنوعة، وكتب كثيرة اهتمت بالتفسير الموضوعي لبعض سور القرآن المنفردة، وبدأت رحلةُ الجمع والترتيب، والتهذيب والتنسيق، والحذف والإضافة. [2].

(1) من بحث تَرْتِيبُ الآيَاتِ الْكَرِيمَةِ فِي السُّوَرِ وَحُكْمُهُ – د. حسين عبد الحميد البر ..
وللمزيد من الكتب والبحوث التي تتعلق بتأصيل قضية الترابط الموضوعي، أنصح بقراء:
(التناسق الموضوعي في السورة القرآنية – د. محمد بن عمر بازمول)– (النبأ العظيم – د. محمد عبد الله دراز)

(2) ذكرت في الحواشي المصادر الأخرى التي اعتمدت عليها – غير التفسيرين الذين ذكرتها، فإنني في كثير من الأحيان أدمج بين التفسيرين في نفس الفقرة، وأحيانا أخرى أكتب ما فتح الله به علي في فهم الترابط .

وقد قسمت القرأن الكريم إلى ثلاثة أجزاء:

- العشر الأولى: (الفاتحة - التوبة): وهو يتناول مقومات بناء (الأمة المسلمة) في حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدولية، وأسس تماسكها وسبل تحصينها من أعدائها المتربصين بها في الداخل والخارج.

- العشر الثانية: (يونس - العنكبوت): وهو يتناول قيماً إيمانية وسنناً ربانية تحصن (المجتمع المسلم) من فتن الباطل، وتقوده للثبات على دعوة الحق.

- العشر الثالثة: (الروم - الناس): وهو يتناول أسس التربية النفسية (للفرد المسلم)، ومعالم تزكيته، وسبل الارتقاء إلى المثل العليا والأخلاق الفاضلة.

وقد استخرت الله تعالى في البدء بالعشر الثانية من القرآن الكريم على غير العادة في البدء بالسور حسب ترتيب المصحف، وذلك لسببين:

1 - يغلب على هذه السور الاهتمام بالقصص القرآني وما يحويه من سنن ربانية وتوجيهات إيمانية ومعالم تربوية في الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال.

2 - اهتمام هذه السور- وهي من القرآن المكي (باستثناء سورتي الحج والنور)- ببناء الإنسان الصالح في ظل من العقيدة الصحيحة والعبادة الخالصة والأخلاق الفاضلة، وهي في سبيل ذلك تركز على تكوين الضمير، وتربية الوجدان، وتزكية العقول، وتحرير الإنسان من كافة صور الشرك والاستعباد.

على أن تصدر تباعاً- بإذن الله- العشر الأولى والأخيرة من القرآن الكريم لتكتمل هذه السلسلة المباركة.

عملي في هذا الكتاب:

١ - الحديث عن موضوع السورة بإيجازٍ يقتضيه المقام.

2 - بيان علاقة السورة بما قبلها، وقد اقتصرت على ما ذكره د. عبد الكريم الخطيب إلا في بعض المواضع القليلة، وقد أثبت ذلك في موضعه.

٣- تقسيم السورة الواحدة إلى عدة مقاطع مع وضع عنوانٍ لكل مقطع، ثم الحديث عن علاقة كل مقطع بما قبله، دون إهمال التناسب بين آيات المقطع الواحد.

وإني أتوجه بالشكر والتقدير للدكتورة سمر الأرناؤوط، لمراجعتها للكتاب وما قدمته من إضافاتٍ قيمة وملاحظات سديدة وتوجيهات لطيفة؛ فجزاها الله خير الجزاء ونفع بعلمها.

أسأل الله عز وجل أن يتقبل مني هذا الكتاب، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يمدني بالهمة العالية والعزيمة الفتية لاستكمال باقي سور القرآن الكريم.

هذا وأسأل الله الهداية والتوفيق، وأن يجعلني من خدمة كتابه إنه سميع مجيب.

أهمية دراسة الترابط الموضوعي للسورة القرآنية:

1 – (إنّ الوقوف على التّناسق الموضوعيّ في آيات السّورة يبرز اللّحمة المتينة والبناء المحكم بين أجزاء القرآن الكريم. ومن محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعضٍ.

2 – إنّ معرفة التناسق لآيات السّورة يساعد على فهم المعنى العام للآيات بما لا يقلّ أهميةً عن معرفة أسباب النّزول.

3 – من خلال الوقوف على الارتباط الوثيق بين محاور السّورة يبرز بديع النّظم ودقّة السّبك؛ ومن ثمّ إعجاز القرآن الكريم بصورةٍ لا يجادل فيها إلا جاهل أو معاند .

حيث يظهر من خلال ذلك جوانب متعدّدة من الإعجاز القرآني فكما أن القرآن العظيم معجز في فصاحة ألفاظه، ومعجز من جهة ترتيبه ونظم آياته، فهو معجزٌ كذلك في شرف معانيه وتناسق موضوعاته؛ من جهة اتساق النظم في عقدٍ واحد في جملة الآيات، ومعجز كذلك في التناسق البديع في مقاطع السورة ومحاورها كتناسق مجموعة العقود في جيدٍ واحد .

4 – إن دراسة النسق القرآني في السور من أعظم الوسائل للوصول إلى هداية القرآن الكريم في شتى المجالات التي يحتاج إليها المسلم، وذلك من خلال إدراك ترابط أجزاء السورة بعضها ببعض، ويبين تكاملها من كل وجه، ويبرز تقارب موضوعاتها، ويظهر مقاصد السورة وأهدافها، وهذه النتائج تثمر بدورها للوصول إلى الهداية القرآنية.

5 – في تقرير التناسق الموضوعي في السورة ردٌّ على المستشرقين ومن تأثر بهم ممن يدَّعون تشتت الموضوعات وتفرقها في السورة الواحدة).[1]

(1) التناسق الموضوعي في سورة الفتح ص6–8 بتصرف – إبراهيم بن محمد مليسي

موضوعات السور من (يونس - العنكبوت)

إن المتأمل في سور هذه العشر يجد منظومةً قيمية وسنن ربانية ومعالم إيمانية وتوجيهات تربوية تستهدف (الثبات على الحق في مواجهة فتن وكيد أهل الباطل)، ونوضح ذلك كما يلي: [1]

- سورة يونس = الولاء للحق والبراءة من الباطل، والإنابة لله تعالى، والبعد عن الاستكبار والطغيان.

- سورة هود = الاستقامة على الحق والحذر من الركون إلى الظالمين.

- سورة يوسف = الصبر على فتن الباطل وحسن الظن بالله مفتاح الفرج، خاصة في أوقات المحن والشدائد.

- سورة الرعد: قوة دعوة الحق وآثارها في الكون والنفس والحياة في مقابل ضآلة الباطل وهوانه.

- سورة إبراهيم = ثبات دعوة الحق ورسوخها، وثبات حاملي رايتها في مواجهة الطغاة والظالمين.

- سورة الحجر = حفظك للصراط المستقيم ومحافظتك على قيمه ومعالمه في نفسك ومجتمعك والدعوة إليه هو سبيل نجاتك وحفظ الله لك.

- سورة النحل = حسن استثمار النعم الربانية في تحقيق القيم الإيمانية الرشيدة والتي تستهدف حماية المجتمعات من الفرقة والفوضى.

(1) ما ذكرته في موضوعات سور (الحجر - الأنبياء- الفرقان - النمل) نقلته من كتاب (المهارات التطبيقية لتدبر القرآن الكريم - د. سليمان الدقور)

- سـورة الإسراء = تنميـة إحسـاس الإنسـان بمسـئوليته عـن سـعيه وعمله، وهدايتـه وضلالـه، والدعـوة إلى قبـول هدى القرآن الـذي يهدي للتي هـي أقوم في العقائـد والأخـلاق والقيـم والسـلوك، والحذر مـن مخالفته والإعـراض عنه.

- سـورة الكهـف = وسـائل حمايـة المجتمـع المسـلم مـن الفتـن المتنوعـة مـن خـلال تمييـز الحقائق مـن الأباطيل، والصحيـح من الزيـف، وهذا بـدوره يقود إلى إيثـار القيـم الإيمانيـة عـلى الزينـة المادية.

- سـورة مريـم = الحفـاظ على مسـيرة الديـن عبر الأجيـال من خـلال التركيز عـلى العبوديـة الخالصة وأثرها في اسـتجلاب الرحمـة الإلهية .

- سـورة طـه = إعـداد الداعيـة إيمانيـاً وتربويـاً لتحمـل تكاليـف الدعـوة من أجـل تحقيـق منهج رفـع الشـقاء عن الإنسـان، الناتـج عن سـطوة الباطـل وهيمنة الطاغوت.

- سـورة الأنبيـاء = وحـدة الصـف المؤمـن في السـير عـلى خطـى الانبيـاء في دعوتهـم وجهادهـم وتبليغهم للديـن ونصرة الحق، لتحقيـق الهدايـة والعبودية لله، وتحقيـق نـصر الحـق عـلى الباطل.

- سـورة الحج = التزام خط التقوى في الشـعائر والمشـاعر، والولاية والنصرة، والمجاهـدة والمدافعة يضمن تماسـك المجتمع وحمايته مـن أيدي العابثين.

- سـورة المؤمنـون= تحقيق الإيمان سـبيل الفلاح في الدنيا بوحـدة المجتمع وفي الآخرة بالفـوز بالجنان.

- سـورة النـور = أثر اتِّباع طريق الحـق ونور الهداية في طهـارة المجتمع وعفته، وتحصينه من خفافيش الظلام الذين يسـعون لنشر الفاحشـة وإشـاعة الفوضى.

- سـورة الفرقـان= صناعـة الشـخصية الفرقانيـة التي تكشـف زيـف الباطل وتهافـت شـبهاته، وبنـاء منهـج الفرقـان في التصـور والقيم والسـلوك.

- سـورة الشـعراء = دور دعاة الحق في مواجهة زيف الباطل وكشـف شبهاته، وفضـح انحرافاته حتى لا ينخدع النـاس بتزيينه ومكره.

– سـورة النمـل = ضبـط الاسـتجابة لدعـوة الحـق وعـدم الاسـتكبار عنهـا لتجنـب عواقـب التـولي والإعـراض، مـن خـلال المواجهـة بـين منطـق الحجـة والبرهـان ومنطـق القـوة والسـلطان.

– سـورة القصـص = طمأنة المسـتضعفين برعايـة الله لهم في مواجهـة الطغيان، ودعوتهـم إلى الثبـات عـلى الحق، واليقين بسـنة الله في عقـاب المجرمين.

– سـورة العنكبـوت = الفتـن والمحـن هـي البوتقـة التـي ينضـج فيهـا الإيمان لمواجهـة فتـن الباطـل التي تتطلـب الصـبر والثبـات والتضحية والبـذل والمجاهدة (الهدايـة عـلى قـدر المجاهدة).

سورة يونس

موضوع السورة:

هـذه السـورة دعـوة عاجلـة- إلى المعرضـين والمعانديـن- لاتِّبـاع الحـق قبـل فـوات الأوان، وذلـك مـن خـلال التركيز عـلى (دلائـل الحـق) الفطرية والنفسـية والكونيـة والعقليـة والتاريخيـة، والتـي تسـتهدف تعريـف النـاس بصفـات الإلـه الخالـق (الحـق)، بذكـر آثـاره وقدرتـه الدالـة عـلى التدبير الحكيـم، وسـننه الكونية الدالـة عـلى التناسـق والإبـداع ، وسـننه الاجتماعيـة الدالـة على عظمـة الله وجلاله وسـلطانه . وتعريفهـم بالكتـاب (الحـق) فهـو منهـج الحق الـذي من اتّبعـه اهتدى ونجـا، ومـن أعـرض عنـه ضـلّ وهلك.

والسـورة تنتقـل بالإنسـان مـن آيـات الله في الكـون إلى آياتـه في النفـس، إلى مشـاهد القيامـة المؤثـرة، إلى قصـص الماضـين ومصائرهـم، كأنهـا جميعـاً حـاضرة معروضـة للأنظـار.

كما ركـزت السـورة علـى أهـم الأسـباب التـي تصـد النـاس عـن (اتبـاع الحـق)، وأبرزهـا:

(الاغـترار بالمتاع الدنيـوي - اتِّباع الظن - الافتراء والكـذب - تعطيل أدوات الإدراك - الغفلة - الاسـتكبار والعنـاد - التقليد الأعمى).

وبعـد وضـوح الحجـج القاطعـة والبراهـين السـاطعة لم يتبق إلا أحـد أمرين: إمـا الاسـتجابة لدعـوة الحق في فـترة الإمهال كـما فعل (قـوم يونـس)، أو الإصرار عـلى الاغـترار والاسـتكبار، والاسـتجابة عنـد حلول المـوت بعد الفـوات كما فعل (فرعون) .

مناسبتها لما قبلها:

ختمت سورة التوبة التي سبقتها بقوله تعالى : « لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ .. ». وفى هذا إلفات للعرب عامةً ولقريش خاصة إلى الحقوق الإنسانية الواجبة عليهم نحو هذا الرسول المبعوث إليهم من بينهم ومن ذوى قرابتهم .. وهذه السورة جاء ابتداؤها منكراً على قريش وعلى العرب تنكّرهم لهذا الرسول، ووقوفهم منه موقف المشَّاقة والعناد مع ما بين يديه من آيات ربه التي تشهد بأنه رسول رب العالمين.

وقد أضافت د. سمر الأرناؤوط وجهاً آخر لطيفاً للتناسب؛ فقالت:

(يدهشني التناسب في خواتيم (سورة التوبة) بالتعبير بفعل المجيء في توصيف الله عز وجل لرسوله ﷺ : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (128).

وفي (سورة يونس) توصيف الله تعالى لكتابه الحق بفعل المجيء أيضاً :
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (57).

وفيهما تناسب الرحمة بالمؤمنين والخطاب المباشر لكل سامع وقارئ (جاءكم، من أنفسكم، عليكم/ جاءتكم، من ربكم)

ففي سورة التوبة إعلان مجيء الرسول وفي يونس إعلان مجيء الرسالة، هذا والله أعلم.

مقاطع السورة:

- جحودٌ وتكذيب ورد شبهة: الآيات (1 - 6)

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ
رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ
ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ
إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ
جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا
كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ
مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ
ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ٦﴾

بدأت السورة بالإنكار على المشركين موقفهم من (دعوة الحق) وشغبهم على رسولها ﷺ، وعجبهم من أن يكون المبعوث إليهم رجلاً منهم، واتهامهم الكاذب له بالسحر.. ثم تحدثت الآيات التالية (3-4) عن (معالم هذه الدعوة) وهي الإيمان بالله واتخاذه ربّا متفرداً بالربوبية وحده لا شريك له، والمآل والمرجع إليه سبحانه؛ فيثيب المؤمنين بفضله ويعاقب الكافرين بعدله.

ثم عرضت بعض مظاهر تسخير الله عز وجل للكون (الآيات 5-6)، والتي تشير إلى حكمة الله عز وجل في هذا الخلق، والتي تقتضي أن يرسل الله رسولاً ليبين للناس معالم دينهم لعل النفوس الشاردة تستيقظ من غفلتها وتعود إلى رشدها وصوابها.. فليس العجب من إرسال الرب لرسولٍ وإنما العجب أن يرى الناس آيات ربهم في الكون من حولهم ولا يؤمنون به.

- الكفر والايمان .. الأسباب والنتائج : الآيات (7 – 14) :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ
هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ
﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ
وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾
۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ
أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا
مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ
كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم
بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ
خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن (معالم دعوة الحق وآثارها في الكون)، تأتي هذه الآيات لتبين انقسام الناس إلى فريقين تجاه هذه الدعوة ومصير كل فريق: فريقٌ خلت قلوبهم من الإيمان بالآخرة والعمل لها، ورضوا بالحياة الدنيا، ولم يفكروا إلا في الاغتراف من لذائذها وشهواتها، وهؤلاء الغافلين توعَّدهم الله عز وجل بالعذاب الأليم، وفريق المؤمنين الذين يسارعون إلى الأعمال الصالحة، وبينت ما ينتظرهم من النعيم المقيم. (الآيات 7–10).

وبعد أن ذكرت الآيات السابقة (استعجال) المجرمين لشهوات الدنيا وإيثارها عن الآخرة، جاءت الآيات التالية لتعرض صورةً قبيحة من هذا (الاستعجال)، وهي استعجالهم لنزول العذاب الذي توعَّدهم القرآن به،

مبالغة منهم في الاستهزاءِ بمجيئه والتكذيب بوقوعه، وهذا يدل على فرط جهلهم وشدة عنادهم!..

وكيف يستعجل هذا الإنسان الضال العذاب مع أنه إذا أصابته كربة أو نكبة، لجأ إلى الله التجاء العاجز المضطر، حتى إذا ما زالت عنه آثار النكبة، وانكشفت عن ساحته الكربة، نسي ربه نسياناً تاماً، وعاد إلى طغيانه وإسرافه على أقوى وأشد ما يكون. (الآية 12).

ثم أراد الله عز وجل أن يلفت أنظار هؤلاء المنحرفين إلى سنته في (إهلاك المجرمين) من الأمم السابقة لعلهم ينزجروا عن غيهم وضلالهم، كما بينت سنته تعالى في (الاستخلاف) لتحقيق حكمة الابتلاء. (الآيات 13–14).

– شبهات باطلة وأكاذيب مفتراة (وردود عليها): الآيات (15 – 30) :

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ
بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ
أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾
قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ
عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ
قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا
كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾
وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟
إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ
إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ
وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ
أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ
نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ
وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا
حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾
وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ
أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ
هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا
لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ
ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ
أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ
مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٣٠﴾

بعد أن ذكرت الآية السابقة (سنة استخلاف الله تعالى للناس) ابتلاءً لهم واختباراً، حتى يتجلى في تصرفاتهم ما هم عليه من رشدٍ أو سفه، جاءَت هذه الآيات تعدد بعضًا من جرائمهم الدالة على أنهم لم يستجيبوا لدعوة الإيمان، ولم يقوموا بما يقضي به استخلافهم، وأبرز هذه الجرائم:

1 – إصرارهم على الكفر بآيات القرآن البينات، والتكذيب بكل ما جاءَ به الرسول ﷺ، وطلب تبديل آيات القرآن بما يوافق أهواءهم الضالة، والرد عليهم (الآيات 15–17).

2 – اتخاذ الشركاء والأنداد من دون الله، والزعم بأنها تشفع لهم عند الله، غافلين أن التوحيد هو الدين الحق، وأن الشرك ظلمٌ عظيم، وجهالات ابتدعها أهل الغي والضلال، فالتوحيد ملةٌ قديمة اجتمعت عليها الأُمم قاطبة فطرةً وتشريعًا. (الآيات 18–19).

3 – اقتراح المعجزات المادية مكابرةً وعناداً، وتعليق إيمانهم بهذه المعجزات .(الآية 20).

4 – كفرهم بنعم الله وجحودهم لأفضاله، وأنهم إذا مسّهم الضّر جزعوا واستكانوا، وإن أصابهم الخير وجرى عليهم النعيم طغوا وبغوا.. وفي الآية تعريضٌ بالمشركين وبمكرهم بآيات الله التي جاءهم بها رسول الله هدىً ورحمة ليستنقذهم بها من ضلالهم وليخرجهم بها من عمى الجاهلية. فهم يريدون ديناً مفصّلاً وفق مصالحهم الخاصة فقط ودون تكاليف، يريدون حقوقاً لا واجبات!. (الآية 21).

ثم ضرب لهم مثلاً يكشف عن طبيعة (الإنسان الجاحد)، وهو الالتجاء إلى الله في الشدة والإعراض عن الله في الرخاء والنعمة، وذلك من خلال صورة ركب في سفينة، تسير رخاءً بريح طيبة يفرح بها الراكبون، ثم فاجأهم موقفٌ خطيرٌ يحتوي على رياح عاصفة، وأمواج عالية، واقترب الموت وساد الفزع والخوف. في هذه الشدة لا يلجأ الإنسان إلا إلى الله، مخلصاً له الدعاء والنداء، متضرعاً إليه في البأساء، فلما أنجاهم الله من هذه الشدة، إذا بهم ينسون عهدهم، وينقضون ميثاقهم، ويسرفون في البغي والعدوان بسبب ذلك المتاع الزائل الزائف الذي يلهيهم فينسيهم ربهم، وينسيهم آخرتهم. (الآيات 22–23).

لذا تكشف الآية التالية (24) عن (حقيقة الحياة الدنيا)، فهي دار فناءٍ لا بقاء لشيء فيها وإن زها وازدهر، وهي دارٌ متاعها غرور وظلها زائل، لا يغتر بها ولا يثق فيها إلا من استجاب لداعي هواه ووساوس شيطانه.. أما (الدار الآخرة) فهي دار الأمن والسلام والخلود التي يدعو الله سبحانه وتعالى إليها عباده، ويبعث فيهم رسله ليدلوهم عليها وليكشفوا لهم معالم

الطريق إليها.. فطوبى لمن استجاب لهذه الدعوة من المحسنين وفاز بالنعيم المقيم، ويا لبؤس المسيئين، تعلوهم وتحيط بهم ذِلة من هوان وصغار جزاءً ما كانوا عليه من الطغيان والاستكبار في هذه الدار. (الآيات 25-27).

وأشارت الآيات التالية (28-30) إلى ما سيكون (يوم القيامة) من مناقشة وحوار بين المشركين وشركائهم يوم القيامة، حيث يتبرأ أولئك الشركاء من الذين أشركوهم بالله فعبدوهم، وينفضون أيديهم منهم، فلا ملجأ لهم في نهاية المطاف إلا إليه سبحانه، فهو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يحاسب ويعاقب، والخلق كلهم حيثما كانوا في قبضته، ورهن مشيئته وقدرته، ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾.

– حججٌ ساطعة وبراهين قاطعة يقابلها عنادٌ وجحود وصدود: الآيات (31 – 56):

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن
يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ
ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ
فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ
ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن
يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى
مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ
مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ
ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ

وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ
أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم
بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ
أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ
أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ
ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ
يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا
كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ
قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ
أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ
إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ
إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞
وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾
وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا
رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾
هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

بعد أَن صورت الآيات السابقة مشهدًا رهيبًا من مشاهد القيامة، يهيِّىء النفوس للتوبة والإنابة إلى الله، جاءَت هذه الآيات (31–35) تعرض (حجج الإيمان وبراهين الحق)، وقد ذكرت ثلاث حجج ساطعة:

(التدبير والتقدير – بدء الخلق وإعادته – الهداية)، ثم أشارت ما عليه أكثر الخلق من رفض الحق الواضح البين، واتِّباع الأوهام الباطلة والظنون الفاسدة. (الآية 36).

ومن هذه الظنون الباطلة زعم المكذبين أَن القرآن مفترىً من عند محمد ﷺ، لذا تحدى الله عز وجل بلغاء العرب من المشركين أن يأتوا ولو بسورة مثله (الآيات 37–38)، ولما ظهر عجزهم عن الإتيان بسورةٍ مثله، وتبين أَن ما قالوه باطل لا وجه له من الصواب، بين في الآية (39) أنهم سارعوا بتكذيب القرآن قبل أَن يتدبروا نظمه ويتفحصوا معناه، وهذا يقتضي المفاصلة بين النبي ﷺ وبينهم، وكأن هذه الآية هي نهاية المطاف في محاجتهم (الآية 41).

وتكشف الآيات التالية (42–44) (أسباب ضلالهم) وهي تعطيل الأسماع، وغشاوة العيون، والطمس على العقول، والإصرار على التعصب والعناد.

وتنتقل الآية (45) إلى (ساحة الآخرة) ومشهدٍ من مشاهد القيامة حيث تتجلى العدالة الإلهية المطلقة، وأن هؤلاءِ المشركين لن يفلتوا من عقاب الله عاجلاً أَو آجلاً، (الآيات 46–47).

ومع ذلك فإن هؤلاء المعاندين مصرّون على استعجال العذاب واستبعاد وقوعه (الآيات 48–53).

مع أنه في هذا اليوم العظيم تود النفوس الظالمة لو أَن لها جميع ما في الأَرض لتقدمه فديةً من هذا العذاب إن كان الافتداء يجديها (الآية 54)، وهيهات هيهات!.. فالله عز وجل وحده يملك ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وهو المتصرف وحده بالإحياءِ والإماتة، وإليه وحده تَرجعون يوم القيامة لَلحساب والجزاءِ (الآيات 55–56)، ومَن شَأْنه ذلك يجب أن يحذر عقابه العقلاءُ، وأَن يسارعوا إلى الإيمان بما أنزله على رسوله لهداية عباده.

- القرآن سبيل النجاة : الآيات (57 - 61):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى
وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ
مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم
مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩ وَمَا ظَنُّ
ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ
وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا
تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن
رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ
إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٦١﴾

في هـذه الآيـات مواجهـة للنـاس جميعـاً بعـد تلـك الرحلة التـي أشرفـوا فيها على مشـارف القيامـة، ورأوا مـا رأوه مـن أهوالهـا ومـا يلقى الظالمـون فيها من بـلاء وهوان .. وهاهـم أولاء يدعـون إلى مـا ينجيهـم مـن هـذا البـلاء ويدفـع عنهم شر ذلـك اليوم وويلاتـه، وهـو (اتِّبـاع كتـاب الله) ، فهو شـفاء لما في النفـوس والأرواح مـن الأمراض الباطنـة، وشـفاء لمـا في العقول والأفكار من الشـكوك الكامنـة «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ » (57).

فـما أبعـد الفـرق بـين هدايـة القـرآن لهـم وبين ضلالهـم فيـما حرموه مـن رزق الله الـذي أحلـه لهـم،« قُـلْ أَرَأَيْتُـمْ مـا أَنْـزَلَ اللَّهُ لَكُـمْ مِـنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْـهُ حَراماً وَحَـلالًا قُـلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُـمْ أَمْ عَـلَى اللَّهِ تَفْـتَرُونَ» (الآيـات 59–60).

ثـم تأتي الآيـة (61) لتعـرض لبعض سـلطان اللّٰه ونفـاذ قدرتـه وإحاطة علمه بـكل شيء، وأن مـا يقـع مـن الضالـين والمكذبـين هـو في علـم الله يحصيـه عليهـم ويجزيهـم بـما هـم أهـل له مـن بـلاءٍ ونكال.

- أولياء الله .. بين العزة والبشرى: الآيات(62 -70) :

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي
ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا
يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ
لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ
﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ
سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم
مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا
مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

لما كشفت الآيات السابقة بعضاً من حالات ومواقف (المشركين)، بيّنت هذه الآيات حال (المؤمنين المتقين) والتعريف بهم وبصفاتهم، حتى يكونوا قدوة صالحة لبقية الناس، فيسلك من يأتي بعدهم نفس الطريق الذي سلكوه، ثم بينت ما ينتظر أولياء الله، من البشريات والهبات. (الآيات 62-64).

ثم عرضت صورةً من (رعاية الله لأوليائه) من خلال تسلية النبي ﷺ عما يعتريه في بعض الأوقات من حزن، بسبب ما يجده من قومه من التكذيب والمعارضة. (الآية 65).

ثم تعرض الآيات التالية (أعداء الله والمطرودين من رحمته) وهم الذين أشركوا بالله واتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم من دونه، وادَّعوا لله ولداً سبحانه، وبينت سوءَ عاقبتهم. (الآيات 66-70).

– سنن الله في الصراع بين الحق والباطل (نصر الله لأوليائه من الأنبياء واتباعهم وإهلاك أعدائه): (الآيات 70–100):

هذا المقطع يبرز سنن الله في الصراع بين الحق والباطل في مجال (التاريخ) من خلال عرض قصة نوح وقصة موسى عليهما السلام، كنماذج لأولياء الله الذين ينصرهم الله عز وجل، تذكيراً لمشركي قريش بما آل إليه أمر قوم نوح، وأمر فرعون وملئه، من جراء إصرارهم على الباطل، ورفضهم لقبول الرسالة الإلهية، وتحذيراً لهم من أن ينالهم من العذاب ما نال الأمم الغابرة، إذا أصروا على رفض الدعوة الإلهية ولم يستجيبوا لله وللرسول، في مقابل حفظ الله لأوليائه ورعايته لهم .

نوح عليه السلام في مواجهه قومه: الآيات (71 – 74) :

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي
وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا
يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا
سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ
﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا
ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ
رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ
كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

ويبرز في هذه القصة (توكل نوح عليه السلام) على الله، واعتصامه بحبله، وامتثاله لأمره، وإخلاصه في نصحه، وختمت القصة ببيان عاقبة المستكبرين ونجاة المؤمنين. ثم تحدثت الآيات التالية عن أفواج الرسل التي جاءت بعد نوح عليه السلام، وما جاء به أولئك الرسل إلى أقوامهم من الحجج القاطعة والبراهين الساطعة، إلا أن أقوامهم بادروا إلى تكذيبهم، وأصروا على عنادهم .

موسى عليه السلام في مواجهه فرعون : الآيات (75 – 93) :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ
وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ
﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾
قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ
لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ
ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ
بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ
خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ
ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ
﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا
بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا
بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا
وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ
فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ
قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ
ءَايَةًۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ
صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

وقصة موسى عليه السلام مع فرعون تمثّل وجهاً من وجوه الطغيان والكفر، والكبر والاستعلاء، فقد جاءه موسى عليه السلام يدعوه إلى الله ويوجهه إلى ما يزكّيه ويطهره ويقيمه على طريق الحق والإحسان، ولكن فرعون يأبى إلا عناداً وكفراً، بل ويتهم موسى عليه السلام بأنَّ الدعوة التي جاء بها من عند الله إنما ترمي إلى قلب نظام الدولة، والاستيلاء على مقاليد الحكم، وهذا الموقف الفرعوني هو نفس الموقف الذي يقفه الطغاة، تجاه جميع الدعوات الصالحة في كل جيل.

وتتواصل الآيات في عدة مشاهد بدءًا من استعانة فرعون بالسحرة لمقاومة دعوة الحق، ثم وصية موسى للمؤمنين به بالثبات على الحق، ثم دعوة موسى على فرعون، ثم خاتمة المشاهد وهو إغراق فرعون وجنوده. (نموذجاً لتحقق سنة الله في إهلاك الطغاة الظالمين المعاندين).

ثم يعقب السياق بلمحة سريعة عن (مآل بني إسرائيل) بعدها، فبعد إنعام الله على بنى إسرائيل بإنجائهم وإهلاك عدوهم، جاءت هذه الآية لبيان أحوالهم وما أفاض الله عليهم من نعمه الوفيرة وأنهم لم يقوموا بشكرها. (الآية 93) وفيها تحذير لهم ولمن بعدهم من جحود النعم التي قد يودي بهم إلى جحود المنعم فيحق عليهم العذاب والهلاك كما حق على المكذّبين.

– سنن اللّه تعالى في الأمم مع رسلهم: الآيات (94 – 103):

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن قصص بعض المرسلين مع أُممهم وركزت على (سنة الصراع بين الحق والباطل)، جاءَت هذه الآيات تعقيباً على ذلك مبينة (سنن الله عز وجل في معاملة الأمم):

1 – سنة الحق ثابت مهما تكاثرت عليه حملات التشويه والتشكيك.(الآية 94)

2 – سنة خسران المكذبين بآيات الله. (الآية 95)

3 – سنة الله في ضلال المصرِّين على الجحود والعصيان، وإصرارهم على رفض الإيمان ولو جاءَتهم كل آية.(الآيات 96–97)

4 – سنة الله في أن الإيمان– قبل فوات الأوان– وقاية من العذاب الدنيوي والأخروي (قوم يونس) (الآية 98):

فإن قوم يونس – بمجرد ما فقدوا نبيهم– إذ ذهب مغاضباً لهم– أحسوا بأن عذاب الله قد أخذ يقترب من ساحتهم، فبادروا بالتوبة إلى الله بصدق وندم، قبل أن يدركهم العذاب.

5 – سنة الله في الهداية والضلال (الآيات 99 100–):

فتحقيق الإيمان يجب أن يكون عن طريق النظر والاختيار، وليس القهر والاضطرار.

6 – سنن الهدى بين الكتاب المنظور والكتاب المسطور (الآية 101) :

وفيها دعوةٌ إلى توجيه العقل إلى النظر في ملكوت السموات والأرض، وقراءة ما سطرته يد القدرة على هذا الوجود من آياتٍ ناطقة تحدّث عن الخالق العظيم وتسبّح بحمده في ولاءٍ وانقياد وخشوع.

7 – سنة الله في زوال الباطل وزهوقه، ونجاة المؤمنين. (الآيات 102 – 103).

– وصايا ربانية للثبات على الحق: الآيات(104 – 109) :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

جاء هذا المقطع الختامي للسورة ليعرض (وصايا ربانية لنبيه ﷺ) في مواجهته لطغيان الباطل وعناد الضالين:

1 – إعلان المفاصلة الحاسمة بين الإيمان والكفر، وإخلاص العبادة لله تعالى (الآيات 104–106).

2 – اليقين بأن النفع والضر، من الله وحده، وهذا من شأنه تثبيت الداعية على طريق الإيمان، واستعلائه على متاعب ومشاق الطريق. فلا تخيفه قوة أعداء الله ولا تثبّطه قلة التابعين المستجيبين لدعوته. (الآية 107)

3 – الإسلام منهج هداية والاستمساك به طريق النجاة، وعلى المرء تحمل تبعه اختياره. (الآية 108).

4 – اتِّباع الوحي الإلهي، وعدم الانحراف عن طريقه أو الخروج عن هدايته (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ)، والصبر على تحمل متاعب الأمانة الإلهية والقيام بتكاليفها وأعبائها الثقيلة، (وَاصْبِرْ).(الآية 109).

5 – اليقين بالله تعالى والثقة بحكمته وحُكمه (حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) .

سورة هود

موضوع السورة:

(تستهدف السورة تعريف الناس بمسئوليتهم أمام خالقهم وما يترتب على ذلك من حسابٍ وجزاء. والناس في ذلك فريقان:

أولها: الفريق المؤمن بالله تعالى الذي يرى أنَّ حياته في الدنيا للابتلاء والتكليف، وأنه مسؤولٌ عنها أمام الله تعالى يوم القيامة، فمُثابٌ أو معاقب.

والفريق الثاني: كافرٌ بالله تعالى، جاحدٌ لفضله وإحسانه، سلخ نفسه عن الشعور بأي تكليفٍ ومسؤولية، والحياة في نظره لا قيمة لها ولا معنى، سوى أنها فرصةٌ يُحقِّقُ فيها أهواءه ونزواته ثم تنتهي كما انتهت حياة مَن سبقه.

ولا شك أن بين الفريقين تبايناً كبيراً في الاعتقاد والأخلاق والسلوك والمعاملات، ومنشأ هذا التباين الاختلافُ الكبير بينهما في النظر إلى الحياة.

فشتان ما بين الحياتين، حياةٌ أساسها التكليف والمسؤولية، وحياة لا أساس لها ولا هدف ، فمثل ما بين الفريقين من تباينٍ كما بين البصير والأعمى.

ثم أوردت السورة بعض قصص الأنبياء مع أممهم، إظهاراً للتباين بين الفريقين بشواهد من واقع الحياة البشرية على الأرض، وأظهرت من خلال عرضها لهذه القصص طبيعة هذه المسؤولية، وأبعادها، ومدى تأثيرها على استمرار الحياة البشرية وبقاء العمران.

ثم أبرزت فيما عقبت به على قصص الأنبياء مع أممهم حجم وعُمْقَ الجزاء المترتب على هذه المسؤولية، وأنه سيكون وافياً، وأنه يبدأ من الدنيا ويمتد إلى الآخرة، وأنه لا يستفيد من هذه القصص، ولا يعتبر بها إلا الذين يؤمنون بمسؤوليتهم عن الحياة الدنيا أمام الله يوم القيامة . كما أن الانسلاخ عن هذه

المسؤولية يؤدي إلى نشر الفساد والترف والظلم في المجتمعات البشرية، ثم يؤدي بها إلى السقوط والهلاك. والناس كما كانوا في الدنيا فريقين، سيكونون يوم المسؤولية والجزاء فريقين أيضاً: الأشقياء والسعداء، وسيكون مصيرهما متبايناً تبايناً جذرياً.)[1]

مناسبتها لما قبلها:

سورة هود لها شبهٌ كبير بسورة يونس قبلها، وتستغرق أخبار الأنبياء السابقين وقصصهم مع أقوامهم أكبر قسم من هذه السورة، فبالإضافة إلى قصة هود مع قومه تتناول سورة هود جوانبَ جديدةً من قصص نوح وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى.

وفي مطلع سورة هود يبتدئ الحديث بالتنويه بكتاب الله، وما تتضمنه آياته من حكمة وإحكام، ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، كما اختتم الحديث في سورة يونس قبلها بوجوب اتِّباع كتاب الله، والثبات على تبليغه، والصبر على تحمل تبعاته ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

(1) التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم ج 4 / 6–7 بتصرف – الشيخ عبد الحميد طهماز .. فهي تفصل ما جاء في ختام سورة يونس: (الإسلام منهج هداية والاستمساك به طريق النجاة)، وعلى المرء أن يحسم أمره ويتحمل مسؤولية الدعوة إلى الله وإلى المنهج الحق والثبات عليها ولو كان وحيداً.

مقاطع السورة :

– موقف المشركين من الكتاب الحكيم : الآيات (1 – 11) :

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ
إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا
إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ
يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ
لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ
عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ
مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ
أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ
مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ
بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ
نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ
مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾﴾

تبدأ السورة بذكر الكتاب الحكيم الذي اشتمل على الدعوة إلى الإيمان بالله وإخلاص العبادة له وحده، والتحذير من عقابه والتبشير بثوابه . (الآيات 1 – 4).

ثم عرضت موقف المشركين من هذه الدعوة، وبينت أنهم لم يتأثروا بآيات القرآن، وأنهم يطوون صدورهم على الكفر وعداوة الرسول ﷺ، وتنذرهم بأن الله يعلم سرهم

ونجواهـم، وأَنـه سـيجزيهم بـما كانـوا يعملـون، فهـو العـالم المحيـط بـكل خلقـه، وهـو المتكفـل برزقهـم (الآيـات 5–6). ثـم تنبيـهٌ مـن الله إلى أن الحكمـة في التفضـل بخلقهـم والتكفـل برزقهـم إنما هـي (للابتلاء والامتحـان)، لتقوم الحجـة عليهم، ولكـن المعاندين اسـتقبلوا هـذا (الاختبـار) بنفوس خبيثة وعقولٍ فاسـدة وقلوب مريضـة لم تتعرف إلى اللهّ، ولم تهتـد إليـه، ولم تسـتمع لدعـاة الداعـين إلى الإيـمان بـاللهّ وباليـوم الآخر، بـل وصل بهم السـفه والحمـق إلى اسـتعجال نزول العـذاب اسـتهزاءً وتكذيبًا. (الآيـات 7–8).

(تلاحـظ في هـذه الآيـات (5–8)، وكأن الله يعالج ما في النفوس مـن (معوقات في طريـق عبادتـه وحـده) .. فكأنـه يقول لهـم: لمـاذا تتملصون مـن عبادتي؟ هـل تظنون أن أمركـم يخفـى علي؟!.. هل تخشـون إن أطعتمـوني أن يفوتكـم رزقكم أو يُقـتر عليكم؟!

هـل تظنـون أن السـموات والأرض خلقـت عبثـاً بـدون هـدف؟!.. أتظنـون أن لـن تسـألوا وتحاسـبوا بعد المـوت؟!.. ألا تصدقـون الإنـذار إلا إذا وقع عليكم العـذاب فأنتم تسـتعجلونه ؟!)[1].

ثـم تكشـف الآيـات التاليـة (10–11) عـن (أن إعراضهـم عن الحـق لم يكن لخفائـه، وإنـما هـو لاضطـراب نفوسـهم وترددها بـين يأس الـضراء وبطـر النعماء، ولـو أنهـم عصمـوا أنفسـهم مـن ذلك وعرفـوا الحـق واسـتقر في قلوبهم لـكان لهم مـن صـبر الإيمان وصالـح الأعـمال ما يطمئنهـم على حسـن العاقبـة)[2].

– تسرية وتثبيت: الآيات (12 – 24):

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣

(1) تأملات في سورة هود ص 23–24 – حنان لحام
(2) إلى القرآن الكريم ص104 – الشيخ محمود شلتوت

فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ
أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ
أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا
ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ
بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى
مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ
ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ
﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟
يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ
وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

لما تحدثت الآيات السابقة عن موقف المشركين من (الكتاب) والذي اتسم بالجحود والاستهزاء، التفتت الآيات إلى (النبي ﷺ)، تثبته في مواجهه عناد المشركين، وتحثه على متابعة تبليغهم وإقامة حجة الله تعالى عليهم، وتحديهم أن يأتوا بعشر سور مثل القرآن في بلاغته وحسن تنسيقه، وبينت أن تكذيبهم إياه لم يكن لطلب حجةٍ، وإنما هي الدنيا، ملكت عليهم قلوبهم، وصرفتهم عن النظر في حجة الله التي أنزلها بعلمه، فإذا كان يوم القيامة وسيقوا إلى الحساب والجزاء؛ فهنالك يرون سوء مصيرهم. (الآيات 12-16).

ثم تزيده تثبيتاً على حقيقة الدعوة بأنها دعوةٌ يؤمن بها من طهر قلبه واتجه إليها وإلى نفسه، فاتخذ منها البرهان على صدقها، ثم رجع إلى تاريخ البشرية وعرف أنها رسالة الله إلى خلقه (الآية 17). وما يكفر بها إلا الذين حرموا من إدراك الوجدان وبرهان العقل، وعميت عليهم أنباء الأولين، ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

ثم تعود الآيات (18–24) فتصف المكذبين بجملةٍ من الأوصاف وترشد إلى سوء مصيرهم، وتسجل مضاعفة عذابهم وحرمانهم من النصير المدافع، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾. ومن شدة التنكيل بهم تضع أمام أعينهم عاقبة المؤمنين: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. ثم تضرب المثل للفريقين بما يعرفون به مقدار التفاوت بينهم، ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

– قصص من التاريخ: (25–99):

هذه القصص تعرض من الماضي صورةً (للصراع بين الحق والباطل)، وفيها شواهد واقعية لصفات الفريقين اللذين مثلت لهما الآية السابقة، (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ). فقد أظهرت التباين الواضح بينهما في السلوك والمصير، كما دلت على أن مسئولية الإنسان عن عمله تمتد من الدنيا إلى الآخرة، وأن ما يترتب عليها من جزاء قد يكون في الدنيا قبل الآخرة.

وفي ذكر أخبار الأولين مزيدٌ من العبر والعظات يتمثلها النبي ﷺ – ومن آمن معه– من جهةٍ فيجدون فيها عزاءً لهم وصبراً على ما يلقون من عنت وعناد، كما يتمثّلها الكافرون من جهةٍ أخرى فيجد أهل النظر فيها دعوةً مجدّدة إلى الإيمان بالله واللّحاق بركب المؤمنين قبل أن يحل بهم ما يحلّ بالمكذبين من بلاءٍ ووبال.

1 – (نوح عليه السلام مع قومه): الآيات (25 – 49):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ
إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ
مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ
ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا
وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ
أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾
وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى
خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ
لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟
يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ
أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ
﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا
كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ
إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟
مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ
ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ
وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا
وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ
نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾

قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

ويتجلى في قصة (نوح عليه السلام) دعوته قومه إلى الإيمان بالله وعبادته دون غيره، وإلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وعذاب، وسجلت الآيات أجوبة كبار قوم نوح المتعنتين المتكبرين، وعرضت الشّبهات التي روّجها قوم نوح ليبرّروا بها تكذيبهم إياه، وهي تُبني على مغالطات باطلة ومعايير زائفة للسؤدد والفخار عندهم تقوم على القيم المادية المحضة. ولما ضاق كبار قوم نوح ذرعاً بدعوة نوح، ورده المُفحم، وجداله القوي، أخذوا يتحدونه ويطالبونه بتعجيل ما أنذرهم به من عذاب الله.

وتتوالى أحداث قصّة نوح مع قومه، وقد انتهت المحاورة إلى التّحدّي واستعجال العذاب، فيتلقى نوح الوحي من ربّه يقنطه من إيمان بقية قومه، ويأمره بصنع السّفينة لتكون أداةً لنجاته مع مَن آمن من أهله وقومه، وتناولت الآيات شفقة نوح على ابنه العاق الذي رفض ركوب سفينة الإيمان فكان من المغرقين، ثم مشهد استعطاف نوح ربه والرد الإلهي الحاسم بأنه ليس من أهله؛ فرابطة الإيمان تعلو رابطة النسب.

وتختم القصة بمشهد رسو سفينته على الجودي، وما صدر إليه من الإذن بالنزول من السفينة إلى الأرض، مصحوباً فيها بسلام الله، مع البشارة بحلول بركات الله عليه وعلى أمم المؤمنين من ذريته، والإنذار لأمم أخرى ستكفر بالله، فتنال حظها من المتاع في الدنيا ثم يلحقها العذاب الأليم في الآخرة.

2 - (هود عليه السلام مع قومه): الآيات (50 - 60):

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ
إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا
عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ
يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا
مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن
قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا
بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ
فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ
إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم
مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ
وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ
عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

ثم تأتي قصة (هود عليه السلام مع قومه) لتبين ما بذله من جهدٍ بالغ ونصح مستمر، في سبيل هدايتهم إلى الإيمان بالله، وحضهم على التوبة إلى الله، وتعريفهم بما يستتبعه الإيمان والتقوى من الحياة الطيبة والقوة، وتعريفهم بما يؤدي إليه الإصرار على الكفر والضلال، من تعذيبٍ واستئصال.

وفي هذه القصة إشارة هامة إلى أن الدعوة التي يدعو إليها الأنبياء والرسل دعوة واحدة، يجددها الواحد بعد الآخر، وأن موقف خصوم الأنبياء والرسل موقفٌ واحد يقلد فيه بعضهم بعضاً، ويتوارثونه خلفاً عن سلف، كما رأينا أن مصير أهل الفسق والكفر مصيرٌ واحد هو الخسران المبين والعذاب الأليم، ومصير أهل التقوى والإيمان مصيرٌ واحد هو الرضوان الأكبر والفوز العظيم.

3 - (صالح عليه السلام مع قومه) : الآيات (61 - 68) :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾
قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾
كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾

في هذه الآيات عرض لقصة نبي الله «صالح» عليه السلام وقد بعثه الله إلى «قومه ثمود»، وكانوا يسكنون «الحجر» بين المدينة والشام، وكانت دعوته صورة طبق الأصل من دعوة من سبقه من الأنبياء والمرسلين، وخلاصتها الأمر بعبادة الله دون سواه، والتعريف بأنه لا إله في الحقيقة إلا الله.

فما كان من قوم صالح إلا أن أجابوا نبيهم بنفس الجواب التقليدي الذي اعتاد خصوم الرسالات أن يجيبوا بمثله كافة الأنبياء والرسل، وهذا الجواب يكون عادةً

عبارة عن مزيج من التكذيب والتجريح والاستهزاء، بل ويصل الأمر إلى التحدي الصارخ بقتل الناقة معجزة الله إليهم، فيحل عليهم عذاب الهلاك والاستئصال.

4 -(إبراهيم ولوط عليهما السلام): الآيات (69 - 83):

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ
بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ
قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا
بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى
شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ
وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ
وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ
﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ
عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ
يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ
مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ
﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ
لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا
ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾
فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ
مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

وهذه قصة (إبراهيم عليه السلام وقد ضمت إلى (قصة لوط عليه السلام)، إذ كانت دعوتهما واحدة، وكان قومهما متجاورين متقاربين دياراً ونسباً وزمناً.. وتتصل أحداث قصة إبراهيم بأحداث قصة لوط، وينتقل المشهد من بين يدى إبراهيم إلى يدى لوط، وإذا هو وجهاً لوجه مع هؤلاء الرسل الذين يحملون الهلاك إلى قومه.

وكما كان لقاء الملائكة لإبراهيم لقاءً مفاجئاً أثار في نفسه ريبة، وأوقع في قلبه خوفاً، كذلك كان لقاؤهم للوط لقاءً مباغتاً له، نتيجة خوفه على هؤلاء الضيوف- الذين جاؤوا في صورة بشر- من اعتداء قومه عليهم بالفاحشة، ثم انتهت القصة بهلاك المجرمين ونجاة المؤمنين.

5 -(شعيب عليه السلام) : الآيات (84 -95):

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ
بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾
قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ
فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ
إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ
مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ
أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾
وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ
مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ
أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ
وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ
مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ
هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

وفي هـذه القصـة نواجـه نوعـاً جديداً مـن الانحرافـات السـلوكية ارتكبه قوم شـعيب وأسرفـوا فيـه إسرافـاً بالغـاً، فهـم يطففـون الكيـل والميـزان، ويبخسـون النـاس أشـياءهم، وهـم مثـلٌ فاضـح للاسـتغلال المـادي الفاحش.

وبالرغـم مـن جميـع الجهـود التـي بذلهـا شـعيب عليه السلام في سـبيل هدايتهـم وإقناعهـم بالحـق أصروا عـلى الباطـل، وأطلقـوا لألسـنتهم العنـان في الطعـن على شـعيب، والتهديـد لـه بالرجـم.

ولمـا انقطـع كل أمـل في قلوبهـم للإصـلاح الـذي جاءهـم بـه شـعيب عن الله تـبرأ منهـم ومـن أعمالهم، ووكلهـم إلى عـذاب الله المرتقب، ثم انتهت قصة شـعيب مـع كفـار مديـن بعذابهم وعقابهـم، ونجـاة شـعيب والذين آمنـوا معه، كـما ينتهي كل صراع بـين الخـير والـشر، والحـق والباطـل، باندحار الـشر والباطـل، وانتصار الخـير والحق.

6 - وما أمرُ فرعون برشيد : الآيات (96 - 99):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾

هكـذا تختم قصـص هذا الـصراع بقصة (موسـى عليه السلام مع فرعـون)، ولا تذكر تفاصيـل هـذه القصـة، بل تجـيء في هـذا العـرض الموجز المعجـز الـذي يجمع على إيجـازه كلّ مضمـون القصـة، ويكشـف عن الملامـح البـارزة فيها، مـع التّركيز على بيـان عاقبة فرعـون وسـادات قومه بالهـلاك واللّعنة .

– عاقبة القرى الظالمة: الآيات (100 – 111):

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠ وَمَا
ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ
رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ
لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣
وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ
فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ
١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ
فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ
مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ
نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ١٠٩ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا
كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١١٠ وَإِنَّ
كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١١ ﴾

في هذه الآيات تعقيب على القصص السابقة مبينة (سنة الله في إهلاك القرى الظالمة)، التي منها ما لا تزال أطلاله قائمة تشير إلى نقمة الله وعذابه، ومنها ما حل به الخراب والدمار فلم يبق منه عين ولا أثر. وفي كلتا الحالتين فإنها عبرة للمعتبرين، وتذكرة للغافلين. (الآيات 100–102).

ثم تنتقل الآيات من العقاب (الدنيوي) إلى العذاب (الأخروي)، فعرضت مشاهد رهيبةً ليوم القيامة مؤكدة حقيقة هامة، وهي أن النّاس يبعثون على ماتوا عليه من شقاءٍ بالكفر والجحود، أو سعادةٍ بالإيمان والتّقى والصّلاح، ولكلّ من الصّنفين جزاؤه الأوفى بعد التّقييم والحساب (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ). (الشّورى 7). (الآيات 103–108).

وبعد أن بين الله تعالى (عقاب الأشقياء وثواب السعداء)، أنذر أهل مكة بأن عبادتهم قائمة على الضلال، وأنهم سيلقون مصير الأشقياء الضالين إذا أصروا على شركهم (الآية 109)، ثم بين لنبيه ﷺ - تسليةً له وتثبيتاً- سنته تعالى في (اختلاف الأقوام على أنبيائهم)، مؤكدة أن نزول العقاب بالمتمردين سيكون في الوقت الذي عينه سبحانه لهذا العقاب، فلا استعجالهم يقدمه ولا إنكارهم يؤخره. (الآيات 110-111).

- فاستقِم كما أُمرت: الآيات (112 – 119):

﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ
(١١٢) وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ
ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ (١١٤) وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١١٥) فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ
يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ
ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ (١١٧) وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ
وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ
كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ (١١٩)﴾

من ثمرات الاعتبار بما كان من أحوال الأمم السابقة مع الرّسل وما تخلّلها من الوعد والوعيد، أن يكون الرّسول ﷺ ومن معه من المؤمنين متمسّكاً بالإسلام ومطبّقاً لتعاليمه على وجه قويم، لذا جاء أمر الله في هذه الآية (بالاستقامة على المنهج)، والاستقامة كلمةٌ جامعة وشاملة لكلّ ما يتعلّق بالعقيدة والعمل الصّالح والأخلاق الحميدة، وقد بينت هذه الآيات (معالم الاستقامة):

1 – أمرٌ من الله لرسوله ﷺ والمؤمنين بالثبات على الصراط المستقيم، ونهي من الله للمؤمنين عن البغي والطغيان، والظلم والعدوان. (الآية 112).

2 – الابتعاد عن موالاة الظَلَمة، والحذر من إعانتهم على الظلم بأي وجه من الوجوه، فإن الله وحده هو الذي يجب أن يكون ولي الذين آمنوا، يوالونه وينصرونه، ويقفون بجانب أوامره دائماً .(الآية 113).

3 – إقامة الصلاة على الوجه الأكمل، فهي أكبر مطهر ومكفر للسيئات، بما تعين عليه من محاسبة النفس على الأوزار، وما تدفع إليه باستمرار من التوبة والاستغفار .(الآية 114).

4 – الأمر بالصّبر مطلقاً ليشمل جميع أنواع الصّبر، وأشقّه ذلك الذي يتطلبه التّكليف من القيام بالأوامر واجتناب النّواهي. (الآية 115).

5 – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر– وهو ميزة الأمة الخاتمة خير الأمم الأمة الوسط–، وهو صمام أمانٍ لحماية المجتمعات من الانحراف (الآيات 116–117). وفيه إشارة لطيفة إلى أن الأمم المهلكة التي ورد ذكرها في هذه السورة، لو كان فيهم كثير من العقلاء يقاومون الفساد، ويضربون على أيدى الطغاة المستبدين، لما حقت عليهم كلمة العذاب.

6 – بيان سنة الله في تفاوت النفوس في قابلية الرّشد والصّلاح، أو الغيّ والضّلال، وذلك بما منحها الله من حرية الاختيار، وبيان ما يترتب على ذلك من حسابٍ وعقاب. (الآيات 118–119).

⏮ – **تثبيت اليقين: الآيات (120 – 123):**

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

بعد أن قص الله سبحانه وتعالى في هذه السورة قصص الرسل وعاقبتهم مع أممهم من نجاة المؤمنين، وإهلاك المكذبين، ذكر في الآية فائدة ذكر هذه القصص من تثبيت الفؤاد والإمداد باليقين في مواجهة المكذبين (الآية 120).

ثـم أمـر رسـوله ﷺ بالمفاصلـة التّامّـة بـين الفريقـين (المؤمنـين والكافريـن)، ثم تفصـل الأحـداث في نهايـة الأمـر بـما ينتهـي إليـه كل فريـق، مـن النّـصر والتّمكـين للمحقـين الصّادقـين، ومن الخيبة والخـزي للمبطلين الظّالمين.(الآيـات 121–122).

ولـما كان الله وحـده عـالم الغيـب والشّـهادة، وعلمـه محيـطٌ نافـذ في جميـع الكائنـات وإليـه وحـده يرجـع أمر تدبيرهـا، فيجب عـلى النبي ﷺ أن يتـوكل عليه ويسـتمر في عبادتـه وذكـره، (فَاعْبُـدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْـهِ وَما رَبُّـكَ بِغافِلٍ عَـمَّا تَعْمَلُونَ). (الآيـة 123).

سورة يوسف

موضوع السورة:

(نزلت هذه السورة الكريمة قبل الهجرة، حيث مرحلة الاستضعاف التي عاشها المسلمون، وقد ذاقوا ألوانًا من الإيذاء والاضطهاد. كانت هذه القصة غايةٌ في الأهمية لصاحب الدعوة، لسان حالها يقول: اصبر كما صبر النبيون من قبلك. إن الذي مكَّن ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، لهو قادرٌ على أن يمكن لك.

سينصرك الله على قريش، كما آثر الله يوسَف على إخوته. سيعترفون بخطأهم كما اعترفوا ليوسف.

إن كنت تكابدُ الإيذاء من أهل بلدتك، فهذا يوسف بيع عبدًا بعدما ألقوه أخوته في قعر الجب.

إن كنت فقدت أباك وأمك وعمك، فهذا يوسف قد فقد أهله أجمعين. إن كنت تكابد لأواء الحصار في الشِعب، فهذا يوسف لبث في السجن بضع سنين.

سيجمع الله شملك بقومك يومًا ما، طائعين لك، كما جمع الله شمل يوسف بأبويه وأخوته على عرش مصر.

سيندمل الجرح، ويزول الوجع، وستمضي في طريق الحياة بهذا القلب الخيّر، يفيض منه النور إلى البشر، وتسرج به قلوبًا غلفًا، وعيونًا عميا، وآذانًا صمًا). [1]

وخلاصة السورة = (ألطاف الله تحّف المصطفين (المخلَصين المحسنين) من عباده فلا تناهم عداوة النّاس ولن تزعزع ثباتهم على الحق مهما دبّروا لهم من مكايد ومؤامرات).

---

(1) يوسف أيها الصديق ص 5 – محمد مسعد ياقوت

مناسبة سورة يوسف لما قبلها:

ذكر د. أحمد نوفل العديد من أوجه التناسب بين سورة يوسف وسورة هود، أقتبس منه ثلاثة فقط:

1 - في سورة هود قصة (نوح مع ابنه)، وفي سورة يوسف قصة (يعقوب مع ابنه)، لكن شتان ما بينهما، ابن نوح قال إنه سيأوي إلى قمة جبل -ظالماً-، ويوسف ألقي في قعر جب -مظلوماً- والذي طلب النجاة هلك، والذي طلب له الهلاك نجا.

2 - وفي خواتيم سورة هود ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾. وفي سورة يوسف مشهدٌ من هذا الاختلاف وقع بين الإخوة الذين يفترض أن يكونوا مؤتلفين، ويكونوا أبعد الناس من الخلاف.

3 - ما أشبه قصة شعيب مع قومه في سورة هود حين قالوا له: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾. وكانوا الأذلة وهو العزيز. ما أشبهها بقصة يوسف مع إخوته: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾.. ثم كان هو «العزيز»... بعد أن كان المستضعف المكيد.[1]

مقاطع السورة:[2]

- الهدف من إنزال الكتاب، والامتنان على الرسول ﷺ - وعلى الناس- بنعمة هذا التنزيل (الآيات 1-3):

﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾

---

(1) سورة يوسف دراسة تحليلية ص 88-90 بتصرف

(2) استفدت كثيراً في تقسيم المقاطع والتعليق عليها من كتاب (يوسف أيها الصديق- د. محمد عاطف السقا)

بدأت السورة بالحديث عن منزلة هذا الكتاب ورفعة بيانه، وسمو مقاصده، وجمال قصصه، وهذه الآيات تمهيد لقصة يوسف عليه السلام، وفيها إشارة إلى أن المقصد الأول من آيات الله أن يعتبر الإنسان ويعقل أمره، فلا يكن كإخوة يوسف إذ لم يعقلوا أمرهم فغلب عليهم نزغ الشيطان وهوى النفس الفاسد والظلم فكان ما كان منهم، ولا يكن كامرأة العزيز إذ غلب على عقلها هواها السيء والخيانة فكان ما كان منها، وليكن كيوسف الصديق الذي عقل هواه بأمر ربه وبرهانه، وآثر الله والحياة الآخرة على المرأة ذات الجمال والجاه تعرض نفسها عليه، والدنيا تعجل إليه.

– يوسف عليه السلام من الجب إلى الملك: (الآيات 4–101):

والقصة تقع في ستة فصول، والترابط فيها واضح لا يحتاج إلى بيان، لذا سأورد عناوين المشاهد دون الخوض في تفاصيلها.

1 - يوسف في بيت أبيه (رؤيا تبشر بالمستقبل): الآيات (4-7):

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَآ عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾

وفيها ذكر رؤيا يوسف عليه السلام، والبشرى له بالنبوة والملك والتمكين.

2 - مؤامرة الحاسدين : الآيات (8-20):

﴿ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي
ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ
وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ
وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾
قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ
مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن
تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ
لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ
بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ
هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ
إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ
أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ
قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا
تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا
غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ
بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

وفي هذه الآيات عدة مشاهد:

(اجتماع إخوة يوسف وتآمرهم على الكيد له - مخادعة أبناء يعقوب لأبيهم في شأن يوسف ليأخذوه لتنفيذ مؤامرتهم- تنفيذ إخوة يوسف جريمة الغدر به- بيع يوسف ووصية العزيز به وبداية تمكين الله له).

3 - يوسف في بيت العزيز (فتنة المراودة): الآيات (21-35):

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ
أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ
ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾
وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى
هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ
ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ
بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ
مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا
سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ
قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن
دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن
كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ
ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ
تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ
بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ
ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ
هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ
فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ
ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ
ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾
ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ۞

وفي هذه الآيات عدة مشاهد:

(فتنة امرأة العزيز ليوسف، وكيدها له بالتحريض على الخيانة وانتهاك العفاف، وثباته العظيم في مقابلة الفتنة- كيد نسوة المدينة واجتماعهنَّ مع امرأة العزيز على فتنة يوسف- استغاثة يوسف بربه ليصرف عنه الكيد والفتن- الاجتماع على سجن يوسف رغم ظهور أدلة براءته).

ولعل سائلاً يسأل كيف تتحدث الآية الأولى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. عن تمكين يوسف وهو غلام يُباع ويُشْترى ويتحول من الحرية إلى الرق؟

والجواب كما ذكره د. حسين عبد الحميد البر في بحثه القيم (علم المناسبات بين السور والآيات) حيث يقول: (وبتدبر الآيات تظهر المناسبة في أزهى حللها، وهي أنه قد بدأ التمكين ليوسف في الأرض حينما اشتراه العزيز وذهب به لامرأته وقال لها ما قال، لأنه في هذه المرحلة ستظهر عليه أمارات التمكين، حيث العفة والأمانة والعلم والمعرفة والنضج، فكأن مجيء جملة التمكين في أول الأمر - رغم أنه ستأتي عليه فتن ومحن من فتنة النسوة والسجن وغيرها- هي بمعنى تهيئة الأسباب التي تؤدي إلى التمكين الفعلي في الموطن الثاني - أي بعد لقاء الملك، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. (يوسف 54-56) .

ومعرفة وجه المناسبة هذا يعطي درساً للدعاة والمصلحين أنهم لا بد أن يتعرضوا في سبيل دعوتهم ونشر القيم الطيبة والإصلاح في الأرض للمحن والفتن والشدائد وعليهم أن يصبروا ويتحملوا في سبيل غايتهم ما قد ينالهم من أذى، ويتخطوا ما قد يلاقونه من عقبات، وأن يثقوا في وعد الله مهما طال بهم الزمان، وأن يأخذوا من قصة يوسف درساً ومثلاً، فما بين بوادر التمكين وحكم الله بالتمكين ووقوع هذا التمكين بالفعل، سنواتٌ قاسى فيها يوسف عليه السلام الظلم والاضطهاد والعذاب والحبس بغير جريرة ولا ذنب، فوق المحنة الكبرى وهي فتنة امرأة العزيز والنسوة)

4 - يوسف في السجن: الآيات (35-57):

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥ وَدَخَلَ
مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ
أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ
مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ
أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ
وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ
مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ
أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ
ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا
ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ
٤١ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ
إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ
خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ
٤٣ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا
مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ٤٥ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ
أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ
خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦ قَالَ تَزۡرَعُونَ
سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧

ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ
﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ
ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ
ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ
إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ
قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ
﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي
غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ
ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ
عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ
نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ
خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

لقد جعل الله السجن لعبده الصادق الصابر المخلص المحسن:

- ✓ إيناساً في (الدخول) : استهل القرآن مشهد السجن بدخول يوسف فيه وبمعيته سجينان، وفي ذلك إيناس يوسف البريء في رهبة دخوله السجن لأول وهلة ولأول مرة.
- ✓ إكراماً في (المقام) من خلال الدعوة إلى الله.
- ✓ إعزازاً في (الخروج) من خلال رؤيا الملك وتأويل يوسف له، وكانت بوابته الكبرى للملك والتمكين.

5 - يوسف ولقاء إخوته الآيات (58 - 93)، ويمكن تقسيمه إلى 3 مشاهد:

✓ **المشهد الأول: (58-68):**

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

مشهد يوسف عليه السلام مع إخوته ومجيئهم إليه لما أصابهم القحط، فدخلوا على يوسف الذى صار الآن حاكماً على خزائن مصر ومشرفاً على شئونها وحفظها، وتوزيع الحصص والميرة بنفسه، فقد كانت مصر بحسن تدبير يوسف عليه السلام مركز ومخزن للغذاء للمنطقة كلها.

✓ المشهد الثاني: (69 – 87):

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا
تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ
ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾
قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ
وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا
جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ
كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ
أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ
أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾
۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ
فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا
مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا
مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ
خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم
مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ
لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟
يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ
حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا
لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى
ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ
وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾

قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾

هـذا هو المشـهد الثـاني في دخول إخوة يوسـف عليـه، ويتميز بدخول (شـقيق يوسـف) معهـم في هـذه المـرة، وباسـتجابتهم لطلب يوسـف لهم بإحضـار أخيهم ليضمـوه إليـه كخطـوةٍ أولى في طريق الإتيـان بهم وبأهلهـم جميعاً. وفى هذا المشـهد ضـم يوسـف إليه أخـاه وصرح له بـسره وأمره، وقـام بحيلـةٍ لكى يأخـذ أخيه إليه ودون أن يشـعرهم بأنـه يوسـف كـما أنه لا يريـد أن يأخذه قـسراً وظلماً.

✓ **المشهد الثالث : (88 – 93):**

فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

هـذا هـو الدخـول الثالث للأخوة عـلى يوسـف عليه السلام، وامتاز بأمـرٍ عظيم وهو زوال الغشـاوة التـي كانـت عـلى البصـيرة، وقيـام الإخـوة بمبـادئ التوبـة وأفعال الأوبة إلى الله.

6 - من الرؤيا إلى الحقيقة (آل يعقوب في مصر): (الآيات 94 - 101):

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ
أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ
ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ
ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾
قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ
عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾
وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن
قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ
ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن
تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ
تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

تحركت من مصر قافلة البشير تحمل قميص يوسف، فقال يعقوب وهو جالس بين بعض أبنائه (إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ)، ثم تنتقل الآيات للمشهد الأخير في القصة، وهو مشهد دخول آل يعقوب جميعاً على يوسف في مصر، وفيها تأويل الرؤيا الصادقة نظرياً في أول القصة تأويلاً عملياً واقعاً حقاً (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا).

ثم يعقِّب يوسف على قصته بتقرير جوهر الحقيقة، وهي أن مشيئة الله كانت هي الفاعلة، وبجميع صفات الرب الحسنى من لطف وعلم وحكمة (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ).

ثم التفت يوسف إلى ربه بهذه المناجاة الرقيقة، وبهذا الابتهال الصادق والدعاء المتضرع، الذى يشيع فيه عمق المحبة وقوة الصلة وسلامة القلب وإخلاص النية وأحادية التوجه (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ).

- حقائق إيمانية وسنن ربانية: (الآيات 102-111):

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

بعد انتهاء قصة يوسف عليه السلام تأتي هذه الآيات بمثابة تعقيبات على القصة، فتبرز (منهج الدعوة وأسس نجاحها)، وتبين العوارض في طريق الدعوة وعاقبة المعرضين:

1 – تأكيد المصدر الإلهي للقرآن، وصدق خبره، فإن العلم بقصة يوسف والاطلاع على دقائقها، دليلٌ جديد يضاف إلى دلائل النبوة. (الآية 102).

2 – بيـان واجـب النبـي ﷺ والمؤمنـين في مقابلة إعراض النـاس عنه وكفرهم بـه، وأنـه مهـما كان حـرص الرسـول عظيـماً عـلى إيـمان النـاس وهدايتهـم بجميع الوسـائل، فإنـه لا سـبيل إلى إلجائهـم للإيـمان وإكراههـم عليـه. وتـبرز هنـا سـنة (ضـلال الأكثريـة). (الآيـة 103).

3 – تنقيـة الدعـوة مـن شـوائب المصالـح المادية والمنافع الشـخصية، فكلـما كانت دعـوة الداعي لغـيره خاليةً من الطمـع فيه، كانت أقـرب إلى التأثير عليـه. (الآية 104).

4 – الكشـف عـن علة عدم إيـمان أكثر النـاس، وهو عمي البصائـر والأبصار مـن الغفلـة عـن ملكـوت الله، والذهول عـن آياته الباهـرة. (الآيـة 105)، وهناك علـة أخـرى وهـي اتِّبـاع الهـوى وتأليهـه، وجعلـه شريـكاً لله سـبحانه في العبـادة والحكم (الآيـة 106).

5 – سـنة الله تعـالى في المعرضـين عـن تدبـر آياتـه، والغافلين عـن الاعتبار بسـننه التـي جـرى عليها في خلقـه، من مداهمة العـذاب، والمفاجـأة بالعقـاب. (الآية 107).

6 – بيـان منهـج الدعـوة وخصائـص الرسـالة الربانيـة، فهي منبثقـةٌ عن إيمان صحيـح، ويقـين تـام، وحجـة قائمة، (عَـلَى بَصِـيرَة)، وأتبـع ذلك ببيـان خصائص الرسـل الأساسـية (رِجَـالًا نُوحِي إِلَيْهِـمْ مِنْ أَهْـلِ الْقُـرَى)، وذكرت بإيجاز عاقبة المُرسَـل إليهـم من النـاس في الدار الأخـرة. (الآيـات 108-109).

7 – سـنة الله عـز وجـل في نصره لرسـله في أحـرج الأوقات وأشـد الأزمات، في مقابـل إنزال عذابـه بالمجرمـين .(الآية 110).

8 – وختمـت السـورة بالدعـوة للاعتبـار بقصص الرسـل ومـا تتضمنه مـن هدايةٍ ورشـد، ينتفع بها أصحـاب العقول الراجحة والبصائر المسـتنيرة الملهمـة. (الآية 111).

(وكأنما تشـير تلـك الآية الخاتمة إلى أن قصة يوسـف إن هي إلا صـورةٌ متكررة للأنبيـاء الذيـن سـبقوه. والأنبيـاء الذيـن يجيئـون من بعدهـم، فهم إنما يسـيرون في طريق شـائك وعـر المسـالك، ويتعرضون من فجـر حياتهم للمتاعـب والمصاعب، ويمسـهم الأذى من أهلهم وعشـيرتهم، فيقابلون الأذى والعـدوان بالصبر الجميل

والصفح والغفران، ثم يأذن الله بعد ذلك بانتصار الحق على الباطل، ويمكِّن الله الأنبياء من قومهم، فلا يستبد بهم الغرور والكبرياء، بل يزدادون تواضعاً الله ورحمة بالضعفاء .

ولعل أصدق الأمثلة على ذلك موقف يوسف من إخوته بعد أن جاؤوا إليه في مصر مذعنين خاضعين، وهم الذين كانوا قبل ذلك يحسدونه ويحقدون عليه ويكيدون له حتى ألقوه في غيابات الجب، وعرضوه للموت والهلاك لولا لطف الله به . فلقد وقفوا أمامه يعلنون خطأهم، ويطلبون منه الصفح والمغفرة[1] .

(1) تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن والسنة ص 162 – د. محمد الطيب النجار

سورة الرعد

موضوع السورة:

تناولـت السـورة (دعوة الحـق) مبينةً دلائلهـا في الكون والنفـس والحياة، وصفـات أهلهـا وصفـات المعرضين عنهـا، ومآلهـا في الدنيا والآخـرة، وتمثيل للحـقّ والباطـل وتقرير بقـاء الحـقّ ونفعـه واضمحـلال الباطـل وزوالـه، وعرضـت صـوراً مـن مكابـرة وعنـاد أهـل الباطـل في مواجهة الحـق (وذلك عـن طريـق عرض مجموعـة من المتقابـلات في كثيرٍ مـن الآيـات في الآفاق وفي الأنفـس، تدريبـاً للنفس البشرية عـلى تمييز الحق مـن الباطل - فسـورة الرعد فيهـا 32 ظاهـرة متقابلـة منها:

(تغيـض الأرحـام/ تـزداد، أسرّ القـول/ جهـر بـه، مسـتخف بالليـل/ سـارب بالنهـار، خوفـاً/ وطمعـاً، طوعـاً/ وكُرهـا، نفعـاً/ ضرًّا، الأعمـى/ البصـير، الظلـمات/ النـور، الحـق/ الباطـل، يبسـط/ يقـدر، الدنيـا/ الآخرة، يمحـو/ يثبـت).

وهكـذا فدعـوة الحـق بمثابـة الرعـد الشـديد الـذي يهـز عقـول وقلـوب المعانديـن، عسـى أن يعـودوا إلى رشـدهم قبـل فـوات الأوان، كما أنهـا -كالرعد- تحمـل الخـير والبركـة والنـماء، والغيـث والرحمـة لمـن يسـتجيب لهـا.

ويغلـب عـلى السـورة أسـلوب الترهيب الـذي يملأ القلـوب مهابةً وخشـية، وشـعوراً بعظمـة مبدع هـذا الكون وصانعـه ومدبره، فآيات السـورة تسـوق العبر بأسـلوب خاطف كالـبرق ، مـدوٍ كالرعد.

وفي السورة إرشاد إلى النظر في بواطن الأمور، وعدم الانخداع بالمظاهر.

مناسبتها لما قبلها:

جاء في آخر سورة (يوسف) نفي الشك أو الكذب عن القرآن، في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وفي أول سورة (الرعد) توكيد لنفي الشّبه والرّيب عن القرآن الكريم، وتقرير بأنه الحقّ من رب العالمين، في قوله تعالى: « تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ».

مقاطع السورة:

- تجليات الحق بين الكتاب المسطور والكون المنظور: الآيات (1-4):

﴿الٓمٓرٰ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

بدأت السورة بتوكيدٍ لنفي الشُّبه والرّيب عن القرآن الكريم وتقرير بأنه الحقّ من رب العالمين، ومع هذا الحق المبين وتلك الآيات المشرقة فإن أكثر الناس لا يهتدون بها إلى الحق. (الآية 1).

وإذا لم يكـن للنـاس عقـولٌ تعقل هـذه الآيات التـي حملها رسـول اللّٰه إليهم في هـذا الكتـاب المبيـن .. أفـلا كانت لهم أعـين تنظر في هـذا الوجـود الـذي أوجده اللّٰه سـبحانه وتعـالى من عـدم وأقامه عـلى هذا النظـام البديع؟.

ففـي هـذه الآيـات الكريمـة (2–4) عـرضٌ سريع وخاطـف لمظاهـر متنوعة مـن صنـع اللّٰه العجيـبِ، وظواهـر دقيقة مـن تدبيره المحكـم، مما يبعث عـلى التفكر والتدبـر كل مـن عنـده عقـل أو فكـر. وهكـذا يتكامـل مشـهد الحـق بـين كتـاب القـرآن المسـطور وكتـاب الكـون المنظور.

- إنكارٌ وجحود: الآيات (5 – 7):

﴿ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ
ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ
خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن
رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ٧ ﴾

لمـا بينت الآيات السـابقة دلائل قدرة اللّٰه في السـماوات والأرض، وأنها آياتٌ لأصحاب (العقول السـليمة) عـلى عظمة قدرة اللّٰه وحكمتـه، انتقلت للحديث عـن أصحاب (العقول السـقيمة) الذين يغمضـون أعينهم ويصمّون آذانهم عن آيـات اللّٰه وكلماته.

وتصـف مـا هـم مقيـدون به مـن سلاسـل التقليد الأعمـى، التي تشـدهم إلى الأوهـام الباطلـة، والمعتقدات الضالـة، مما يحول بينهم وبـين تفتح الأذهان، وإدراك حقيقـة الإيـمان، فيسـتبعدون البعـث (الآية 5) ، ويسـتعجلون العذاب عـلى سـبيل التحـدي والاسـتخفاف (الآيـة 6) ، ويطالبـون بالآيـات المادية الخارقـة (الآية 7) .

- مظاهر لقدرة اللّه سبحانه وتمكّن سلطانه: الآيات (8 – 16):

﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ
شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ
﴿٩﴾ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ
وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ
ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا
فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ
خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ
يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن
دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ
وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا
وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ﴿١٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ
أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ
وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ
ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾

تعود الآيات مرةً أخرى إلى (استعراض قدرة اللّه) بعد هذه الوقفة الفاضحة للمشركين ولمقولاتهم المنكرة التي يستقبلون بها آيات اللّه، وفي هذا الاستعراض تنكشف مظاهر كثيرة لقدرة اللّه سبحانه وتعالى وتمكّن سلطانه في هذا الوجود، ومن هذه المظاهر:

1 – إحاطة علم الله بكل شيء؛ فهو يعلم ما تحمل كل أنثى في رحمها وما يطرأ على أرحام الإناث من أسباب الولادة والعقم والزيادة والنقص، وهو يعلم بكل حاضر وغائب وظاهر وخفي. (الآيات 8–10).

2 – تسـخير الملائكـة – يخلـف بعضهم بعضـاً – في حفظ الإنسـان والعناية به، وهـذا لا يعنـي بـأن الإنسـان مقهـورٌ واقـع تحت قـوى خفية مسـلطة عليـه، ولكن الله منحـه حريـة الإرادة والعمـل، لـذا جـاء قولـه تعـالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ). إشـارةً إلى عـدل الله المطلـق وحكمته البالغـة، وأنه لاَ يسـلب النعـم، ويبتلي بالنقـم، إلا من غير طريقته في الشـكر والطاعـة. (الآية 11).

3 – خضـوع الظواهـر الجويـة لمشـيئته وتصريفـه (البرق – السـحب المثقلـة بالماء – الرعـد). الأمـر الـذي يدل على قـدرة الله، ويثـير في النفوس الخوف مـن عذاب الله، ولكـن المشركـين المعاندين يجادلـون في قدرة الله وسـعة علمه!. (الآيـات 12–13).

ثـم تنتقـل الآيـات التاليـة إلى (تسـفيه هـؤلاء المكابريـن) الذيـن يصرفـون وجوههـم عـن الله المسـتحق وحـده للعبـادة والخضوع، ويدعـون من دونـه مَن لا يسـمع ولا يجيـب، مـع أنّ جميـع المخلوقات مـن أصغر ذراتهـا إلى أضخـم أجرامها خاضعـةٌ لله تعـالى، فهـي في قبضتـه، وتحـت قهـر مشـيئته. (الآيـات 14–15).

وفي هـذا المشـهد العجيب يتوجـه إليهم بالأسـئلة التهكمية. فما يجدر بالمشرك بالله في مثـل هـذا الجـو إلا التهكـم، وما يسـتحق إلا السـخرية والاسـتهزاء، مؤكـدة التنافر الشـديد بـين الكفـر والإيمان، والظلـمات والنـور، والعمى والإبصـار (الآية 16).

– هل يستوي الأعمى والبصير؟: الآيات (17 – 25):

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨ ۞ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩

ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾

بعد أن ضرب الله مثل البصير والأعمى للمؤمن والكافر، ومثل النور والظلمات للإيمان والكفر، ضرب (مثلين للحق) في ثباته وبقائه، وللباطل في اضمحلاله وفنائه.. وفي هذين المثلين يكشف عن (طبيعة الحق) وعاقبة من تمسك به، وعن طبيعة الباطل وعاقبة من ظل عليه قائماً. (الآيات 17–18).

ثم عقدت الآيات مقارنةً بين (أهل الحق وأهل الباطل) مبينة ما بين الفريقين من تفاوتٍ كبير في الاعتقاد والسلوك والأخلاق، وفي العاقبة والمصير أيضاً. (الآيات 19–25).

⏮ – من أسباب الضلال: الآيات (26 – 29):

ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾

بعد ما بينت الآيات السابقة ما بين أهل الحق وأهل الباطل من اختلاف في العقيدة والسلوك والمصير، قد يقول قائل: ما دام الكفار أصحاب عناد في

الاعتقاد، وفساد في الأخلاق والسلوك، فلماذا يوسع الله تعالى عليهم في الرزق، فإن سعة الرزق والغنى تزيد في عنادهم وفسادهم؟.

والجواب جاء في الآية التالية (26)، ومفهومها أن الدنيا دار ابتلاء واختبار لجميع المكلفين، والرزق من أسباب الابتلاء، فأسبابه متاحة للجميع، «اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ».

وكما أن (بسط الرزق وقبضه) بيد الله وحده، كذلك (الهداية والضلال) بيد الله وحده، فلا قيمة لإلحاح المعاندين في طلب الآيات المادية شرطاً لتحقيق الإيمان؛ فالإيمان ليس متعلقاً بتنزيل آية!.. إنما يهدي الله الذين يتوجهون إليه متطلعين إلى الحق، ويضل الذين تنصرف قلوبهم عن الحق. وفي ذلك دعوة إلى التضرع إلى الله في طلب الهدايات، وعدم الانشغال بطلب الآيات (الآيات 27–29).

– مواساة وتثبيت: الآيات (30 – 35):

﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ
إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ
وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ
بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ
لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ
قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ
بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ
٣٢ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ
أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ
مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤ ۞ مَّثَلُ
ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ
عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ٣٥﴾

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن (عناد الكافرين) وتعنتهم في طلب الآيات الخارقة، جاءت هذه الآيات (مواساة للنبي ﷺ)، وشد لأزره، وتمكين لصبره على أذى هؤلاء المشركين، وتقوية لمثابرته على مواصلة الدعوة إلى توحيد الله تعالى وطاعته، وذلك من خلال:

1 – بيان أن الرسول ﷺ ليس بدعاً من الرسل؛ فقد أرسله الله إلى أمته بالحق كما أرسل الأنبياء السابقين إلى أممهم . (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ).

2 – بيان لوظيفة الرسول ﷺ، وهي تلاوة القرآن على مسامعهم مرةً بعد مرة، مع بيان معانيه. (لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)، لكن القوم سفهوا أنفسهم، وألغوا عقولهم، وتمسكوا بباطلهم.

3 – تلقين الرسول ﷺ بلاغاً حاسماً يتحصن به من شرهم، ويلقي به إليهم إعذاراً، وإنذاراً (قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ). (الثبات على الحق والتوكل على الله).

4 – بيان عظمة هذا القرآن في التحدي والإعجاز، فإن هذا القرآن لا يصنع خوارق حسية كتسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى، ولكن الخارقة المعنوية التي يصنعها هي كتسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى، بل هي أعظم وأخطر!.

5 – مواساة المؤمنين، وتطييب نفوسهم، وقطع طمعهم في إيمان أولئك المكابرين (أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً).

6 – توعد المشركين بعذاب أليم في الدنيا والآخرة. (وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ).

7 – تذكير النبي ﷺ – تسلية لقلبه – بسنة الله في إمهال المكذبين ثم إنزال العقوبة الرادعة بهم. (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ).

8 - بيان ضعف وعجز أصنام المشركين ومعبوداتهم الوهمية التي زينها لهم الشيطان، مع توعدهم بالعذاب الشديد في الحياة الدنيا والآخرة (الآيات 33-34)، في مقابل ما أعدّه الله للمؤمنين المتقين وما ينتظرهم من نعيم دائم في جنات النعيم؛ ليكون في ذلك إثارة لأشواق المؤمنين وتعجيل بتلك البشريات المسعدة لهم (35).

- موقف أهل الكتاب من القرآن وبيان طبيعة الرسالة (الآيات 36-43):

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ
مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ
وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ
أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ
﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴿٣٨﴾ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ
مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ
ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمۡ
يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ
وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ
جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾
وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا
بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

شنت السورة - من أولها إلى هذه الآية - حرباً عنيفة على (الشرك وأهله)، وأقامت على التوحيد الخالص كثيراً من الحجج القاطعة، والبراهين الساطعة، وحاكمتهم إلى الفطرة، والعقل والمنطق، ثم جاءت هذه الآية وما بعدها تذكر

موقف (أهل الكتاب) من هذا القرآن الكريم، وترينا أنهم – بمقتضى ما معهم من العلم بالكتب السماوية – كانوا منقسمين في أمره إلى فريقين:

فريق المؤمنين الصادقين يستقبلون الوحي المنزل من عند الله بفرح وابتهاج، وثقةٍ وتصديق، وفريق آخر تحزبوا على محاربة الرسول، وإنكار بعضٍ ما أنزل عليه؛ عناداً وسفهاً.

وفي هذه الآيات تقرير تدعيمي لرسالة النبي وصدق القرآن الكريم مستمد من موقف أهل الكتاب من القرآن ومن الرسول، وذلك من خلال:

1 – أمر للنبي ﷺ بأن يهتف بأنه إنما أمر بعبادة الله وحده وعدم إشراك أي شيء معه وبالدعوة إليه وحده، والحذر من مسايرة أهواء أهل الضلال. (الآيات 36–37).

2 – تأكيد للصفة البشرية التي اختار الله أن يكون عليها رسله إلى الناس، فليس النبي ﷺ بدعاً في رسالته ولا في شخصيته البشرية. فقد أرسل الله من قبله رسلاً، وكانوا مثله بشراً لهم أزواج ولهم ذرية. (الآية 38).

3 – الرسول مبلغٌ عن الله، وليس من شأنه الإتيان بالمعجزات وخوارق العادات، فالأمر في الحقيقة أمر الإرادة الإلهية العليا، فهي التي تحدد لكل شيء أجله، وتأتي به في أجله المحتوم (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)، لذا فيجب على النبي ﷺ أن يدع حساب المعاندين لله سبحانه، الذي يتولى حسابهم وجزاءهم. وإنَّ في آثار عقوبة الله في إهلاك الأمم السابقة لعظة وعبرة للسائرين على درب الظلم والفساد. (الآيات 38–42).

4 –التفات إلى النبي ﷺ بسبيل التثبيت والتطمين، فإذا كان الكفار ينكرون رسالته، فكفى بشهادة الله دليلاً على صدق رسالته، وكذلك شهادة من عنده علم الكتاب .(الآية 43).

وهكذا (جاء ختام السورة بذكر القضية الرئيسية التي جاءت السورة كلها للرد عليها: "وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً .." .

ولكـن السـياق لا يوردها هنا لمناقشـتها، فقـد مضى أوان المناقشـة. بل لإصدار الحكـم فقط: «قُـلْ كَفَى بِاللّهِ شَـهِيداً بَيْنِـي وَبَيْنَكُمْ وَمَـنْ عِندَهُ عِلْـمُ الْكِتَابِ».

وكأنـما انتهـى عـرض القضيـة، وأصـدر الحكـم، فطويـت الأوراق، وختمت الجلسـة، ومـضى كل فريـق في طريقه: الرسـول ﷺ ليدعو .. والكفـار لتنفيذ الحكم الـذي أصـدر عليهم)[1].

(1) دراسات قرآنية – ص 195 – محمد قطب

سورة إبراهيم

موضوع السورة:

تستهدف السورة الحديث عن (دعوة الحق من حيث ثباتها ورسوخها) ومقاومتها لأعاصير الشهوات والشبهات. وقد جاء بيان ذلك من خلال:

1 – قيمة دعوة الحق في إخراج الناس من الظلمات إلى النور في مقابل صد المستكبرين عنها.

2 – ثبات الرسل (رواد دعوة الحق) في وجه الطغاة والمجرمين يهددونهم بالإيذاء والإبعاد.

3 – ضرب المثل لدعوة الحق بالشجرة الراسخة القوية ذات الثمار الشهية العذبة في مقابل ضعف شجرة الباطل وعدم رسوخها.

4 – الحديث عن إبراهيم عليه السلام وهو من أعظم دعاة الحق الذي ثبت على تكاليفه وتبعاته فاستحق التكريم والخلود. وكأن تسمية السورة باسمه فيها دعوةٌ للثبات على الحق ومدافعة الباطل بكافة صوره وأشكاله.

5 – الحديث عن مصير الظالمين يوم القيامة وما ينتظرهم من العذاب والخذلان والهوان، وما يحدث من تبرأ وتلاوم أهل الباطل وخذلان إمامهم الأكبر (الشيطان) لهم في مشهدٍ يمتلىء بالأسى والحسرة على عدم الاستجابة لدعوة الحق، وفي ذلك امتدادٌ لانتصار دعوة الحق من الدنيا إلى الآخرة.

مناسبتها لما قبلها:

جاء في آخر سورة «الرعد» قول المشركين والكافرين الذي حكاه القرآن الكريم عنهم في قوله تعالى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا» ..

وفي أول سورة إبراهيم في قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾. توكيدٌ من

الله سبحانه وتعالى لرسالة النبي ﷺ، وأنه يحمل بين يديه كتاباً أنزل إليه من ربّه ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وذلك بإذن ربه الذي يهدي من يشاء، ويضلّ من يشاء.

مقاطع السورة:

- من الظلمات إلى النور: الآيات (1 - 8):

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ
بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴿٢﴾
ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ
إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن
يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ
أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ
ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ
لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ
يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ
نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٦﴾ وَإِذۡ تَأَذَّنَ
رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾
وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

بدأت السورة (الآيات 1-4) ببيان دعوة الرسل ووظائفهم، من خلال الحديث عن دعوة خاتمهم ﷺ، والتي تستهدف إخراج الناس من ظلمات الجاهلية

والضلال إلى نور الإيمان والهدى. ثم تهديد للكافرين – الذين أبوا إلا أن يركبوا طرق الضلال، ويصدوا الناس عن سبيل الله – بالعذاب الشديد يوم القيامة.

ثم أشارت الآيات التالية (5 – 8) إلى دعوة موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل ليخلصهم من ظلم فرعون وبطشه.

وبينت ما أمر الله به موسى عليه السلام من تذكير قومه بأيام الله، بما فيها من نعم ونقم مبيناً سنة الله تعالى في الشكر والكفر.

- دعوة الرسل وسنن الصراع بين الحق والباطل: الآيات (9 – 23):

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ
وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا
تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ
مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ
ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ
مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم
بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا
نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى
ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم
مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ
وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ
وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ
ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿١٧﴾

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ
عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ
﴿١٨﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ
وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا
فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ
عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ
عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ
ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ
لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ
أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ
بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾ وَأُدۡخِلَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾

انتقلت الآيات إلى الحديث عن (الرسل وأقوامهم عامة)، من عرفت أسماؤهم وقصصهم عن طريق الوحي، ومن استأثر الله بعلمهم دون خلقه.

ويلاحظ أن المكذبين أدرجوا جميعاً في ثوب واحد لا فرق بين سابقهم ولاحقهم، حتى لكأنهم جماعةٌ واحدة التقت برسولٍ واحد، وذلك لما كان منهم جميعاً من خلافٍ على رسلهم وإعنات لهم ومكر بهم، وردٍ قبيح متشابه توارثه خصوم الرسالات الإلهية من أولياء الشياطين، المتعصبين للباطل.

وكذلك الرسل هم أشبه برسولٍ واحد، إذ كانت محامل رسالتهم واحدة وهي الدعوة إلى الإيمان بالله والاستقامة على الهدى.

وتتجلى في دعوة الرسل مجموعةٌ من (السنن الإلهية في الصراع بين الحق والباطل):

1 – سُنة الجمود العقلي للمكذبين، والاعتراض على بشرية الرسل، والتمسك بالتقليد الأعمى للآباء والأجداد، وطلب الآيات الخارقة، وكلها تشكل حواجز مصطنعة في طريق الهداية. (الآية 10).

2 – سُنة اصطفاء الله للرسل من البشر، وعدم قدرتهم على الإتيان بالآيات الخارقة إلا بإذن الله ومشيئته. (الآية 11).

3 – سنة الاعتصام بالله والتوكل عليه، والاستعانة بالصبر في مواجهة الطغاة الظالمين. (الآيات 11–12).

4 – سنة لجوء الطغاة إلى القوة الغاشمة في مواجهة الحق، من خلال التهديد بالنفي والإبعاد عن أرضهم إن لم يذعنوا لضغطهم، في مقابل السنة الإلهية بهلاك الظالمين وتمكين المؤمنين. (الآيات 13–14).

5 – سنة تزيين الأعمال السيئة للكافرين، وما يترتب على ذلك من عذاب الجبارين المعاندين، حيث يلقون في جهنم الأهوال ألواناً وأشكالاً. (الآيات 15–17).

6 – سنة بطلان أعمال الكافرين وضياعها لافتقادها الإيمان والإخلاص (الآية 18).

7 – سنة الله في خلق الكون بالحق، واستبدال المكذبين وإهلاكهم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

8 – سنة الله في (الحساب والجزاء) يوم القيامة (الآيات 21–23):

وفي هذه الآيات عرضٌ لمشهد مهيب (من مشاهد القيامة) يتجلى فيه صورة من صور الخصام بين أهل النار، حيث يبدو تبرؤ الأتباع من المتبوعين، وجدال المستكبرين والمستضعفين، وتبرؤ إبليس من أتباعه. ثم إشارة إلى عاقبة المؤمنين المتقين، وما يلقونه عند ربهم من حسن الجزاء.

- الكلمة الطيبة .. والكلمة الخبيثة :الآيات (24 – 34):

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ
وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ
ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ
خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ
وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ
دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا
لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ
يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ
فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن
تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

بعد أن بين سبحانه حال الأشقياء ومآل أمرهم في جهنم، وذكر أحوال السعداء وما ينالون من فوز عند ربهم، ضرب لذلك مثلين لدعوة الرسل (الحق) ولدعوة الشيطان (الباطل)، أظهر فيهما ما بين الدعوتين من تباين كبير، وما يترتب على كل دعوةٍ من آثار في الفرد والمجتمع. (الآيات 24-26).

ثم قررت الآية التالية (27) عناية الله وتثبيته للمؤمنين على الحق، وسخطه وإضلاله للظالم الكافر لإصراره على الكفر.

ثم جاءَت الآيات التالية (28-30) بيانًا للأسباب التي أدت إلى (ضلال الظالمين) واستحقاقهم سوءَ العاقبة وقبح المصير، وعرضت صورة لهؤلاء

الذين بدّلوا نعمة اللّه- القرآن الكريم- كفراً، واتخذوا من دون الله آلهةً ليضلّوا الناس عن سبيل اللّه، وتوعدتهم بالعذاب والنكال.

وفي المقابل التفتت الآية التالية (31) إلى (المؤمنين الذين استجابوا للّه) أن يؤدوا لهذا الإيمان حقّه، ويقوموا بتكاليفه، وعلى رأس هذه الأعمال وتلك الواجبات الصلاة، والانفاق على المحتاجين.

ولعلك تسأل ما هو علاقة الآيات التالية (32-34) بالحديث السابق عن أحوال الأشقياء والسعداء؟.

أقول لك: جاءت هذه الآيات تستعرض جملةً من بدائع الصنع الإلهي في العالم العلوي والعالم السفلي، مذكراً بما انطوت عليه من نعم كبرى سخرها للإنسان، داعياً إياه إلى التأمل في عجائبها وتدبر آياتها، إذ كلها دلائل ناطقةٌ بوجوده وقدرته، وعلمه وحكمته، ومظاهر بارزة لإحسانه ورحمته. وفي هذا العرض مجال لأن يراجع الكافرون أنفسهم، وأن يرجعوا إلى ربهم بعد أن يعاينوا آثار رحمته وبدائع قدرته، على حين يزداد المؤمنون إقبالاً على اللّه واجتهاداً في العبادة.

⏮ - إبراهيم عليه السلام أسوةٌ في الشكر: الآيات (35 - 41):

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾

لما ذكرت الآيات السابقة صورة الإنسان (الظالم الكفور) ممثلاً في المشركين الذين رفضوا دعوة الحق، عرضت الآيات التالية أنموذجاً للإنسان (الشكور القانت) لله تعالى وحده ممثلاً في إبراهيم عليه السلام، وذلك من خلال ذكر الدعوات الخاشعة الضارعة التي رفعها نبي الله إبراهيم إلى ربه جل وعلا من جوار بيته الحرام.

وفي دعوات إبراهيم عليه السلام تعريضٌ كبير بمشركي قريش الذين انحرفوا عن ملة التوحيد التي كان عليها جدهم إبراهيم، وتعريض أيضاً بعبادتهم الأصنام والأوثان في بيت الله الحرام، الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل لعبادة الله تعالى وحده.

– سننٌ ربانية في صراع الحق والباطل : الآيات (42 – 52):

﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ
لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ
طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ
تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ٤٤ وَسَكَنتُمۡ
فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا
بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ٤٥ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ
ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ٤٦ فَلَا
تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ٤٧ يَوۡمَ
تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ٤٨
وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن
قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ٥٠ لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ
إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٥١ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا
هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢ ﴾

تنتقل هذه الآيات من (الترغيب إلى الترهيب)؛ فبعد أن بينت للمشركين نموذج إبراهيم عليه السلام الشاكر، ودعتهم إلى الاقتداء به، ورغبتهم في السير على هداه، جاءت هذه الآيات لتهددهم وتتوعدهم بالعذاب الشديد، وتبين لهم إنهم إذ كانوا في دنياهم هذه في عافية، ولم يؤاخذوا بما أجرموا فليس ذلك عن غفلةٍ من الله تعالى عن أعمالهم – تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً – وإنما يؤخرهم ليومٍ تشخص فيه الأبصار.

كما يتجلى في هذه الآيات عدة (حقائق إيمانية وسنن ربانية) يحتاجها المؤمنون في صراعهم مع الباطل:

1 – سنة الله في إمهال الظالمين وتأخير عقابهم ليومٍ شديد الأهوال والنكال. (الآيات 42–43).

2 – دعوة النبي ﷺ إلى الاستمرار في الدعوة وإنذار الناس بذلك اليوم الرهيب، علهم يفيقوا من غفلتهم ويرجعوا عن ضلالهم قبل فوات الأوان ومعاينة الهوان والخسران. (الآيات 44–45).

3 – سنة مكر المجرمين بالدعوة والكيد لأهل الحق. (الآية 46).

4 – سنة نصر الله لرسله وأوليائه مهما مكر الماكرون أو تآمر المتآمرون. (الآية 47).

5 – سنة الفصل والقضاء يوم القيامة، حيث يقف الناس أمام الله عز وجل ليقضي بينهم، ويقف المجرمون مشدودٌ بعضهم إلى بعض بالقيود والأغلال، وقد طليت أجسادهم بالقطران وغشيت وجوههم بالنار. (الآيات 48–51).

6 – الاستجابة لبلاغ القرآن هو مفتاح النجاة من كل الأهوال السابقة (هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ). (الآية 52):

«هذا» إشارة إلى ما جاء في آيات الله من هدى فيه بيان للناس وبلاغ مبين وحجة دامغة تخرس كل مكابرٍ وتفحم كل معاند– وهو بين أيديهم ليس بعيد المنال– ففي كلمات الله التي حملها رسول الله إلى الناس بلاغٌ لهم وزاد طيّب يتزودون به في طريقهم إلى الله ويبلغون به شاطئ الأمن والسلام.

سورة الحجر

موضوع السورة:

(سورة الحجر، هي سورة العناية الإلهية بالإنسان بوجهٍ عام، وبالمسلم بوجهٍ خاص، وتلك العناية متمثلة في تنزيل منهج رباني يسوس (يقود) حياة الناس، وينظم شئونهم. وبعبارة أخرى: إنها سورة الحفظ الإلهي للبشرية، وقد تمثل ذلك في حفظ هذا الكتاب الذي يمثل المنهج، وحفظ الكون من مردة الجان، وحفظ العباد: الأنبياء، من شرور أقوامهم، والناس من شرور الشياطين، وكل ذلك رعايةً لهذا المخلوق المكرم وعنايةً به.

وجاء القصص القرآني في السورة ليؤكد - بما لا يدع مجالاً للشك - أن المعرضين عن هذا الهدى سيلقون سوء العاقبة، فساق لنا ذكر الأقوام المستكبرة وما حل بها ليكون الإنسان على حذر، وليعتبر بمن سبقه)[1] .

ولعل تسمية السورة بـ(الحجر) إشارة إلى أصحاب الحجر (قوم ثمود)، وهم نموذج الطغيان والاستكبار الذين ركنوا إلى حصونهم القوية وقلاعهم الحصينة، وظنوا فيها الأمن والأمان، والحفظ والنجاة، فلم تغنِ عنهم شيئاً من بأس الله وعذابه.. كما أنهم نموذجٌ لإغواء الشيطان لأوليائه عبر الاغترار بقوتهم والانخداع بطول الأمل وإمهال الله تعالى لهم .

مناسبتها لما قبلها:

ختمت السورة السابقة بقوله تعالى: «هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ»، وهذا الختام يحدّث عن

(1) التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه ص-285 287 - د. زياد الدغامين

القرآن الكريم بأنه بيان مبين للناس، وبلاغ يبلغ بهم طريق الحق والإيمان، فكان مفتتح هذه السورة حديثا آخر عن القرآن الكريم، بأنه كتاب وقرآنٌ مبين، فكان هذا البدء مؤكداً لهذا الختام.

مقاطع السورة:

- موقف المشركين من القرأن: الآيات(1 - 15) :

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ (١) رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ (٣) وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَّا تَسْبِقُ مِنْ
أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ (٥) وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ
لَمَجْنُونٌ (٦) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ
إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا
يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟
فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)﴾

بدأت السورة بالتنويه بآيات هذا القرآن الذي جعله الله للناس كتاب هدايةٍ ومنهج حياة، ثم تهديد لهؤلاء المشركين الذين رضوا بهذه الحياة واستهلكوا وجودهم في شهواتها الفانية، إذا جاء أجلهم صحوا من سكرتهم، ووجدوا ما عملوا من سوءٍ حاضراً بين أيديهم يقودهم إلى عذاب السعير. وبينت أنهم إذا كانوا لم يؤخذوا بكفرهم وعنادهم إلى هذا اليوم الذي هم فيه، فما ذلك إلا لأن الله سبحانه وتعالى جعل لكل شيءٍ أجلاً محدداً لا يتجاوزه، وسنن الله في الأمم الظالمة لا تتقدم ولا تتأخر. (الآيات 1 – 5).

ثـم عرضـت الآيـات (6-13) بعـض (الادعـاءات الباطلـة والاتهامـات المنكـرة) التـي يوجههـا المكذبين إلى النبي ﷺ على سـبيل الاسـتهزاء والتهكم ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، والمطالبـة بنـزول الملائكة عليهـم بالعذاب على سـبيل العنـاد والجحود، والـرد عليهـم مـن خلال:

1 – تأكيـدٌ قاطـع أن الله تعـالى هـو الـذي نـزل الذكـر على رسـوله، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، وتعهـد بصيانـة القـرآن وحفظه من كل خللٍ رغم أنف جميـع الخصوم والأعـداء ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

2 – تهديد لهؤلاء المجرمين ببيان سنة الله بإهلاك المكذبين المعاندين.

وختمـت آيـات هـذا المقطـع ببيـان اسـتحالة إيمانهـم نتيجـة شـدة عنادهـم واسـتكبارهم بجحودهـم للمعجـزات الحسـية المشـاهدة، ولتهربهـم بجميـع الوسـائل مـن الاعـتراف بالحق.(الآيـات 14-15).

– أيات الله في الكون.. دلائل قدرة وحفظ وإبداع :الآيات (16 – 25)

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ
شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ
مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا
لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ
وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ
ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

لمـا ذكـر الله تعـالى في الآيـات السـابقة مـا اسـتولى عـلى قلـوب المشركـين مـن ظـلام كثيـف وضـلال مبـين، حتى لـو أنهـم أصعد بهـم إلى السّماء وشـهدوا ما في المـلأ الأعـلى مـن آيات مـا كان لهـم في ذلـك طريق إلى الهـدى والإيمان بـالله، جاءت

الآيات التالية لتعرض (مظاهر قدرة الله وعظمته) وسننه الكونية ونعمه على البشر والمخلوقات الأخرى، وتصرّفه في الكون تصرفاً مطلقاً، وعلمه الشامل المحيط بالناس سابقيهم ولاحقيهم.

ويتجلى في هذه المشاهد الكونية (دلائل الحفظ الإلهي والعناية بالإنسان)، وفي ذلك شواهد على أحقيته سبحانه بالطاعة والخضوع، وأحقية منهجه بالاتِّباع والامتثال.

– أصل الغواية والضلال : الآيات (26 – 48):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ
مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ
مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ
﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ
ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ
أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا
فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ
إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ
﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾
إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾
إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ
جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ
﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾
وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ
فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

بعد أن أقام الله الحجة على الكافرين من خلال المشاهد الكونية السابقة التي تقود إلى (الهداية)، جاءت هذه الآيات لتبين أصل (الغواية) التي لحقت بالكافرين فأدت إلى تكذيبهم وعنادهم، ومصدرها إبليس اللعين..

فتعرض هذه الآيات قصة (خلق آدم)، وموقف الملائكة وإبليس من أمر الله تعالى بالسجود له، ثم تذكر موقف إبليس من ربه سبحانه وتعالى وتحدّيه لآدم وذريته بإغوائهم وإفسادهم وخروجهم عن طاعة اللّه، ثم طلبه إلى الله سبحانه أن يؤخره إلى يوم القيامة حتى تتاح له الفرصة في الإغواء والإضلال، ثم وصف اللّه تعالى عاقبة أمر الشيطان وأنصاره وأتباعه، وأنَّ جهنم بأبوابها السبعة مفتَّحة لهم، في مقابل حال الجنّة وأهلها وما ينتظرهم من نعمٍ مادية ومعنوية، جسدية وروحية.

– دعوة الرسل بين المتقين والمجرمين: الآيات (49 – 84):

﴿ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ
ٱلۡأَلِيمُ ٥٠ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٥١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا
قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ٥٢ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٥٣ قَالَ
أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ٥٤ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ
بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ٥٥ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا
ٱلضَّآلُّونَ ٥٦ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٥٧ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ
مُّجۡرِمِينَ ٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ
إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٦٠ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٦١ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ
مُّنكَرُونَ ٦٢ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٦٣ وَأَتَيۡنَٰكَ
بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا
يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ
دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧

قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٤﴾

تتحدث هذه الآيات وما بعدها عن التطبيق العملي (للصراع بين الإنسان والشيطان) من خلال عرض بعض الجوانب التربوية في تاريخ حياة الأنبياء عليهم السلام، وما جرى لهم مع العصاة من أقوامهم، وتطرح الآيات نماذج حيّة للاعتبار لكلا الطرفين (عباد الله المخلصين من طرف واتّباع الشيطان من طرفٍ آخر).. ففي هذه الآيات نفحات من رحمة الله ومغفرته التي تحفّ بالمتقين من عباده، وفيها لفحات من بأسه وعذابه الذي يحلّ بالضالّين الذين يتخذون الشيطان وليًّا من دون الله.

وبدأت آيات هذا المقطع بإشارةٍ هامة إلى أن منطق (التوازن) يحتم على العباد ضرورة البقاء بين الرجاء والخوف في علاقتهم مع الله تعالى، وينبغي أن يكونوا بين الرغبة والرهبة، في اتزانٍ وانضباط تفرضه طبيعة هذا المنهج الرباني، الذي يتناسب تماماً مع طبيعة حاملٍ هذا المنهج ومبلغه (نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ). (الآيات 49-50).

وتناولت الآيات "قصة لوط وقومه" (51-77)، فقد كان العمل الذي ابتدعه قوم لوط في حد ذاته من أنكر المنكرات وأفحش الفواحش، مما أثار

غضب الله عليهم، وأوجب ضرب المثل بخطيئتهم وبعقوبتهم، وبمناسبة ذكر قصة لوط وقومه أشار إلى جنوده من الملائكة الذين أرسلهم إلى قوم لوط وعرجوا في طريقهم على إبراهيم الخليل عليه السلام، واستضافوه فأكرم ضيافتهم، وبشروه بغلامٍ عليم، وبين العاقبة الوخيمة والعذاب الشديد الذي لحقهم.

ثم أشار بغاية الإيجاز إلى "قصة شعيب وقومه" (78-79)، ثم الحديث عن قصة أصحاب الحجر « ثمود قوم صالح عليه السلام » (80 84-) وما لحق بهما من العذاب والنكال.

وفي عرض هذا القصص تبين أنه ليس هناك من حافظٍ للبشرية إلا اتِّباعها شرع الله، وليس هناك من عاصم لها إلا سيرها على هدي نبيه ﷺ. وأن أهم الأسباب الموجبة للهلاك والدمار هو اتِّباع إبليس الذي تعهد بعداء الحق وأهله كما بينت الآيات السابقة.

ولسائلٍ أن يسأل ما هي علاقة الآية التالية بما سبق الحديث عن عاقبة الأمم المكذبة؟ (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ...) (الحجر ٨٥)

أقول لك: تجيء هذه الآية بعد الحديث عن (سنَّة الله في إهلاك المجرمين)، لتقرر سنةً أخرى مرتبطة بتلك السنة السابقة، وهي (سنة العدل الإلهي في عدم المساواة بين المحسن والمسيء)؛ فخلق الكون بهذا الإتقان والإحكام والتوزان يقتضي عدم المساواة بين المؤمنين والمجرمين ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾. (سورة ص 27).

فأين العدل إذا خرج الظالم والطاغية من هذه الحياة ولم ينل عقوبته اللائقة بمثله؟!

- توجيهاتٌ ربانية إلى النبي ﷺ : الآيات (85 – 99) :

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

تأتي هذه التوجيهات في خاتمة السورة لتبين (حفظ الله لنبيه ﷺ) في معركته ضد المعاندين والمكذبين:

1 – وجوب الصبر على معاملة المشركين وتحمل أذاهم، في سبيل الدعوة إلى الله (فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ). (الآية 85).

2 –امتنان الله على رسوله بنعمة الوحي والقرآن، ومن خصه الله بهذا الفضل العظيم، لا ينبغي أن يلتفت إلى الدنيا، ويهتم بها إلا بالقدر الذي يبلغ فيه رسالة القرآن العظيم، مؤكدة له أن ما عند أصناف الكفار من متاع الدنيا على اختلاف أنواعه لا قيمة له، فهو عرضٌ زائل لا يعني رضا الله، وإنما أوتوه باقتضاء حكمته ونواميس كونه. (الآيات 87–88).

3 – تنبيهٌ من الله لرسوله ﷺ على مواصلة الإحسان في معاملة المؤمنين، تأليفاً لقلوبهم، وتركيزاً للإيمان في نفوسهم. (وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) و«خفض الجناح» استعارةً للين الجانب والتواضع. (الآية 88).

4 - بيـان مهمـة النبـي ﷺ الوحيـدة وهي إنـذار المشركين وإبلاغهـم دين الله تعـالى بأبلـغ حجـةٍ وأوضح دليـل (وَقُـلْ إِنِّي أَنَـا النَّذِيـرُ الْمُبِـينُ)، مع تهديـد أولئك الذيـن تعاملـوا مـع منهـج الله بتحيـز وانتقائية؛ فأخـذوا منه مـا يوافـق هواهم وما يحبـون، ونبذوا منـه ما يكرهـون. (الآيـات 89-93).

5 -أمـرٌ مـن الله لرسـوله ﷺ بالجهـر بالحـق، والتحـدي بعقيـدة التوحيـد عقائدهـم الفاسـدة والباطلـة (فَاصْـدَعْ بِـمَا تُؤْمَـرُ وَأَعْـرِضْ عَـنِ الْمُشْرِكِـينَ)، مـع التعهـد بحفظـه مـن مكـر المسـتهزئين وشرورهـم. (الآيـات 94-96).

6 - بيـان (منابـع القـوة) التي يسـتمد منها النبـي ﷺ العزيمة للقيـام بالأعباء الثقيلـة التي كلفـه الله تعالى بهـا وهي:

(التسبيح - الحمد - كثرة الصلاة والسجود- المداومة على العبادة). (98-99)

سورة النحل

موضوع السورة:

إنها بحق (سورة النعم) .. نعم الله في السماوات والأرض: براً وبحراً، سهلاً وجبلاً، تراباً وماءً.. نعم لا يستطيع القلب إحصائها فضلاً عن شكرها .

وقد تناولت السورة (أصول النعم) الثلاث: (نعمة الخلق والإيجاد – نعمة الإمداد – نعمة الهداية والإرشاد)..

وشكر هذه النعم يتم من خلال ثلاثة محاور :

1 – الاستسلام لله بالتزام أمره واجتناب نهيه، والحذر من الشرك بكافة أشكاله وصوره.

2 – اتِّباع منهجه سبحانه في التحليل والتحريم والتحذير من الكذب أو الافتراء عليه سبحانه .

3 – التحلي بالقيم والأخلاق الفاضلة (العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى – التقوى والصبر والتوكل – الوفاء بالعهود والمواثيق – الصدق في الأقوال والأفعال)

(والسورة من أولها تلح على العقل البشري بالحوار والمناقشة، وبيان شواهد التوحيد، وكلما ابتعدت عن ذلك قليلاً عادت إليه مرةً أخرى، وكأن النص القرآني في هذه السورة موجاتٌ من الحجج تغمر عقل الإنسان وقلبه، فلا يجد كل ذي عقل في النهاية إلا التسليم والإيمان. وتلح على العقل البشري بأهمية العلم فقد تكرر العلم ومشتقاته في السورة 26 مرة، والعلم يستوجب العمل وهذا من شكر النعم.

إن نصوص هذه السورة تسد كل مسالك الشرك، وتفتح للإنسان آفاقاً من الخير، وبيان وجوه نعمة المنعم على عباده. تلك النعم التي لا يمكن أن تكون

إلا مـن صنـع خالـق قـادر مبـدع، لا يرقـى إليه نـد، ولا يضارعـه أو يشـاركه أحدٌ مـن خلقـه. وهكـذاً تأخذ آيات هذه السـورة بيـد المكابريـن إلى الصراط المسـتقيم)[1]. والسـورة تـبرز ارتباط النعـم بالتوحيد.

مناسبتها لما قبلها:

في ختام سـورة (الحجـر) كان قوله تعـالى: « وَاعْبُدْ رَبَّـكَ حَتَّى يَأْتِيَـكَ الْيَقِينُ » - كان هـذا مثـيراً لبعض الأسـئلة: ما هـو اليقين؟ ومتى هـو؟ وهل يطـول انتظاره؟..

وقد جاء قوله تعالى : « أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ» مجيباً على هذه الأسئلة.

فاليقـين: هـو أمـر الله، وهو يـوم القيامة، وقـد كان المشركون يسـألون منكرين هـذا اليوم، ومسـتعجلين وقوعه.

مقاطع السورة :

- نعم الله تعالى في خلق الإنسان وتنظيم حياته: الآيات (1 – 19) :

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾
وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾
وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ
إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾
وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾
وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

(1) منهج الدعوة إلى الله كما تصوره سورة النحل ص 29 بتصرف – د. محمود شعلان

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾

بدأت السور بإنذار المشركين الذين كانوا يستعجلون عذاب الله تعالى استبعاداً واستهزاءً، ورغم ذلك العناد فالله سبحانه رحمةً بهم تفضل عليهم بإنزال الوحي وإرسال الرسل، مؤكداً حكمته تعالى في خلق الكون بالحق. ومذكراً هذا الإنسان المتكبر ببداية خلقه وضعف أصله (الآيات 1–4).

ثم شرعت الآيات في تعداد النعم التي أنعم الله بها على الإنسان متاعاً وانتفاعاً، رحمةً منه وإحساناً، وبينت جملةً من أنواع الدواب التي سخرها لخدمته ومنفعته، مما يرتفق به في مرافقه الضرورية، أو يتغذى منه بأطيب الأغذية. (الآيات 5–8).

وجاء قوله تعالى: (وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ)، في سياق الامتنان على الإنسان بنعمة وسائل (التنقل والحمل) في إشارةٍ لطيفة إلى أنه كما أنعم الله

علينا بالنعم الحسِّية الوفيرة تفضل بهدايتنا إلى (الطريق المستقيم) الموصل إليه سبحانه، ولو وكلنا إلى أنفسنا لضللنا هذا الطريق. (الآية 9).

ثم انتقلت الآيات (10-16) إلى عرض جملةٍ من النعم الأخرى في معرض امتنانه سبحانه على الإنسان، وتذكيره بالحقوق التي عليه لربه.

وفي هذا السياق بين العبرة المقصودة من عرض النعم التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان، فقال تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)، وقال تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)، وقال تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)، وقال تعالى: (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) فمن له عقل وفكر استيقظ وتذكر، ونظر واعتبر، وفكر وقدر، وشكر وما كفر.

ثم توجهت الآيات بعد هذا العرض لبعض نعم الله تعالى إلى المشركين، تنكر عليهم شركهم وإعراضهم عن توحيده جل وعلا وطاعته، موكدةً لهم فضل الله تعالى عليهم، وعجزهم عن إحصاء وحصر نعم الله تعالى عليهم، ومحذرةً لهم من إحاطة علمه سبحانه بكل أحوال الناس ظاهرها وباطنها. (الآيات 17-19).

- جحود وعناد .. ومفارقات مستنكرة: الآيات (20 - 65):

بعد أن عرضت الآيات السابقة مجموعةً من نعم الله تعالى على الإنسان، شرعت في بيان موقفه من خالقها جل وعلا، فأكثر الناس وقف موقف الجحود والعناد، وأشركوا به سبحانه آلهةً مزعومة ظاهرة العجز والضعف.

وتصدت الآيات للرد على عبدة الأصنام والأوثان، وسجل عليهم جملة من الادعاءات الباطلة القائمة على مجرد الزور والبهتان، وجدد دعوته لهم إلى الإيمان والإذعان، ببالغ الحجة وساطع البرهان، وذكرهم بسوء المنقلب الذي آل إليه أمر الكافرين والماكرين قبلهم منذ قديم الزمان.

ويمكن تقسيم هذا المقطع – لطوله– إلى مقاطع صغيرة :

1 - مقارنة بين الإله الحق والآلهة المزعومة. (20 23-):

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣ ﴾

2 - مقارنة بين موقف المشركين والموحدين من الوحي، وبيان جزاء كل فريق (24-34):

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤ ﴾

وقد استهدفت هذه الآيات إثارة الخوف والرعب والندم في قلوب الكفار المشركين، كما انطوت على الثناء على المؤمنين وتنويه بهم، كما انطوت على تشويقٍ بالمصير السعيد الذي يكون لهم ولأمثالهم في الدنيا والآخرة معاً.

وختمت بتهديد المشركين لعلهم يعودون إلى جادة الصواب، ويتخلوا عن الموقف العنادي الضّال الذي يقفونه من الرسول الكريم ومن آيات الله التي بين يديه. (الآيات 33-34).

3 - شبهات وردود (مقولات أثمة ومزاعم فاسدة): الآيات (35 - 44):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

✓ الشبهة الأولى: الاحتجاج بمشيئة الله على كفرهم وضلالهم، غافلين عن أن الله عز وجل بعث الأنبياء والرسل جيلاً بعد جيل، مبينين طريق الحق والهدى للناس أجمعين، لتقوم عليهم الحجة، وتنقطع أعذارهم. (الآيات 35-36).

ثم وجه الخطاب إلى الرسول ﷺ مواسياً إياه على انحرافهم وشرودهم، (إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ). (الآية 37).

✓ الشبهة الثانية: إنكار البعث واستبعاد وقوعه، مع أن أمر البعث هيّن أمام قدرة الله سبحانه وتعالى، تلك القدرة التي يستجيب لسلطانها كل شيء. (الآيات 38-40).

صورة وضيئة في وسط ظلام الشرك والضلال: (الآيات 41-42):

بينما كانت الآيات تعرض صور (الجحود والعناد للمشركين المستكبرين)، التفتت فجأة لتعرض (صورةً مشرقة للمؤمنين الشاكرين المستسلمين لله تعالى)، والمقربين بفضله، والمتوجهين إليه وحده يطلبون رضوانه، إنها صورة المهاجرين في سبيل الله، الذين آثروا سلامة عقيدتهم على كل شيء، وضحُّوا من أجلها بجميع المصالح والأغراض، ففارقوا الأهل والعشيرة والمتاع، وتعرضوا لضيق العيش وغربة الدار، وبين مكانتهم عند الله في الدنيا والآخرة، منوِّهاً بخصالهم ومزاياهم .

✓ الشبهة الثالثة : استبعاد إرسال الرسل من البشر، والرد عليهم بسؤال أهل الذكر من أهل الكتب المنزلة الماضية – إن لم يكتموا ويحرفوا- هل كان رسلهم بشراً أم غير بشر؟. (الآيات 34-44) .

4 - تهديد وإنذار للمشركين (الآيات 45-50):

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

تتوقف الآيات التي ركزت على عرض شبهات المشركين ومزاعمهم الباطلة، لتتوجه بالتهديد والوعيد بالعقاب الصارم، والتحذير من أن يصيبهم ما أصاب الأقوام التي هلكت من قبلهم. (الآيات 45–47).

ثم في الآيات التالية (48–50) اتهامٌ لعقول المشركين الضالّة المظلمة التي أخرجتهم عن نظام الوجود كلّه فكانوا نغماً نشازاً لا يتناغم مع لحن الموجودات المسبّحة بحمد الله ربّ العالمين.

5 -عقائد فاسدة وتقاليد باطلة: (الآيات 51-64) :

﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ (٥١)
وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن
نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ
عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ (٥٤) لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ
فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ (٥٥) وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ
عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ (٥٦) وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ (٥٧)
وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ (٥٨) يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ
مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ
(٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡحَكِيمُ (٦٠) وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ
إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ
(٦١) وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ
ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ (٦٢) تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ
مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ
(٦٣) وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى
وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٦٤) ﴾

تعود الآيات مرة أخرى إلى عرض (انحرافات المشركين) وضلالاتهم:

- اتخاذ شركاء مع الله عز وجل، والرد عليهم بتأكيد انفراد الحق سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبية عن كل ما سواه، وضرورة التوجه إليه وحده بالخوف والرجاء دون ما عداه، مذكراً إياهم بأن كل ما يتقلبون فيه من النعم على اختلافها، إنما هو هبةٌ إلهية وهبها لهم بمحض إرادته، وأن من تفضل بالعطاء، يمكن أن يعاقب بالسلب (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ).

وأن هؤلاء الغافلين يستشعرون شدة احتياجهم وافتقارهم إلى الله تعالى حين تواجههم الأخطار، وتحيط بهم الأهوال والشدائد. (الآيات 51 – 55).

- تخصيص قسم مما رزقهم الله من الزروع والأنعام لشركائهم الذين لا يستندون في إشراكهم مع الله إلى علمٍ وبينة، وإنما جرهم إلى عبادتها، الجهل والوهم والتقليد. (الآية 56).

- ينسبون إلى الله سبحانه اتخاذ البنات -أي الملائكة- في حين أنهم يرغبون عنهن ويشتهون لأنفسهم البنين، ويتنزه الله سبحانه عن كل صفات النقص، ويتصف بكل صفات الكمال، وإنما يكون النقص فيهم وينسب إليهم. (الآيات 57-60)

وبينت الآية التالية (حكمة الله عز وجل في تأخير عقاب المجرمين الظالمين) إلى أجلٍ معين في علمه. (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ). (الآية 61).

- توبيخهم على ما زعموه في حقه -تعالى- وما ادعوه لأنفسهم من العاقبة الحسنى، وإنذارهم بسوء المصير على مزاعمهم وعقائدهم. (الآية 62)، ثم عقَّب على ظاهرة الجحود والعناد، والتواطؤ على الضلال والفساد، التي لازمت البشر قروناً طوالاً، إنما هي من تزيين الشيطان. (الآية 63).

ثم بيّن أثر القرآن في تبيين الحق من الباطل، فهو نورٌ يكشف معالم الطريق إلى الحق والخير، ويقيم لمن يهتدي به فهماً صحيحاً للعقيدة على وجهها الكامل الصحيح، خالصةً من الشوائب، صافيةً من الأكدار. (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ). (الآية 64).

- لفت الأنظار إلى مشاهد آيات الله ونعمه: (الآيات 65-89):

بعد أن انتهت الآيات من عرض صور العناد والجحود لدى كثير من الناس، استأنفت تذكير الناس بمجموعةٍ ثانية من نعم الله تعالى عليهم.. ويمكن تقسيم هذه النعم إلى مجموعتين:

المجموعة الأولى: نعمٌ ضرورية لاستمرار حياة الإنسان: (الآيات 65-77):

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٖ
يَسۡمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ
لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ
سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ
أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ
فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ
شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ
وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٧٠﴾
وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ
عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٧١﴾
وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ
وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ
﴿٧٢﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ
﴿٧٤﴾ ۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا
رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ
أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ
لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ

هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَۚ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾

1 – إنزال الماء من السماء إلى الأرض فتحيا به الأرض الميتة.

2 – إخراج اللبن الصافي اللذيذ من بطون الأنعام من خلال عملياتٍ دقيقة محكمة.

3 – ما يحمله شجر النخيل والأعناب من الثمر غذاء وشراب نافعان.

4 – استخراج العسل من بطون النحل فيه شفاء للناس.

5 – ظاهرة التفاوت في الآجال والأعمار (الآية 70)، والتفاوت في الأرزاق (الآية 71)، وهذا التفاوت الحاصل في الأرزاق، يشمل الأرزاق المادية والمعنوية على حدٍ سواء.

6 – نعمة الزواج والأسرة التي يطمح إليها كل إنسانٍ عاقل، حتى إنه ليكافح في سبيل الاستمتاع بها والحصول عليها بجميع الوسائل. (الآية 72).

وفي هذا السياق ندد الله عز وجل بسخافة المشركين وعباد الأصنام، فإنهم بدلاً من أن يعبدوا خالقهم ورازقهم، ويفردوه بالعبادة والطاعة دون سواه، يتوجهون إلى من لا يملك لهم رزقاً، ولا يستطيع لهم ضراً ولا نفعاً!.

ثم ضرب سبحانه مثلين يبين للمشركين فيهما قبح شركهم وشناعته (الآيات 73–76)، وبينت أنه الله سبحانه له كمال العلم والقدرة. (الآية 77).

المجموعة الثانية : نعمٌ يحتاج إليها الإنسان في حمايته ووقايته:

الآيات (78-89):

﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ
ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى
ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ
لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم
مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ
أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ
لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ
لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ
يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ
ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٨٢ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ
ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٨٤ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ
عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٥ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ
رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ
إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٨٦ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم
مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٨٧ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا
فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ٨٨ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا
عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ
ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩ ﴾

1 – نعمة إخراج الإنسان من بطن أمه، وإمداده بأدوات المعرفة ووسائل الإدراك .(الآية 78).

2 – دعوة إلى النظر إلى الطير مسخرات للطيران بما خلق الله لها من الأجنحة والأسباب المساعدة عليه.(الآية 79).

3 – نعمة المسكن والأثاث مما يتوقف عليه كل إنسان في الحر والبرد، في السفر والإقامة، في السلم والحرب .(الآيات 80–81).

ولسائل أن يسأل ماذا كان موقف المشركين من هذه النعم العظيمة والآيات العجيبة؟.. إنه التولي والإعراض، والجحود والإنكار، (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ).

إذن فلينتظر هؤلاء الجاحدين يوم القيامة عندما يضع الله الموازين القسط، وما يكونون عليه من ذلٍ وهوان، ولومٍ وعتاب، وإقرارٍ واعتذار. (الآيات 85–88).

وحينما يأتي بشهداء كل أمة يأتي بالنبي ﷺ شهيداً على أمته أيضاً.

وختمت آيات هذا المقطع ببيان كمال شريعة القرآن، فالتمسك به عصمة من الخطأ والزلل، (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)، وبذلك انقطعت حجة المكذبين وبطلت أعذارهم .(الآية 89).

– قيم التوحيد ودعائم الإيمان: الآيات (90 – 97):

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا
صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ
ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ
يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ
حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾

تأكيداً لكمال شريعة القرآن الذي ختمت به الآية السابقة، جاءت الآيات التالية لتعرض الأصول الكبرى للقرآن الكريم وهي: (التزام العدل وممارسة الإحسان – النهي عن الفواحش والمنكر والبغي – الوفاء بالعهد والتحذير من نقضه). ثم حضت على ممارسة العمل الصالح، المحقق لمقاصد الشريعة وأهدافها، مبشراً كل من سلك في حياته هذا المسلك من ذكرٍ وأنثى بالحياة الطيبة في الدنيا، والجزاء الحسن في الآخرة.

وفي عرض هذه الدعائم الكبرى إشارةٌ هامة إلى أن الإسلام وهو يرسي الأسس الصحيحة والسليمة للعقيدة الإسلامية إنما يرسي مع ذلك أيضًا أسس الأخلاق الفاضلة والسلوك القويم، ليتكون في النهاية من ذلك كله بناءٌ شامخ ومنهاج شامل يستغرق حياة المسلم كاملة.

- القرأن .. دستور الإيمان، وعاقبة الارتداد عن منهجه (الآيات 98 – 111) :

﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ
سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ
عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ
مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ
بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ

لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ۞

لما ختمت الآية السابقة بوعد الله لعباده الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح، بالحياة الطيبة في الدنيا، والأجر العظيم في الآخرة، ناسب ذلك أن يقدّم للمؤمنين دستور إيمانهم (القرآن الكريم)، وأن يدعوا إلى تلاوته ومدارسته، وتلقّي أصول الإيمان وشريعة العمل من آياته وكلماته.

وتناولت الآيات الحديث عن القرآن العظيم من خلال: (حكمة تنزيله، ولسانه العربي، وأساس رسالته، وآداب تلاوته، وابطال الشبهات حوله)، وأكدت أن الكفر يؤدي إلى ظلمةٍ في القلب والنفس، ويدعو إلى الافتراء والتخريف. (الآيات 98 – 105).

ثـم توعـدت المرتدين عن الإسـلام بالعـذاب العظيـم، الذين آثـروا الدنيا على الآخـرة -واسـتثنت المُكـره على الكفـر، وفتحت أبـواب التوبة للتائبـين والنادمين. (الآيـات 106-110)، وختمـت بتأكيـد عدل الله تعـالى المطلق يـوم القيامة، منبهةً إلى مسـئولية كل نفـس عـن عملهـا أمـام الله. (الآيـة 111) وفي التذكير بهـذا اليوم العظيـم -يـوم القيامة- ما يشـدّ عـزم المؤمن ويقوّى يقينه، ويمسـك بـه على طريق الإيمان وإن مسّـه الضرّ وأصابـه المكروه.

- السبيل إلى شكر النعم والتحذير من كفرها: الآيات (112 - 119):

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾

بعـد أن هـدد الله عـز وجـل الكافريـن بالعـذاب الشـديد في (الآخـرة) - أتبع ذلـك الوعيـد ببيـان عقـاب الله في (الدنيـا)، وهـي إصابتهـم بالجوع والخـوف بعد أمـنٍ واطمئنـان وعيـشٍ رغد جـزاء كفرهم بنعمـه الوافرة (الآيـات 112-113)،

وأتبع ذلك بيان لتلك المآكل الخبيثة التي يجب على المؤمن بالله أن يتجنّبها حتى يكون مأكله حلالاً طيباً. (الآية 115).

وما دام الحديث جارياً عن الحلال والحرام، والطيب والخبيث، فقد بينت الآيات التالية أن السلطة الإلهية العليا هي وحدها التي لها صلاحية الحكم بالتحليل والتحريم، وحذرت من الحكم على الأشياء بالتحليل والتحريم دون سندٍ شرعي، واعتبر المغامرين بذلك من عند أنفسهم متطاولين على الشرع ومفترين على الله، وذكرت ما حرمه الله على أمة اليهود خاصةً دون سائر الأمم نتيجة بغيهم وظلمهم. ثم فتح الله سبحانه لعباده باب التوبة إذا ما أقبلوا على طاعته وتركوا مخالفته . (الآيات 116–119).

– المنهج الأمثل للدعوة إلى الله: الآيات (120 – 128):

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾
شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا
حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ
إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى
ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ
وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ
وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

ما هي مناسبة ذكر إبراهيم عليه السلام في هذا المقطع؟

والجواب: لما ذكر في الآيات السابقة موقف المشركين واليهود من أحكام اللّه في حلّ المطاعم وحرمتها، ولما كان كلٌّ من المشركين واليهود ينتسب إلى إبراهيم عليه السلام، ويدّعي كل منهم أنه على دينه، فناسب هذا أن يذكر إبراهيم عليه السلام، ويذكر دينه الذي كان عليه وإيمانه بربه وشكره لنعمائه، الأمر الذي لم يستقم عليه أيّ من الفريقين من أبنائه. وبهذه المناسبة أثنى الله تعالى على خليله إبراهيم، ونوَّه بفضائله ومزاياه في الدنيا والآخرة، ودعا خاتم الأنبياء والمرسلين إلى رفع رايته، واتِّباع ملته. (الآيات 120-124).

وبعدما أمر الحق سبحانه وتعالى خاتم الأنبياء والمرسلين باتِّباع ملة إبراهيم خاطبه موجهاً ومرشداً، مبيناً له أحسن الطرق التي يلزمه سلوكها لتبليغ تلك الدعوة. (الآية 125)، ولما كانت الدعوة إلى الله سبحانه لا تكاد تخلو من مخاصمة الأَعداء، ومقابلتهم لها بالعداوة والإيذاء، فلهذا أَمر الله تعالى نبيه وأَصحابه بالصبر على كيدهم، وعدم الحزن على إعراضهم، وختمت بمعيته للمتقين المحسنين. فأكرم بها من معية، وأعظم بها من منزلة!. (الآيات 126-128).

وفي ختام سورة النحل بالحديث عن (المنهج الأمثل في الدعوة إلى الله) فيه إشارة لطيفة إلى أن هذه الدعوة لا تحتاج إلى قوةٍ قاهرة توجه إليها الأبصار وتفتح لها العقول والقلوب، حيث يكفي العقل أن يتأمل في هذه الآيات الباهرة والنعم العظيمة والسنن المتناسقة في جوٍّ من الحرّية المطلقة البعيدة عن الضغوط المادية أو المعنوية، حتى يصل إلى محراب الهداية ويتحرر من قيود الضلال. ولهذا كان أمر اللّه سبحانه وتعالى إلى نبيه الكريم بأن تكون دعوته قائمةً على هذا المنهج الذي يمثّل الكمال كلّه في غرس المعارف وتربية النفوس.

سورة الإسراء

موضوع السورة:

هـذه السـورة – كما يبدو من اسـمها – تسـتهدف تثبيـت النبـي ﷺ في مواجهة المشركـين المعانديـن والمكذبـين وتأييده بالحجـج القاطعة والآيـات الباهرة.

فقـد جـاءت (رحلـة الإسراء) لتحمـل بشـائر التأييـد والتكريـم والاحتفـاء بالنبـي الكريـم في وقـت اشـتداد المصاعب والمشـاق عليـه في الدعـوة، وما تعرض لـه مـن جفاء وعـداء.

لـذا كثـر الحديـث عـن القـرآن الكريم (ذكـر 11 مـرة) باعتبـاره يهـدي للتي هي أقـوم في العقيدة والسـلوك والأخـلاق والمعامـلات والتشريعات، وهـو يحمل الآيات البينـات التـي تثبت النبـي ﷺ والمؤمنين وهم يواجهـون أعاصير المِحن وريـاح الفتن .

والسـورة تهـدف أيضـاً إلى تنميـة إحسـاس الإنسـان بمسـئوليته عـن سـعيه وعملـه، وهدايتـه وضلالـه، فالتكريـم الربـاني للإنسـان يسـتدعي المسـئولية والتكليـف، وقبـول هـدى القـرآن، والحـذر مـن مخالفتـه والإعـراض عنـه.

مناسبتها لما قبلها:

خُتمـت (سـورة النحـل) بالحديـث عـما كان يعانيـه الرسـول الكريـم ﷺ مـن ضيـق، ومـا يجـده في نفسـه مـن مشـاعر الحـزن والألم، لمـا يلقى مـن قومـه وأهله من كيـد، ومـا يـرى فيهـم مـن عنـادٍ وإصرار عـلى الكفـر والضـلال.. فناسـب ذلك أن يذكـر معـه ما كان مـن فضل اللّه على النبـي الكريم بهـذه الرحلة المباركة، وما كشـف اللّه لنبيـه فيهـا من جلال ملكوتـه، وما أراه مـن أسرار علمه وحكمتـه، فوجد في هذا الـروح لنفسـه، والانـشراح لصدره، والعـزاء الجميـل من مصابـه في أهله.

مقاطع السورة:

- معجزة الإسراء.. وهداية التوراة وموقف بني إسرائيل منها: الآيات (1 – 8):

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ
ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾
وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي
وَكِيلٗا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴿٣﴾
وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا
كَبِيرٗا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ
فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ
عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ
أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ
وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا
عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ
حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

افتتحت السورة بذكر تلك النعمة العظمى التي أنعم الله سبحانه وتعالى بها على النبي ﷺ؛ إذ أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في تلك الرحلة العجيبة التي رأى فيها ما رأى من آيات ربّه. (الآية 1).

ثم انتقل إلى الحديث عن (موسى عليه السلام وعن بني إسرائيل)، والحديث عن شريعة التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام، وألزم بني إسرائيل بها، وجعل التمسك بها سبيل هدايتهم وسعادتهم، ولكنهم حرفوها وتنكروا لها، وكان من آثار تمردهم عليها ما توالى عليهم من التشتيت والتفتيت، وأنواع البلاء والجلاء في أطراف الأرض شرقاً وغرباً. (الآيات 2–3).

ثـم أشـارت إلى سـنَّةِ الله تعـالى في الناس عامـة –وفي بني إسرائيـل خاصة– وهي أنهـم كلـما عـادوا إلى الفسـاد في الأرض، والاسـتعلاء على الخلـق عادت إليهـم النقم تـترى، وأوسـعهم الله هزيمـةً وقهراً، وآتـى أعداءهم غلبـةً ونصراً. (الآيـات 4–8).

– منهج متكامل لهداية الإنسان للتي هي أقوم: الآيات: (9 – 21):

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾

بعـد الحديـث عـن إعـراض بنـي إسرائيـل عـن (هدايـة التـوراة) ومـا ترتـب عـلى ذلـك من اسـتعلاءٍ وفسـاد، وعقابٍ وعـذاب، جـاءت هذه الآيـات لتتحدث عـن مضمـون (هدايـة القـرآن)، وأبان أهدافـه من الهدايـة للطريقة التي هـي أقوم،

والتّبشير بالثواب العظيم لمن أطاعه، وإنذار الكافرين بالعذاب الأليم، وأبرزت ما فيه من قوانين ربانية تتعلق (بالمسئولية والجزاء)، منها:

1 – قانون حاجة الإنسان إلى تلك الهداية بسبب نوازع الهوى والشهوة التي جُبل عليها، والتي تجعله لا يميز بين الخير والشر، بل يضع الشر في موضع الخير في كثير من الأحيان «وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا». (الآية 11).

2 – قانون سير حركة الزمن وفق سنن ثابتة محكمة، فمهما استعجل الإنسان في تحصيل ما يشتهي فلن يأتيه إلا ما قدر الله تعالى له، ومهما استبطأ حركة الزمن فلن يتمكن من تغييرها، « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلًا». (الآية 12).

3 – قانون العمل والجزاء، ومسئولية الإنسان عن عمله مسئولية شخصية عليه أن يتحمل تبعاتها، (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ). (الآيات 13–14).

4 – قانون الهداية والضلال، وبيان أن المسئولية فردية، وسنة وقوع العذاب بعد النذير. (الآية 15).

5 – سنة الله في إهلاك القرى التي أفسدها الترف والفسق (الآيات 16–17)، وهي مترتبة على السنَّة التي قبلها.

6 – سنة الله في (جزاء الناس على أعمالهم) وفقاً لاختيارهم وتعلقهم بالدنيا، أو إيثارهم الآخرة. (الآيات 18–19)، مع بيان قانون الله في التفاوت في أرزاق الدنيا (الآية 20)، والتفاوت في درجات الآخرة. (الآية 21).

وما أجمل تعقيب د. توفيق زبادي على الآيات السابقة مبيناً العلاقة بين السنن (الكونية) والسنن (الاجتماعية):

(إن القانون الذي يحكم (الليل والنهار) دقيقٌ لا يصيبه الخلل مرةً واحدة، ولا يدركه التعطل مرة واحدة؛ ويستمر القانون باستمرار الحياة؛ فكذلك قانون

(جزاء العباد على أعمالهم) دقيقٌ لا يتعطل مرة واحدة، وكذلك قانون (إهلاك القرى الظالمة) دقيق لا يتعطل مرةً واحدة.

ونتعلم من ذلك أن القادر على محو ظلام الليل بنور النهار، قادر على محو الظلم بأهل العدل).

– منهجٌ متكامل لبناء الإنسان: الآيات (22 – 39):

﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ
إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل
لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ
مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ
إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ
وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ
وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل
لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ٢٨ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ
فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ
خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٣٠ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ
كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢ وَلَا
تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا
فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ٣٣ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ
أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا
كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ
عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ
مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ
رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ٣٨ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ
فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾

في المقطع السابق تولى الحق سبحانه وتعالى التنويه بكتابه الحكيم، وأنه الكتاب الوحيد الذي يهدي إلى أقوم العقائد والملل، وأقوم الشرائع والشعائر، والذي يفصل للإنسان كل شيء، فيعرفه طريق الخير ليسلكها، وطريق الشر ليتجنبها، وكنموذج لما يهدي إليه الذكر الحكيم من الطرق القويمة، والتوجيهات السليمة، تولى الله عز وجل في هذا المقطع بيان جوانب (الهداية في القرآن الكريم)، مما تتوقف عليه سعادة المسلم وسعادة المجتمع الإسلامي:

1 - الهداية إلى أقوم عقيدة (توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة) (الآية 22)

2 - الهداية إلى أقوم سلوكٍ اجتماعي (الإحسان إلى الوالدين - الإحسان إلى الأقارب والمحتاجين. (الآيات 23-25).

3 - الهداية إلى أقوم سلوكٍ في إنفاق المال. (الآيات 26-30).

4 - الهداية إلى أقوم سلوك للمحافظة على حقوق الآخرين (تحريم قتل الأولاد - تحريم الزنا - تحريم قتل النفس - تحريم الاعتداء على الأموال - الوفاء بالعهد). (الآيات 31-35).

5 - السبيل الأقوم لعمران الحياة، والسبيل الأقوم لتربية النفس البشرية على أحسن الأخلاق (مسئولية الإنسان عن حواسه وأهمية التثبت في الشهادات - النهي عن التكبر والتجبر والتبختر). (الآيات 36-38).

وهذه الأوامر والنواهي تتعلق « بالكليات الضرورية » التي تتوقف حياة المجتمع الإسلامي عليها كل التوقف، وبدونها يتعذر العمران، ويفشو الانحلال، ويضيع الأمن ويفسد النظام، ومن أهمها:

"حفظ النسل" والإبقاء عليه: (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا).

«حفظ العرض» وصيانة النسب: (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا).

«حفظ النفس» وصيانة الأرواح: (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا).

"حفظ المال" وتنميته، والابتعاد في كسبه عن كل غش أو تدليس: (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ).

"حفظ الدين" والتزام ميثاق التوحيد الذي واثق الله به عباده وهم في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) – (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) – (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا).

ثم عقبت الآيات على الأوامر الإلهية والوصايا الربانية التي فيها صلاح البشرية أفراداً وجماعات، بما يتضمن التنويه بقدرها، والإعلاء من شأنها، (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ).

⏮ – مواجهة المشركين ودحض شبهاتهم : الآيات (40 – 60) :

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ

قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

لما ختمت الآيات السابقة بالنهي عن اتخاذ إلهٍ آخر مع الله تعالى، بدأت هذه الآيات ملتفتةً إلى الذين ينسبون إلى الله سبحانه ما لا يليق من اتخاذ البنات، ويشركون معه آلهةً أخرى.

وفي هذه الآيات حملة عنيفة على المشركين تنسف شبهاتهم، وتبدد افتراءاتهم، وتسفه معتقداتهم، وتكشف عن شدة جهلهم وحماقتهم، وتبين لهم الأدلة الواضحة والحجج القاطعة على قضية التوحيد، وتبين موقفهم من القرآن والذي يتسم بالإعراض والنفور.

وتعرض الآيات صوراً من ضلالهم وسنة الله فيهم:

1 – الافتراء على الله بادعائهم أن الملائكة بنات الله، والرد عليهم (الآيات 40-44).

2 –الإعراض عن سماع القرآن فضلاً عن الانتفاع بهدايته (الآيات 45-46).

3 – تناقضهم في وصف النبي بالصفات الباطلة (ساحر، شاعر، كاهن، مجنون) (الآيات 47-48).

4 – إنكار البعث واستبعاد عودة الحياة إليهم بعد الفناء، والرد عليهم بأن الإنسان مهما تشكك وطال به الأمد فإنه سيبعث من مرقده لا محالة، وأنه لا مناص له من تلبية النداء الإلهي والاستجابة إليه يوم البعث والجمع للحساب (الآيات 49-52).

ثم بينت الآية التالية (53) أفضل الطرق وأقومها في دعوة المشركين إلى الله، وفيها إشارةٌ لطيفة إلى أن (هؤلاء الكافرين الجاحدين لأهم قضايا الدين من التوحيد والقيامة، لا تواجهوهم إلا بالقول الحسن حتى لا تكون المواجهة بغير الحسنى مصداً لهم عن سبيل الله ومصدراً لابتعادهم فلا تجعلوا لهم حجة !) [1].

ثم تفويض الأمر في شأن البشر إلى الله في نهاية الأمر (الآية 54)، فهو سبحانه قد أحاط علمه بكل من في السماوات والأرض، فلهذا اختار من يعلم أنهم صفوة البشر أنبياء، وفضل بعضهم على بعض (الآية 55).

5 – تسفيه رأي كل من يلجأ إلى غير الله، أو يتعلق بغيره في جلب نفع أو دفع ضر، مبيناً أن أهل المقامات العلية الذين تعقد عليهم الآمال، وتناط بهم الآمال، عند عامة الناس، هم أنفسهم واقفون بباب الله، يتسابقون فيما بينهم إلى طاعة الله، وقلوبهم جميعاً معلقة بين جناحي الخوف والرجاء. (الآيات 56-57).

6 – بيان سنة الله عز وجل في تعذيب القرى الظالمة أو إهلاكها (الآية 58).

7 – سنة الله عز وجل في عدم الاستجابة لمقترحات المشركين بنزول (الآيات المادية) الخارقة رحمةً بهم، ومع ذلك ازداد القوم عناداً وطغياناً (الآية 59).

---

(1) تفسير سورة الإسراء دراسة تحليلية موضوعية ص 332 – د. أحمد نوفل

وتختم آيات هذا المقطع بمواساة النبي ﷺ وتثبيته وهو يواجه هذه العاصفة الكبيرة من العناد والتكذيب، فالناس جميعاً في قبضة قدرته سبحانه لا يخفى عليه شيء من كفرهم وعنادهم (الآية 60)، وفي هذه الآية أيضاً (آيتان ماديتين) وهما ما أطلع الله تعالى نبيه ﷺ عليه من آياته الكبرى ليلة الإسراء، وذكر شجرة الزقوم المذمومة في القرآن التي تنبت في أصل الجحيم، وفي هاتين الآيتين فتنة لهؤلاء المشركين كما كانت الآيات المادية في الأمم السابقة فتنةً لهم. فهل تزيدهم الآيات المادية إلا عناداً وطغياناً؟.

- الإنسان بين كرامة الله وغرور الشيطان: الآيات (61 - 65):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

ولما كان موقف المشركين السابق يشبه موقف إبليس وعناده وتكبره عندما شمله الأمر الإلهي بالسجود لآدم احتراماً وتكريماً، فأبى تكبراً وعناداً، جاءت الإشارة هنا إلى قصة (آدم مع إبليس) لتبين لهم أصل الداء ومنبع الفساد، مبينةً أن حسد المشركين للرسول ﷺ على ما آتاه الله من النبوة، وتكبرهم عن أن ينقادوا إلى الحق فرع عن حسد إبليس لآدم.

ووصفت الآيات أنواع المغريات التي يغري بها إبليس اتِّباعه من الناس، تحذيراً للمؤمنين من مؤامراته، حتى لا يقعوا في شباكه. وختمت القصة بتعهد الحق سبحانه وتعالى بحماية عباده المخلصين من إغواء إبليس، وبحفظهم من إغرائه. (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا).

- تكريمٌ وتشريف: الآيات (66 - 77):

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ
كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا
نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ
ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن
يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ
ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ
فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ
خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ
بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن
كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟
لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ
خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾
إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا
﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا
يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ
وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾

بعد أن تحدثت الآية السابقة عن حفظ الله للمؤمنين من كيد الشيطان ومكره، جاءت الآيات التالية (66-69) لتعرض وجهاً آخر من التعهد والحفظ وهو حفظ الناس إذا سارت بهم الفلك في البحار. فتجلت رحمة الله هنا وهناك!..

ثم جاءت الآية (70) وفيها إعلانٌ إلهي عن حقيقة «تكريم الإنسان» بأفصح وأقوى بيان، فكان هذا الإعلان الإلهي تحدياً صارخاً لإبليس وحزبه من طغاة بني الإنسان، الذين استبدُّوا به واستعبدوه قروناً طوالاً.

ثم تنتقل الآيات (71 – 77) بهؤلاء الناس الذين كرمهم الله وفضلهم على كثير من خلقه وحملهم في البر والبحر ورزقهم من الطيبات – تنتقل بهم من (الدنيا) التي يتقلّبون فيها ويسرحون ويمرحون، فإذا هم بين يدى الله في مقام (الحساب والجزاء) يوم القيامة، وإذا كل جماعة مع إمامها الذي كانت تتبعه وتنقاد له؛ فأتباع الأنبياء مع أنبيائهم وأتباع الضلال مع أئمتهم ، ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

وفيها إشارة إلى أن هذا التكريم يقتضي بالضرورة المساءلة والحساب يوم القيامة، ويؤكد على أن الإنسان لم يُخلق عبثاً، ولن يترك سدى . وفيها توجيه للإنسان الذي كرّمه الله تعالى بأن يحافظ على هذا التكريم ولا يودي بنفسه إلى التهلكة في الدنيا والآخرة .

– تثبيت النبي ﷺ وتأييده في مواجهة المكذبين: الآيات (73 – 81):

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ
وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ
شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ
لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ
مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا
قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ
إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ
اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل
رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا
نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

في هذه الآيات يردّ المكذّبون بالآخرة إلى الدنيا مرة أخرى بعد أن رأوها عياناً فيما يشبه أحلام اليقظة، وما يكادون يصحون من غفوتهم تلك حتى

يواجهوا بما كانوا يأخذون به النبي ﷺ من عنتٍ، وما يتهدّدونه من أذى.

وفيه إشارة إلى الألطاف التي حف الله تعالى بها نبيه ﷺ رغماً عن مساومات المشركين، وتثبيته له على الوقوف في وجه كل محاولات الكيد والفتنة، والمضايقة والاستفزاز. (الآيات 74-77).

وفي هذا الخِضم من الصراع بين الحق والباطل وجَّه الحق سبحانه وتعالى إلى نبيه عدة وصايا وتوجيهات تمثل (منابع القوة والثبات) التي تقوّى عزمه وتثبت قدمه، وهي: (إقامة الصلوات - قيام الليل - الدعاء إلى الله في كل أمر وكل وقت - اليقين بظهور الحق وزهوق الباطل) الآيات (78-81).

- القرآن بلسمُ الحياة وشفاء الإنسان: الآيات (82 - 88):

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا
خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ
يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾
وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ
عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾
قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ
بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

لما كانت الآيات السابقة تتحدث عن الوسائل الربانية في تثبيت النبي ﷺ، جاءت الآيات التالية عن (أعظم المثبتات) في مواجهة حملات الكفر والطغيان، وهو القرآن الكريم وذلك من خلال هذه النقاط:

1 - القرآن الكريم «شفاء» لمن استشفى به من الشاكين، والقلقين المحتارين، و«رحمة» لمن احتمى بحماه من المظلومين، والبؤساء المحرومين، (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا). (الآية 82).

2 – اختلال موازين الإنسان الذي لم يشفِ نفسه دواء القرآن، بحيث إذا مسه الخير أصابه الكبر والطغيان، وإذا مسه الشر أصابه اليأس والهوان. (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا). (الآية 83).

ولما كان اختلاف طبائع الناس نابع من اختلاف حقيقة أرواحهم، وهي سرٌّ من الأسرار التي استأثر الله تعالى بعلمها، جاء قوله تعالى: (وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا). وكأنه ينادي بصوتٍ عالٍ فاضح لهؤلاء الذين يسألون هذا السؤال الذي لا يريدون به هدى، ولا يبغون منه معرفة، وإنما هو المراء والجدل، والضلال والعناد. (الآيات 84–85) [1].

3 – تهديد لهؤلاء المشركين بتحويل هذا القرآن عنهم، ورفعه من بينهم، وحرمانهم هذا الخير العظيم المسوق إليهم، مبينة أن رحمة الله سبحانه وتعالى بالنبي ﷺ وبقومه هي التي أمسكت هذا الخير عندهم وأبقته فيهم. (الآيات 86–87).

4 – تحدي جميع المتشككين في معجزة القرآن، على تعاقب الأزمان. (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا). (الآية 88).

---

(1) وإذا فسرنا الروح هنا بالوحي – كما ذكر بعض أهل العلم– يكون الحديث ممتداً عن القرآنً وهنا الحديث عن طبيعة القرآن، المميزة له عن كل كلام سواه، وأنه روح من أمر الله، أوحاه إلى رسوله ليحيي الناس ويزكيهم (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) [الشورى52] على أن التفسير الشائع عند الجمهور أن المراد بالروح هنا الروح السارية في الأحياء، وأنها مما استأثر الله بعلمه .

⏮ – التكذيب: أسبابه ونتائجه: الآيات (89 – 104):

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ
إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا
﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا
﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ
قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ
لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا
رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ
بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ
لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ
شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ
فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا
﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا
كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ
ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَسْأَلْ بَنِي
إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ
لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ
يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ
جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ
جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

بعد أن بيّن الله سبحانه وتعالى ما في القرآن الكريم من هذا الإعجاز الذي أعجز الإنس والجنّ، جاء قوله تعالى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هَذا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً). ليكشف عن هذا الضلال المبين الذي يستبدّ بالناس؛ فيعميهم عن (آيات القرآن) ويصرفهم عن الهدى ويزين لهم الباطل .. فقد وصل بهم العناد والمكابرة إلى طلب (آياتٍ مادّية) يرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم، كما اعترضوا على بشرية الرسول، وختمت هذا الجدال الذي لا تجدي فيه الحجة، بالاكتفاء بشهادة الله تعالى. (الآيات 90-96).

ولما كان ما طلبه المشركون من آياتٍ خارقة ليس له علاقة برغبتهم في الهداية، ولكنه العناد والغواية، جاءت الآية التالية لتبين (سنن الله في الهداية والضلال)، وبينت كمال قدرته وتمام مشيئته النافذة في جميع خلقه؛ فتوعدتهم بالعذاب الشديد جزاءُ كفرهم وإنكارهم البعث والجزاء. (الآيات 97-99).

ولسائلٍ أن يسأل ما علاقة الآية التالية بما قبلها؟ «قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً». (الآية 100).

يقول د. أحمد نوفل: (ختمت الآية السابقة بقوله عز وجل: (فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا)، وذلك إثر الحديث عن كفرهم بالبعث، وفي هذه الآية يبين أن الإنسان لو ملك خزائن الله لما أنفق لأنه قتور، والكفر والتقتير جذرهما واحد: فهذا كافر يجحد البراهين والآيات، وهذا مقتّرٌ يجحد ما أوتي من ثروات، والكافر لم يستثمر ثروة عقله في الإيمان، والقتور لم يستثمر ثروته -أعني ثروة ماله- في دخول الجنة) [1].

وفي مقابل موقف المشركين المتعنت من المعجزة القرآنية القاهرة، وطلبهم آياتٍ مادّية محسوسة.. ناسب ذلك أن يذكّرهم بموقف (فرعون الطاغية) من التسع آيات البيّنات التي جاء بها موسى عليه السلام، فقد أنكرها وكفر بها، وازداد

(1) تفسير سورة الإسراء دراسة تحليلية موضوعية ص447

معهـا بغيـاً وعدوانـاً. فبـين هـؤلاء المشركين مـن قريش وبـين فرعون نسـبٌ قريب يجمعهـا فيـه الجـبروت والطغيـان، واسـتغلاق القلـوب، وظلام النفـس، وضلال الـرأي. (الآيـات 101–103).

وختمـت الآيات بهـلاك فرعون وجنـوده، وسـنة الله في اجتماع بنـي إسرائيل. (الآية 104).

– وبالحق أنزلناه: الآيات (105 – 111):

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

تعـود الآيـات مـرةً أخـرى إلى الحديث عـن (معجزة القـرآن)، فتحدثـت أولاً عـن طابـع القـرآن وفحـواه (الآيـة 105)، ثـم بينـت الحكمـة في نزوله منجـماً على دفعـات (الآيـة 106)، وأخـيراً وصفـت وقعـه في نفـوس المؤمنين، الذيـن اطلعوا عـلى البشـارة بـه في كتبهـم قبـل نزوله، فلـما أدركـوا نزولـه آمنوا بـه إيمانـاً لا يرقى إليـه أدنى شـك. (الآيـات 107–109).

وفيهـا إشـارة إلى أن شـأن أولئـك المكابرين المعانديـن الذين يقفـون من كتاب اللّه هـذا الموقـف المنحـرف، أنهـم لا يعلون مـن قدر القـرآن شـيئاً إذا هم آمنـوا به، ولا ينزلـون مـن قـدره شـيئاً إذا هـم أمسـكوا أنفسـهم عـلى الكفـر، فإن هنـاك فئة مـن (علـماء أهـل الكتـاب) يلقـون هـذا القـرآن بهـذا الاحتفـاء العظيـم عـلى حين

أنهم - أي المشركين- يلقون هذا القرآن الذي دُعوا إليه بوجوهٍ منكرة وقلوبٍ مغلقة وعقول شاردة.

وفي ختام السورة يأتي الأمر (بتمجيد الله منزل القرآن)؛ بالثناء عليه بما سمى به نفسه من أوصاف الكمال، وبتنزيهه عن النقص من كل وجه، وبيان أدب مناجاته وذكره في الدعاء والصلاة. (الآيات 110-111).

وهكذا يلتقي ختامها مع بدئها، حيث بدأت (بتسبيح اللّه وتنزيهه)، ثم ختمت (بحمده وتقديسه).. وكأنّ هذا الحمد هو مما أوجبه استقبال تلك المنّة الكبرى التي منّ اللّه بها على عبده محمد ﷺ إذ أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. فسبحان الله وبحمده.

سورة الكهف

موضوع السورة:

تستهدف السورة (العصمة من أمواج الفتن) المتلاطمة من خلال تناولها لأربع قصص رئيسية لم تذكر إلا في هذه السورة، وقد جاءت هذه الآية – والله أعلم– (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا). (الكهف 7). لتربط بين تلك القصص [1]:

1 –فتية الكهف آثروا (زينة الإيمان) على الزينة الأرضية، وفضلوا اللجوء إلى كهفٍ موحش مظلم على البقاء في القصور وسط أجواء الشرك الخانقة .

2 – وصاحب الجنتين المغرور اغتر بهذه (الزينة الدنيوية) حتى سقط في مستنقع الاغترار والاستكبار، في مقابل اعتزاز صاحبه المؤمن (بزينة الإيمان) بالواحد القهار.

3 – وموسى عليه السلام يبحث في رحلةٍ مثيرة عن (العلم الراشد) الذي يضبط علاقة الإنسان بهذه الزينة، ويقوده إلى محراب الإيمان والتسليم بحكمة الله عز وجل في كل شيء .

4 – وذو القرنين لم ينخدع (بزينة الملك) وأبَّهة السلطان، بل رأى الزينة التي ينخدع بها كثيرون أسباباً آتاه الله تعالى إياها، وكان لزاماً عليه أن يتّبعها لإقامة الحق ونشر العدل وحماية المستضعفين.

---

(1) سورة الكهف أكثر السور التي تكرر فيها لفظ (زينة) 3 مرات : قوله تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) الآية (7) ، قوله تعالى : (وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) الآية (28) ، قوله تعالى : (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...) الآية (46) ، كما ذكر أثر التزيين في ضلال أهل الباطل في نهاية السورة في قوله تعالى : (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104).

ولعل ذكر فتنة إبليس في منتصف السورة تقريباً فيه إشارةٌ إلى أن الزينة سلاحه في الإغواء والإضلال.. ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾. (الحجر 40)، وأن الأخسرين أعمالاً في نهاية السورة نموذج لمن خدعتهم الزينة عن القيمة، واغتروا بالمظهر على حساب الجوهر. وتفرد السورة بذكر جنس إبليس أنه كان من الجن، إشارةً لعدم الانخداع بما يبدو في الظاهر من التزيين وإنما على الإنسان أن يعرف حقيقة جوهر الأمور.

مناسبتها لما قبلها:

(استهلت سورة الإسراء (بالتسبيح)، وهو تنزيه الله تعالى عن كل نقص وعيب، واستهلت سورة الكهف (بالحمد)، وهو إثباتٌ لصفات الكمالٍ، فالتسبيحُ تنزيهٌ ونفيٌ لكل نقص، والحمد إثباتٌ لكل كمالٍ، والتسبيح مقدم على الحمد؛ وذلك من باب: «التَّخلية قبل التحلية». كما ختمت سورة الإسراء بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، وافتتحت سورة الكهف (بالحمد لله وإنذار الذين قالوا اتخذ الله ولدا) .

وكما استُهِلّت سورة الإسراء بالتنويه على تلك الرحلة العجيبة « رحلة الإسراء»، فقد جاء الحديث في سورة الكهف عن رحلاتٍ أخرى عجيبةٍ، منها رحلةُ أصحابِ الكهفِ، ورحلة موسى مع الخضر، ورحلات ذي القرنين.

ولئن كان الإسراءُ آيةً عجيبةً ومعجزةً باهرة: فإن إنزال الكتاب هو الآية العجاب والمعجزة الكبرى التي منَّ الله بها على الإنسانية). [1]

(1) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ج 4/ 289-290 بتصرف، وقد استفدت منه كثيراً في بيان أوجه الترابط بين آيات السورة .

مقاطع السورة:

- نعمة إنزال القرآن: الآيات (1 – 8):

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾

بدأت السورة بامتنانٍ من الله على عباده المؤمنين، بنزول الكتاب المبين، وتلقينهم كيف يثنون عليه ويحمدونه، شكراً له على نعمة إنزال القرآن، الذي هو دستور الإسلام وميثاق الإيمان، وتحدثت عن رسالة هذا الكتاب، وقد جاء بالبشارة والنذارة، منذراً لمن سقطوا في خضم الفتن، ومبشراً لمن سلكوا طريق العصمة. (الآيات 1 – 5).

وبعد أن بين الله عز وجل الغرض من إنزال الكتاب على عبده، وأنه محصور في الإنذار والتبشير، أراد أن يخفف على رسوله ﷺ ما يجده من الحزن والألم على إعراض القوم، وتوليهم عن الإيمان بالكتاب. (الآية 6)، مبيناً له علة هذا الإعراض وهو الاغترار بزينة الدنيا الفانية التي خلقها الله للابتلاء والاختبار. (الآيات 7–8).

- (أصحاب الكهف.. الثبات على الإيمان): الآيات (9 – 26)..

مناسبة هذه الآيات لما قبلها:

(لما كادت نفسه ﷺ تذهب حسراتٍ وتهلك غماً وهماً من أحوال قومه الذين جاءهم بالحق المبين، لكنهم في غيهم سادرون وفي ضلالهم يعمهون،

جاءت هذه القصة وما تلاها لتنبه الرسول ﷺ إلى أن يترفق بنفسه فإنه يؤدي ما عليه من واجب البلاغ وأمانة الرسالة، وليتذكر أن الهداية من الله يختص بها من يشاء ويمنحها مَن يستحقها، وأولئك الفتية نموذجٌ لمن ملأ الله قلوبهم بالإيمان وهداهم إليه بالفطرة والبرهان)(1).

وأصحاب الكهف هم مجموعة من الشباب الصالح اعتنقوا الإيمان بالله ديناً، والاستقامة سلوكاً، والثبات طريقاً، وفارقوا الأهل والعشيرة في سبيل الحفاظ على عقيدتهم التي كانت عندهم أعز من كل عزيز.

ويمكن تقسيم القصة إلى عدة مشاهد:

1 - إجمال قصة أصحاب الكهف: (الآيات 9-12):

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾
إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ
أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾
ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

2 - تفصيل قصة أصحاب الكهف: (الآيات 13-21):

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى
﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن
نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن
دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ
يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾

---

(1) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ج 4/ 300

۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ۞

وفي تفصيل القصة يذكر أحوالهم في حياتهم، وموقفهم من قومهم، وذكر أحوالهم أثناء رقدتهم، وتدبير الله لحفظهم، وذكر أحوالهم بعد بعثهم من الرقاد لإشهاد الناس آيتهم.

وذلك لتقوم لهم الحجة على أن الحق الذي آمنوا به هو الذي ظهر وانتصر في مدينتهم وبين قومهم، وأن العاقبة للمتقين مهما طال الأمر.

3 - التعقيب على القصة: (الآيات 22-26):

۞ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر
رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ
فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ
غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ
وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

✓ تأكيد جهل أهل الكتاب بحقيقة عدة أصحاب الكهف، وتوجيه النبي ﷺ إلى واجب تفويض تنزيل الوحي بالكلية إلى الله، والإقرار بإحاطة مشيئته بما يهم به من عمل. (الآيات 22-24).

✓ تأكيد جهل أهل الكتاب بحقيقة مدة لبث أصحاب الكهف، وبيان تفرد الله عز وجل بولاية شأن المخلوقين، وتدبير أمرهم في حكمه الديني التشريعي وفي الحكم الجزائي ومحاسبة العباد يوم القيامة. (الآيات 25-26).

4 - بيان (واجبات السالكين) سبيل ولاية الله (الآيات 27-31):

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ
مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ
وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ
وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا
أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَۚ
بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن
تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ
وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

بعد انتهاء قصة أصحاب الكهف وما برز فيها من ولاية الله عز وجل لعباده المؤمنين وحفظه لهم، تأتي هذه الآيات لتبين سبيل نيل هذه الولاية:

✓ دعوة إلى (اتِّباع الوحي الإلهي) الثابت الذي لا تبديل فيه ولا تغيير لما فيه من أخبار صادقة وسنن مطردة، والتي من بينها نصرتُه لأوليائه. (الآية 27).

✓ دعوة الرسول ﷺ إلى أن (يصبر نفسه مع أولياء الله) المريدين لوجهه والمبتغين لفضله، فلا ينصرف عنهم لفقرهم أو لضعفهم. (الآية 28).

وفيها إشارة لطيفة (تذكر الرسول ﷺ أن في أمته أمثال فتية الكهف المؤمنين فلا ينبغي التفريط فيهم، بل الواجب تقريبهم والعناية بهم فهم عدة الدعوة ووقود المعارك، وهم المخلصون الذين يعتمد عليهم -بعد ذلك- في الملمات والشدائد). [1]

✓ دعوة إلى (وجوب الثبات على الحق) والتمسك به دون هوادة ولا لين، في وجه الغافلين والمتنطعين، واتِّباع الأهواء الظالمين، مبينة حرية الاعتقاد في الإسلام، مع التأكيد على فردية التبعة في اختيار طريق الهداية أو الضلال وما يترتب عليهما من ثوابٍ وعقاب. (الآيات 29-31).

⏮ - قصة صاحب الجنتين (الاغترار بالزينة): الآيات (32 - 44):

﴿ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ

(1) مباحث في التفسير الموضوعي ص -221 د. مصطفى مسلم

مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ
بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن
تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ
وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا
غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ
أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢ وَلَمۡ تَكُن
لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ٤٣ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ
خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ٤٤

لما أوصى الله عز وجل رسوله وورثته من حملة الدعوة الإسلامية بأن يؤثروا بعنايتهم من عندهم حرصٌ على تلقي الدعوة، واستعداد لقبولها، وأن لا يعيروا أي اهتمام للاعتبارات الجانبية والمظاهر المادية، جاءت هذه القصة لتصور نموذجين متقابلين: نموذج الكافر المعتز بزينة الدنيا، والمغتر بشهواتها وثرواتها، ونموذج المؤمن المعتز بربه وإيمانه، شاكر لأنعمه، قانعٌ بما أعطاه مولاه. وصورت الآيات ما دار بينهما من حوار استهدف: تصحيح المفاهيم، وضبط الموازين، وتأصيل القيم، وذلك ببيان أن العبرة ليست بكثرة المال والولد، فتلك أعراضٌ فانيةٌ، وعاريةٌ مستردَّةٌ.

وختمت القصة بهلاك جنة الكافر نتيجةً لكفره وعدم شكره، وغروره وكبره، وصورت ما ذاقه من مرارة الخيبة وشدة الخسران. وفي أعقاب هذه القصة جاء التأكيد بأن الملجأ الوحيد الذي ينبغي الالتجاء إليه، والركن الركين الذي ينبغي الاعتماد عليه، في السراء والضراء، والشدة والرخاء، والدنيا والآخرة، هو الحق سبحانه وتعالى، (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا). (الآية 44).

– تعقيب على القصة (التحذير من الاغترار بزينة الدنيا): الآيات (45 – 49):

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ
نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾
ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا
وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ
مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ
زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ
مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً
إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾﴾

لما كان (الاغترار بالدنيا) والافتتان بزخارفها من أعظم البواعث على الفتن والدواعي إلى الصدود عن الحق، ضرب الله مثلاً بليغاً لزوال الدنيا وضآلتها يتضمن تشبيه حال الدنيا في نضارتها وبهجتها وما يعتورها من هلاكٍ وفناء – بالنسبة لحياة كل فردٍ في حد ذاته، وبالنسبة لحياة النوع البشري على العموم. (الآية 45).

ثم أشارت إلى أبرز لونين وأزهاهما في هذه الحياة الدنيا التي يفتن الناس بها ويشغلون بها عن الله، وعن الحياة الآخرة وهما (المال والبنون). (الآية 46) [1].

ثم انتقل السياق إلى مشاهد من أهوال يوم القيامة؛ لترهيب المفتونين بزينة الدنيا المغترين بها؛ ولتسلية المؤمنين وتذكيرهم بهذا اليوم الموعود. (الآيات 47-49).

(1) ذكرت د. سمر الأرناؤوط أن سورة الكهف انفردت بذكر مفردات المال: (الورِق، المال، الأجر، كنز، الخَرْج)، وجاء ذكر الأبناء في قصة موسى مع العبد الصالح مرتين.

- ولاية الله أم ولاية الشيطان؟ الآيات (50 – 59):

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ
عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ
لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا (٥٠) ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ
أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا (٥١) وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ
ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا (٥٢) وَرَءَا
ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا (٥٣) وَلَقَدۡ
صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ
جَدَلٗا (٥٤) وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ
إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا (٥٥) وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ
إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ
وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا (٥٦) وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ
عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ
وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا (٥٧) وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو
ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن
يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا (٥٨) وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا
لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا (٥٩) ﴾

في عرض قصة (إبليس) في منتصف السورة تقريباً فيه إشارة لأصل الغواية، ورأس الفتن، وأصول هذه الضلالة التي عليها غالبية الناس، وهي سبب اغترارهم بالمظاهر البراقة والقيم الزائفة، ولفت الله عز وجل أنظار بني آدم إلى العداوة المتأصلة بينهم وبين إبليس وذريته، وأن هذه العداوة الراسخة والدائمة التي يكنها إبليس لآدم وذريته كافيةٌ لأن تجعلهم على حذرٍ من موالاته ومتابعته، فكيف يعادون ربهم، ويوالون عدوهم؟! (الآية 50).

ثم أتبع ذلك بتقريع الظالمين الذين استبدلوا بربهم ولاية أولياء السوء من شياطين الإنس والجن (الآية 51)، ثم وصفت موقف المشركين الحرج يوم القيامة، ممن كانوا يزعمون أنهم شركاء لله، عندما يأمر الله أتباع أولئك الشركاء أن ينادوهم ليشفعوا فيهم، ثم يدعونهم فلا يستجيبون لهم (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا). (الآيات 52-53).

لقد كان لهم ولغيرهم ملجأ ومصرفًا يومًا ما، قبل هذا اليوم.

لقد كان لهم في (القرآن العظيم) الذي صرف فيه من كل مثل الملجأ والملاذ، فلو التجؤوا إلى هداياته، ونهلوا من معين آياته واستهدوا بحكمته، إذن لاختلف المصير الذي يوجهون إليه اليوم. (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا). (الآية 54). وتخصيص وصف الإنسان بأنه (أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)، يتناسب مع ما تكرر في السورة من ألفاظ الحوار: (حوار، مراء، استفتاء، جدال).

ولكن القوم اتبعوا سنن من قبلهم من المجادلين الرافضين للحقائق، إما عناداً وجحوداً، وإما تقليداً وجموداً، وطلبوا العذاب العاجل في الدنيا نكاية بالرسل ومحادة لله ورسله.

لقد غلفت قلوبهم بحجب كثيفة من الرين من آثار الشهوات، وحجبت عقولهم بأغلفة سميكة من آثار الشبهات، وغفلوا عن حكمة الله ورحمته إذ أمهلهم وأفسح لهم المجال لإصلاح ما أفسدوا من أمرهم، ولكن لا بد للاستمرار على الكفر والجحود والعناد من نهاية، (بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا). (الآيات 55-59).

- قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح (رحلة البحث عن العلم الراشد): الآيات (60 – 82):

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ
حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾
فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ
أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ
وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا
﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾
قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ
صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ
لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ
أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ
لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا
فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل
لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى
قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن
يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ
أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾
أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ
يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا
طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾
وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا
فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

مناسبة هذه القصة لما قبلها– كما ذكر د. عبد الكريم الخطيب رحمه الله – أن الآيات السابقة قد نعت على المشركين عنادهم وضلالهم وتأبّيهم عن الهدى، وقد جاءهم عفواً صفواً من غير أن يسعوا إليه ويبذلوا الجهد في طلبه، وقد كان جديراً بهم أن يطلبوا الهدى لأنفسهم وأن يبذلوا في ذلك الجهد والمال ولكنهم لم يفعلوا سفهاً وغفلة!..

وهذا نبيٌ كريم من أنبياء الله، هو موسى عليه السلام، قد كلمه ربه وأنزل عليه آياته وكلماته، ومع هذا فهو لا يزال يطلب العلم ويجدّ في تحصيله ويبتغي المعرفة ويسعى للاستزادة منها. وفى هذا ما يكشف عن مدى ما ركب سفهاء قريش وحمقاها من جهل فاضح وكبر صبياني غشوم، إذ كانوا يرون أنهم لا يحتاجون إلى علم حتى ولو كان هذا العلم يطرق أبوابهم ويدخل عليهم بيوتهم.

وهناك مناسبة أخرى لطيفة ذكرها د. أحمد الشرقاوي:

(لما بين الله عز وجل في الآية السابقة أنه تعالى رحيمٌ في ملكه عادلٌ في حكمه، ومن ذلك إهلاكه للظالمين بعد إمهالهم وإعذارهم ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا﴾. بيَّن في هذه القصة أمثلةً واقعيةً للعدلِ الإلهيِّ، ولما جعل الله لهلاك الظالمين موعداً محدداً؛ فقد جعل الله للقاء موسى مع الخضر موعداً مؤكَّدًا، فكلُّ شيء له وقتٌ وتقديرٌ. وليعلم الدعاةُ والمصلحون أن إمهال الله للظالمين واستدراجهم والمسارعة لهم في الخيرات لِحَكَمٍ جليلة، كما تمخضْت أفعالُ الخضرِ التي فعلها عن أمرٍ إلهيٍّ عن حِكَمٍ عجيبةٍ) [1].

(وفي هذه القصة وما تخللها من ثلاث رحلاتٍ عجيبة، برزت الحكمة الإلهية الرشيدة، فقد كانت النظرة الظاهرة تقضي بإبقاء السفينة على حالها وهو أفضل لمصلحة المساكين – وترك الغلام على قيد الحياة أدخل للسرور على قلب والديه من قتله– وترك الجدار الآيل للسقوط أليق بتصرف أهل القرية

(1) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ج 4/ 364

البخـلاء اللئـام عقوبـة لهم. ولكـن حكمة الله سـبحانه وتعـالى وإرادتـه وأمره كان خـلاف هـذه الظواهر العاجلـة، فكانت الآجلة أفضل للمسـاكين، وأقـوم للأبوين الصالحين، وأحفـظ لليتيمين في القريـة). [1]

والقصـة تمثـل منهـج تعامـل المؤمـن مـع المِحَـن، فهـي إن بـدت لـه كذلـك بظاهرهـا وبحـدود علمـه القـاصر فإنهـا تحمـل في طياتهـا منحًـا بعلـم الله فليوقـن بحكمـة الله وقضائـه.

– قصة ذي القرنين: الآيات (83 – 98):

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ٨٣ إِنَّا مَكَّنَّا
لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ٨٤ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٥ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ
ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن
تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ
فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ
لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ٨٨ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ
عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ٩٠ كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ٩١
ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ
يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ
لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ
أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ
ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن
يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ
دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨﴾

---

(1) مباحث في التفسير الموضوعي ص 257

في علاقة هذه القصة بما سبقها من (قصة موسى مع الخضر) أكثر من مناسبة، نذكر منها:

1 – (طاف موسى عليه السلام طلباً للعلم النافع (بهمّة وعزيمة)، وطاف الخضر بأمر الله تعالى حاملاً راية الإصلاح والتغيير، كذلك طاف ذو القرنين بجنده وعتاده، (آخذاً بالأسباب الذي أوتيها)، لينشر العدالة في ربوع الكون، ويبلّغ دعوة الحق ويصحح المفاهيم ويقيم الموازين القسط، ويُرسِّخ القيم الأصيلة والأخلاق الفاضلة) [1].

2 – (إن قصة موسى مع الخضر درسها الرئيسي هو(الإيمان بالقدر)، وعدم الاستغراق في الأسباب الظاهرة؛ فإن من وراء وقائع الأيام يدٌ حكيمة، تعمل في الخفاء، تحفظ الضعيف وترعى حقه، وتصون ذرية الصالحين بعد رحيلهم، وتدبر للمساكين أسباب رزقهم، وتكف يد البطش عنهم .

وأما قصة ذو القرنين، فدرسها الأساسي، هو بيان أن (الأخذ بالأسباب لا يتنافى مع الإيمان بالقدر)؛ فإن الأسباب جزءٌ من القدر الإلهي، فهذا الملك العبقري، في الاستفادة من الأسباب، لا يفتن بنفسه ولا بالأسباب، بل يعتبرها فضل الله ورحمته.

فشخصية الخضر، تمثل الإيمان بالقدر الإلهي، المخفي عن الناس، وهو رحمة من الله؛ مصداقاً لقوله: (آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا).

وشخصية ذو القرنين، تمثل نموذج المؤمن بالقدر؛ المحسن الأخذ بالأسباب؛ فهو متوكلٌ، لا متواكل، يعبد الله وحده، وهذا التوكل رحمة من الله؛ مصداقاً لقوله: (قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا). فالمؤمن الحق، يوقن أنه يعيش متقلباً بين رحمات الله، الظاهر منها والمستور)[2].

---

(1) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ج 4 / 381–382 بتصرف .

(2) بحث قصة موسى مع الخضر عليهما السلام دراسة بلاغية تربوية ص 30 – د. عماد محمود عبد الكريم

وهناك مناسبة لطيفة بين قصة ذي القرنين (آخر قصة في السورة) وبين قصة أصحاب الكهف (أول قصة) ذكرها الباحث عارف كامل عبد الله:

(جاءت قصة أصحاب الكهف حديثاً عن الفتية الذين عاشوا في مجتمع استبدادي وتحت حكم (سلطان ظالم)، وهذا السلطان كان يمكن لأهل الفساد وأهل الظلم، ويصد أهل الحق عن عبادة الله ويقتلهم. وجاءت قصة ذي القرنين حديثاً عن (سلطان عادل) كان يمكن لأهل الحق ويساعدهم ويقوم بحمايتهم من الظلم والفساد ويجزيهم خير الجزاء على أعمالهم الصالحة، وفي المقابل كان يعذب الظالمين والمفسدين ويمنعهم من ظلمهم وفسادهم في المجتمع.

والمناسبة بين القصتين من هذا الجانب واضحة، حيث عرضت قصة أصحاب الكهف الحكم الظالم الذي كان سروراً لأهل الباطل وعذاباً لأهل الحق، وعرضت قصة ذي القرنين الحكم العادل الذي كان سروراً لأهل الحق وعذاباً لأهل الباطل.

وفائدة هذه المناسبة هي بيان أن قوة العقيدة وقوة الإيمان لا تكفي وحدها لإحداث التغيير المنشود في المجتمع، ولا بد من وجود السلطان السياسي العادل الذي يمكن لقوة الحق أن تتحرك في الأرض)[1].

– جزاء المخدوعين المفتونين وجزاء المؤمنين: الآيات (99 – 110):

﴿۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ٩٩ وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ

(1) القصص القرآني في سورة الكهف وبناء الشخصية الإسلامية ص 129

إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ
سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ
جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوۡ كَانَ
ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾
قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ
عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾

لما ختمت قصة ذي القرنين بتوجهه إلى ربه شاكرًا متضرعًا على فضله وكرمه في إنجاز بناء السد فقال: (هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي) واستشعر – وهو المؤمن بيوم النشور والحشر – أن كل شيء في الدنيا زائل وتذكر يوم العودة إلى الله سبحانه وتعالى، (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا).

وتتميمًا للصورة المجسدة في (حشر يأجوج ومأجوج) وحجزهم خلف السد جاء التعقيب الإلهي للتذكير (بالحشر الأكبر) الذي يقع بعد اختلال نظام الكون (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا)، ثم صورة جهنم تعرض أمام الكافرين عرضًا، وقد كانوا في الدنيا يقولون – استخفافًا واستهزاء – (عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ). (الآيات 99–100).

ثم بينت جزاء (المخدوعين المفتونين) الذين اغتروا بزخرف القول وانقادوا للأهواء، فغرقوا في خضم الفتن وتاهوا في شعابها السحيقة. (الآيات 101–106)، وفي المقابل تذكُر عاقبة من عصمهم الله تعالى ونجاهم من الفتن، فكانت لهم جنات الفردوس نزلاً (الآيات 107–108)، وفي هذا ما يزيد من حسرة الكافرين ويضاعف من عذابهم، بالقدر الذي يزيد من نعيم المؤمنين، ويضاعف من سرورهم.

ثـم تأتي اللمسـات الأخـيرة في نهاية السـورة كالأضواء الكاشـفة عـلى (المنهج الصحيـح الذي يعصـم صاحبه مـن الفتن):

إنـه الوحـي الـذي أوحـاه الله سـبحانه وتعـالى إلى عبـده ورسـوله ﷺ، إنهـا كلـمات الله التـي لا يحيـط بهـا عقـل أو خيـال. (الآيـة 109).

فمـن أراد أن يسـلك طريـق جنات الفـردوس فعليه أن يلتـزم بأمرين: (الآية 110):

أ- العمل على وفق وحي الله المنزل على عبده ورسوله ﷺ.

ب- إخـلاص العمـل لوجـه الله جل جلالـه والبعد عن الـشرك بكافة صوره. (فَمَـنْ كَانَ يَرْجُـوا لِقَاءَ رَبِّـهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًـا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَـادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) .

وهكـذا يلتقـى ختـام السـورة مـع بدئهـا في تقريـر وحدانيـة الله وتنزيهـه عـن الشريـك والولـد.

سورة مريم

موضوع السورة:

(يرى المتدبر في هذه السورة حضورَ الرحمة في كثير من مشاهدها وأشخاصها الذين ذكروا فيها: ففيها ظهور رحمة الله في أنبيائه الكرام بالاجتباء والرفعة، (زكريا ويحيى عليهما السلام – عيسى بن مريم عليه السلام وأمه – إبراهيم عليه السلام – إسماعيل وإسحاق ويعقوب – عليهم السلام – موسى وهارون عليهما السلام – إدريس عليه السلام).

ورحمته عباده بإنزال الوحي الذي يتضمن الخير الكثير لهم، ورحمته خلقه ببعثهم بعد موتهم؛ لينال كل عامل جزاء ما عمل، ورحمته في إمهاله العاصين وحلمه عليهم، ورحمته رسولَه محمداً ﷺ بإنزال القرآن عليه، ورحمته صالحي عباده بإهلاك المكذبين للرسل عقوبة لهم، وإنجاء المؤمنين، وجعل ذلك عبرة للمعتبرين من بعدهم)[1].

(وإذا كانت رحمته تعالى هي من كمال صفات الربوبية، فإن غاية الإنسانية وكمالها في عبوديتها الخالصة لله تعالى، وهذه الصديقة مريم التي سميت السورة باسمها قد نذرتها أمُّها محررةً أي خالصةً للعبادة، وسمّتها مريم بمعنى (العابدة)، والعبودية لله سمو وارتقاء ونهوض وتحرر وعزٌّ.

من هنا كان الهدف من هذه السورة: تحقيق العبودية وتعظيم شأن الربوبية، وفي ذلك شرف العبد وكماله، وتحقيق الغاية من وجوده والهدف الأساسي لهذا الدين الذي ارتضاه الله لعباده)[2].

والسورة تتجلى فيها أيضاً الرحمة الأُسَرية في الأنبياء المذكورين فيها: رحمة أب بابنه، وولدٍ بأمه، وابن بأبيه، وأخ بأخيه، وزوج بأهله.

(1) بحث أفانين السورة القرآنية في تحقيق مقصدها بتصرف ص 23 – د. توفيق زبادي

(2) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ج 4/ 407

مناسبتها لما قبلها:

أنها اشتملت على آياتٍ وخوارق، على نحو ما اشتملت عليه (سورة الكهف) التي ضمّت هذه الآيات العجيبة في قصة أصحاب الكهف، وفى صاحب الجنّتين، وفى قصة موسى والعبد الصالح، ثم في قصة ذي القرنين وما جرى على يديه.. وفى (سورة مريم) تعرض السورة آياتٍ من قدرة اللّه نجدها في استجابته سبحانه لدعوة عبدٍ من عباده هو زكريّا عليه السلام، إذ رزقه الولد على الكبر وعلى ما كان من امرأته من عقم .. كما نجد تلك الآية العجيبة في ميلاد المسيح عليه السلام من غير أب!.

مقاطع السورة:

– رحمته تعالى بزكريا ويحيى عليهما السلام : الآيات (1 – 15):

﴿ كٓهيعٓصٓ ١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً
خَفِيّٗا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ
بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي
عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ
رَبِّ رَضِيّٗا ٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ
سَمِيّٗا ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ
مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ
مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ
إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ
صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن
جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥ ﴾

استُهِلَّت السورة بالحديث عن رحمته تعالى بعبده زكريا عليه السلام، هذه الرحمة التي تجلّى أثرُها في استجابة دعوته عليه السلام وهبته الولد الصالح مع كبر سنه وعقم زوجه، فكانت ولادة يحيى تكريماً ورحمة بهذا النبي العابد.

- رحمته تعالى بمريم وابنها عيسى عليه السلام: الآيات (16 - 40):

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٣٦ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٩ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٤٠﴾

بعد أن تحدث المولى ﷻ عن زكريا عليه السلام وكمال عبوديته لله تعالى، وكيف رزقه الله ﷻ الولد مع كبر سنه وعقم زوجته، يتحدث المولى ﷻ عن خلقه عيسى بدون أب، فالقصة الأولى بمثابة التمهيد للقصة الثانية، وإذا كان مولد يحيى آيةً عجيبة فإن ولادة عيسى آيةٌ عُجاب.

وتحدثت الآيات عن هذه القصة حديثاً ينفي عن مريم العذراء مزاعم اليهود الخبيثة، التي بلغت الغاية في اللؤم والتحقير، والقذف والتشهير، كما ينفي عن ابنها عيسى المسيح مزاعم النصارى الطائشة، التي بلغت الغاية في الغلو والإطراء، والتطوح مع الشهوات والأهواء.

ثم أشارت إلى براءة عيسى من إفك اليهود وافترائهم، وبراءته من غلو النصارى وإطرائهم، إحقاقا للحق وإبطالاً للباطل، (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ).

وهكذا جاءت الآيات في شأن عيسى وأمه مريم بالقول الفصل، لكن المفترين عليهما، والمسرفين في حقهما، أصروا على عنادهم، واستمروا في ضلالهم، ومهما طال بهم الأمد فمردهم جميعا إلى الله (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)، فالويلُ لهم من أهوال يوم القيامة ومشاهدها العظام حين يفصل بينهم . (الآيات 34-40).

– رحمته تعالى بإبراهيم عليه السلام : الآيات (41 – 50):

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ
لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ
جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ
لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ
أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ
أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾

قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

بعد الحديث عن زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، ومريم الصديقة وابنها عيسى عليه السلام، وبيان رحمة الله تعالى بهم وتفضله عليهم وكمال عبوديتهم لله تعالى: يأتي الحديث عن أبي الأنبياء وخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، فتعرض الآيات حلقة من قصة إبراهيم عليه السلام؛ تكشف عما في عقيدة الشرك من نكارة وكذب وضلال، وتتجلى في القصة رحمة الله بإبراهيم عليه السلام وتعويضه عن أبيه وأهله المشركين ذريةً صالحة تنسل أمةً كبيرة، فيها الأنبياء وفيها الصالحون.

وفي إيراد قصته ردٌّ على النصارى وغيرهم من المشركين ممن يدعي اتِّباع إبراهيم عليه السلام، فإن كانوا صادقين في محبته واتِّباعه والانتساب إليه فهذه هي دعوته التي دعا بها وابتلي بسببها، دعوة التوحيد.

وعرض (قصة إبراهيم مع أبيه) هنا تمثل للنبي ﷺ صورةً من الصراع الحادّ بين الإيمان والكفر، وأن هذا الصراع قد يبلغ الحدّ الذي يفرق بين الابن وأبيه، وإذن فإنه ليس للنبي ﷺ أن يأسى كثيراً على ما وقع أو سيقع بينه وبين أهله وقومه من فرقة واختلاف، وقد جاءهم لينذرهم يوم الحسرة، ويلفتهم إلى تلك الفرصة السانحة لهم للخلاص مما هم فيه من ضلال.

واقتصر في هذا السياق على ما دار بين الأب وابنه من محاورةٍ فريدة من نوعها حول عقيدة التوحيد الثابتة، ومعتقد الشرك الباطل، وما تبع ذلك من تهديد أبيه له بالقطيعة والقتل رجماً بالحجارة، وما أنعم الله به عليه من نعمة الذرية الصالحة التي اصطفاها لنبوته وحمل رسالته من بعده.

- رحمة الله تعالى بموسى وهارون وإسماعيل وإدريس عليهم السلام : الآيات (51 - 58):

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن
جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣
وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ
أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ
إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ
ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ
هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ٥٨﴾

وكما امتنَّ الله تعالى على زكريا ويحيى ومريم وعيسى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام وتعهَّدهم برحمته، كذلك امتن الله تعالى على (موسى وهارون وإسماعيل وإدريس عليهم السلام) وغيرهم ممن هداهم الله واجتباهم وآثرهم واصطفاهم فبلغوا أسمى مقامات العبودية.

وبعدما استعرضت الآيات هذه المجموعة المختارة من الأنبياء والرسل من زكريا إلى إدريس عليهم السلام كنموذج صالح للاقتداء والاتِّباع، منوهاً بنصر الله لهم ولدعوتهم، معرفاً بقدرهم عنده ومكانتهم، أجمل القول مرةً ثانية عن عموم الأنبياء، وأثنى على سلسلتهم الذهبية أعطر ثناء، (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ) [58]، وكأنه يقول لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) [الأنعام 90] ورحمة الله بأنبيائه هي من نعمه عليهم وكما رحم وأنعم عليهم سينعم برحمته على خاتمهم ﷺ.

- طريق النجاة : الآيات (59 – 65):

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ
غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ
شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾
لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى
نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا
خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾

(بعد أن ذكر رحمته بأنبيائه وأصفيائه عقب ذلك بمن حُرموا من هذه الرحمات ممن اختاروا طريق الشقاء وضيعوا الفرائض والواجبات واتبعوا الشهوات، فبين تعالى عاقبة انحرافهم عن منهج النبيين وسَنَنِهمُ القويم، وأن مصيرهم إلى التيه والخسران، ثم بين تعالى طريق النجاة الذي يتمثل في التوبة الناصحة والإيمان الخالص والعمل الصالح، وبشَّر من سلك هذا الطريق بالرحمة والغفران والفوز بالجنان، ولما كان أساس هذا الطريق ونبراسه هو الوحي ناسب ذلك الحديث عن تنزلات الملائكة، وأنه لا يكون إلا بأمرٍ وتدبير من الله تعالى، ومن معالم طريق النجاة العقيدة الصحيحة المتمثلة في إفراده تعالى بالربوبية، والعبادة الخالصة التي تحتاج إلى صبرٍ وأناةٍ) [1].

(1) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ج 4 / 459-460

- المشركون .. تكذيب وضلال : الآيات(66-96):

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ
أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ
لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى
ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾
وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا
وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ
فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ
فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟
هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى
كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ
عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ
مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾
كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ
عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ
ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ
ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾
لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ
وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا
﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ
وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾

تنتقل الآيات من (الصورة المشرقة) لأنبياء الله عليهم السلام وهم يمثلون قمة العبودية الصادقة وكمال الاستسلام لله إلى (صورة قاتمة) تمثل الإنسانية الضالة المنكرة للبعث، الغافلة عن حكمة الخلق والإيجاد؛ فتصور موقف الضالين والكافرين يوم القيامة وما يلقون من بلاءٍ وهوان، وأنهم جميعاً واردون جهنم على دفعات، ويبدأ العذاب بأكابر المجرمين قبل أصاغرهم، لعظم مسؤوليتهم في إشاعة الفاحشة ونشر الإجرام، وصد الخلق عن طريق الحق.

وقد عرضت الآيات أبرز (صفات هؤلاء الضالين):

1 – الافتخار بمتاع الدنيا والاستغراق في الشهوات، والغفلة عن استدراج الله تعالى لهم، وعن سنته في هلاك المترفين عبر القرون السابقة (الآيات 73–75). في مقابل إنعامه على المهتدين بالثبات على طريق الهداية والارتقاء في منازله. (الآية 76).

2 – انقلاب الموازين واختلاط المفاهيم وانتكاس القيم يقود إلى الأماني الكاذبة؛ لذا أوردت الآيات مثالاً لمن اغترَّ بنعم الله عليه وإمهاله، فأحسن الظنَّ مع سوء عمله وفساد معتقده، ثم هو يطمع في المزيد؛ فيقول مقولةَ الواثق المغرور بالأماني الكاذبة والسراب الخادع: (لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا). (الآيات 77–80).

3 – الاعتزاز بالآلهة الباطلة – مع كونها لا تضر ولا تنفع– يطلبون بها القوة والمنعة، بل يدعون أنها تقربهم إلى الله زلفى. (الآيات 81–82).

4 – الاستجابة لوساوس الشياطين التي تدفعهم إلى التمرد والعصيان والجحود والنكران، غافلين عن أن الله عز وجل يعد عليهم أنفاسهم ويحصي أعمالهم (الآيات 83–84).

ثم عرضت الآيات مشهداً من مشاهد يوم القيامة، حيث يُزف المتقون إلى الرحمن، ويُساق المجرمون إلى جهنم كما تساق الأنعام. (الآيات 85–86).

5 – إدعاء الولد لله –وحاشاه– زوراً وبهتاناً.. وقد عرضت الآيات انتفاضة الكون وغضبه وغيرته من المساس بقداسة الذات العلية، وما ذاك إلا لتضمنه شتم الرب تبارك وتعالى والتنقص به، ونسبة ما يمنع كمال ربوبيته وقدرته وغناه إليه.

فكل مَن في السموات والأرض هم عبيده الخاضعون له.. قد أحاط بهم إحاطةً شاملة. وسيردون عليه يوم القيامة أفراداً مجردين من كل قوةٍ فيقضي فيهم بحكمه القضاء النافذ، ويكون للمؤمنين الصالحين عنده البر والرحمة والرعاية. (الآيات 88-96).

- القرأن بين البشارة والنذارة: (الآيات 97-98):

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾
وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾

وفي ختام السورة تنويهٌ بفضل القرآن، وأنه هو الملجأ الذي يلجأ إليه الناس ويجدون فيه الهدى والنجاة من أهوال يوم القيامة « فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا». فهو يحمل البشائر للمتقين، ويتوعد أعداء الدعوة الألداء بالهلاك المقيم في عذاب الجحيم. (الآية 97). ثم تختم الآية (98) بتهديد لهؤلاء المشركين، وأنهم إذا أمسكوا على ما هم عليه من عنادٍ وضلال فإنهم سيخرجون من هذه الدنيا بأخسر صفقة، فما هي إلا أيام يعيشونها في هذه الدنيا، ثم يطويهم التراب كما طوى أمماً وقروناً كثيرة من قبلهم، فأصبحوا تراباً هامدين لا يُذكر لهم أثر ولا يسمع لهم نبأ.

وفي ختام السورة تناسبٌ لطيف مع بدايتها كما ذكر د. رشاد لاشين:

(بدأت السورة بالذكر وانتهت بطمس الذكر :

بدأت بذكر الصالحين ورحمة الله لهم (ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢).

وانتهت بطمس الطاحين وإهلاك الله لهم حتى لا يحس بهم أحد أو يسمع لهم حتى الركز- وهو الصوت الضعيف. (وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً). يعلي الله تعالى ذكر الصالحين على مدى الزمن ويمحو الله المجرمين ويهلكهم).

سورة طه

موضوع السورة:

إن الـذي ينظـر بإمعـانٍ في سـورة طـه يجـد أنها تـدور حول معـانٍ رائعـة، في جوٍ عـام يمـلأ جنباتها باللطف والمؤانسـة والرعايـة للعاملين في حقل الدعـوة إلى الله –عز وجـل– وقـد تجلى ذلك في تسـلية الله تعـالى لنبيـه محمد ﷺ حينـما أنزل عليـه القرآن لا ليشـقى وإنما ليسـعد وتسـعد الإنسـانية كلها، ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾. (طه 2). وقـد تجلى ذلك أيضا مـن خلال القصتين الرئيسـيتين في السـورة :

1 – قصـة موسـى عليه السلام ومؤانسـة ربـه عـز وجـل لـه والتـدرج في رعايتـه منذ اللحظـات الأولى التـي ولـد فيها حتى كانـت المواجهة بينـه وبين الطاغيـة فرعون، فأيـد الله نبيـه موسـى ومن معـه من الموحديـن وأهلـك المكذبـين المعاندين.

وقد عرضت قصة موسى عليه السلام نموذجين متناقضين في قبول الدعوة:

✓ النمـوذج الأول: (فرعـون) الـذي ركـب الغـرور رأسـه واسـتبد برأيـه، ورفـض اتِّبـاع الوحـي، وكذلـك (السـامري) الـذي آثـر اتِّبـاع الهوى عـلى الهدى، فضـلَّ وأضـل بنـي إسرائيل.

✓ النمـوذج الثـاني: (سـحرة فرعـون) الذيـن أشرقـت قلوبهـم بنـور الإيمان وأذعنـوا لوحـي السـماء، فآثـروا الآخـرة الباقيـة عـلى الدنيـا الفانيـة .

2 – قصـة آدم عليه السلام: فقـد بـرز فيهـا لطـف الله تعـالى بـآدم، حيـث تـاب عليـه وهـداه بعـد أن خدعه الشـيطان وأغـراه، وقد أكدت القصـة أنَّ: الضنك والشـقاء ملازمـين للإعـراض عـن الهدى وإيثـار الهوى، كـما فتحت أبـواب الرحمـة والنجاة لمـن غشـيته ريـاح الفتـور أو أصابـه رذاذ الغفلة، فضعفـت إرادته وكلـت عزيمته .

وهكـذا تتكامـل القصتـين لترسـيخ حقيقـة هامـة وهـي : (اتِّباع الهدى سـبيل السـعادة الحقيقيـة، واتِّبـاع الهوى سـبيل الشـقاء في الدنيـا والآخرة).

مناسبتها لما قبلها:

(ختمت سورة مريم بقوله تعالى: « فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً». وبُدئت سورة طه بقوله: «ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى». والختام والبدء، على سواء في تذكير النبي ﷺ بأنه ليس مسئولاً عن هداية الناس، وحملهم حملاً على الإيمان بالله، وإنما دعوته هي تبليغ رسالة ربّه.. والرسالة – كما يحملها القرآن الكريم – واضحة بيّنة، لا تحتاج إلى جهدٍ يبذل وراءها، ليكشف عن مضامينها.. إنها لا تحتاج – لكي يجني الناس ثمراتها – إلا إلى آذان تسمع، وعقول تعقل، وقلوب تعي «فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها». (الزمر 41)[1].

وأضافت د. سمر الأرناؤوط مناسبةً أخرى؛ فقالت:

(وسورة مريم ركّزت على رحمة الله تعالى بأنبيائه بشكلٍ عام، وسورة طه فصّلت في رحمة الله بموسى كليم الله عليه السلام من الطفولة إلى ما بعد التكليف، وهي رسالة تثبيت للنبي ﷺ أنه في رعاية الله ورحمته ويُصنع على عين الله عز وجل).

مقاطع السورة:

– القرآن مفتاح السعادة: الآيات (1 – 8):

﴿طه ١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ٣
تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥
لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ٦ وَإِن تَجۡهَرۡ
بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾

(1) تفسير سورة طه تفسيراً موضوعياً ص –15 محمود عبد الكريم الحسن

بدأت السورة بتقرير حقيقة أن القرآن الكريم ما أنزله الحق سبحانه إلا لسعادة الناس، ولا سعادة لهم إلا باتِّباع منهجه وتطبيق شريعته، وأنه ما دام تنزيلاً من خالق السماوات والأرض وما بينهما، عليم بذات الصدور لا يخفى عليه منها شيء، لا شريك له في ملكه، وله الأسماء الحسنى، فلا عجب أن يتجلى في آياته البينات علم الله المحيط، وحكمته البالغة، وقدرته الباهرة، ولا غرابة في أن يكون أصدق وأجمع دستورٍ لهداية الإنسان وسعادته.

- قصة موسى عليه السلام: الآيات (9 - 98):

مناسبة قصة (موسى وفرعون) لهذا البدء الذي بُدئت به هذه السورة هو تذكير للنبي ﷺ بما تنطوي عليه قلوب الظالمين من ظلم وعناد، وما تتلبّس بهم عقولهم من ظلام وضلال، وأنهم في وجه الآيات المشرقة عُميٌ لا يبصرون، وفي مواجهة الحَق السافر يشهرون أسلحة الجدل والعناد، ويصطنعون مع الحق معركةً يلقون فيها بكل ما لديهم من سفاهةٍ وسخرية واستهزاء.. فموقف موسى من فرعون هو نفس الموقف الذي يقفه النبي ﷺ من هؤلاء الفراعين من سادة قريش، وقادة الكفر والضلال فيهم. وفي هذا جذب للنبي ﷺ من دائرة الضيق والأسى التي هو فيها حزناً على قومه وحسرةً على أنه لم يستطع أن يطبَّ لدائهم ويشفي العلل المتمكنة منهم، إنهم ليسوا أحسن حالاً من فرعون الذي لم يستطع موسى بآياته المحسوسة أن يشفي داءه ويذهب بعلته.

والذي ذكر من قصة موسى عليه السلام هنا يمثّل مقطعاً كبيراً من قصته وذلك من بدء اختياره للرسالة، ولقائه فرعون، وما كان بينه وبين السحرة، ثم خروجه مع بني إسرائيل وغرق فرعون.. ثم ما وقع لبني إسرائيل من فتنتهم وعبادتهم العجل وما جرى بين موسى وأخيه هارون، ثم ما جرى بين موسى والسامري الذي صنع العجل ودعا القوم إلى عبادته. أما ذكر ميلاد موسى وإلقائه في اليم وعودته إلى أمه فقد جاء في أثناء القصة تذكيراً لموسى بنعمة الله عليه ورعايته له، تلك الرعاية التي نجا بها من فرعون

حين أوحى اللّٰه إلى أم موسى أن تلقيه في اليم، فساقه اليمّ إلى يد فرعون الذي كان يطلب قتله فحفظه وربّاه واتخذه ولداً.

ويمكن تقسيم القصة لعدة مشاهد:

1 - اصطفاء موسي عليه السلام للرسالة : (9-16):

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ
ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ
يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢ وَأَنَا
ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ
لِذِكۡرِيٓ ١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ
١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ١٦﴾

تبدأ القصة بمشهد رجوع موسى عليه السلام من مدين إلى وطنه مصر، ورؤيته النار بجانب الطور والذهاب إليها اقتباساً من نورها، وتدفئةً من برد الشتاء، ثم خبر نداء اللّٰه تعالى له، وما تضمن ذلك النداء من تكليف موسى بالرسالة وبيان الأصول العامة لهذه الرسالة.

2 - موسي عليه السلام والعناية الربانية: (17 - 41):

﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا
وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩
فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ٢٠ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا
ٱلۡأُولَىٰ ٢١ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢
لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ٢٣ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ
لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨

وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾

وقبل أن تبدأ رحلة موسى لمواجهة فرعون تكون له وقفة بين يدى ربّه، يهيؤه فيها لهذا اللقاء المثير المخيف، ويؤانسه بالمعجزات الباهرة التي سيواجه بها فرعون، كما استجاب الله تعالى دعاء موسى عليه السلام بأربعة أمور تمثل وسائل الدعوة وهي:

(شرح الصدر – تيسير الأمر – حل عقدة اللسان – اختيار الوزير)، ثم ذكره سبحانه بسوابق فضله وإحسانه عليه، وأن موسى عليه السلام كان في جميع مراحل حياته وتقلباته، موضع عنايته سبحانه، أحاطه بخفي ألطافه، وحفه بكريم إحسانه منذ بداية حياته وبواكير نشأته.

⏮ – موسي عليه السلام ومواجهة فرعون: الآيات (42 – 79):

ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾

قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾
قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن
نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞
مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا
كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾
فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ
مَكَانٗا سُوٗى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ
فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى
ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم
بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ
أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ
صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ
أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا
تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾
وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ
﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ
ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ
خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ
لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا
تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ
مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ
فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ
ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

وقد أشارت الآيات إلى أسلوبين في الدعوة:

1 – أسلوب الجدل العلمي:

وقد عرض موسى عليه السلام ما عنده من الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة (قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ)، وزاوج في دعوته بين الترغيب والترهيب بذكر عاقبة المهتدين وذكر عاقبة المكذبين المعرضين عن طريق الهدى.

2 – الأسلوب العملي الميداني:

لم يقتصر موسى عليه السلام على بيان الحجة القاطعة والبراهين الساطعة لفرعون وملئه، وإنما كان مستعداً للقاء المرتقب الذي طلبه فرعون ظاناً أنه سيغلب موسى أمام الملأ من قومه.

ثم جاءت اللحظة الحاسمة التي شهد فيها فرعون تلك الهزيمة المنكرة التي حشد لها كل كيده من السحرة، ولا يجد فرعون ما يحفظ به ماء وجهه، ويعيد له هيبته إلّا تهديد السّحرة بالموت على أبشع صورة وأشنعها، ولكن السحرة يستقبلون هذا التهديد برباطة جأش ويقين حاسم: (قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73)).

وتختم آيات هذا المقطع بهلاك فرعون وجنوده، ونجاة موسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين.

- موسى عليه السلام وبنو إسرائيل: الآيات (80 - 98):

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا
عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ (٨٠) كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ
عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ
وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ (٨٢) ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ
(٨٣) قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا
قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ
أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ
أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي (٨٦) قَالُواْ مَآ
أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ
أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ
وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا
وَلَا نَفۡعٗا (٨٩) وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ
ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي (٩٠) قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا
مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ
أَمۡرِي (٩٣) قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ
بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ (٩٥)
قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ
فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي (٩٦) قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ
فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ
ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا (٩٧)
إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا (٩٨) ﴾

تنتقل الآيات للحديث عن قصة موسى مع (بني إسرائيل) وعجيب صنيعهم وسفاهة عقولهم . بمجرد ما حررهم موسى عليه السلام من قبضة فرعون وملئه، انقلبوا حرباً على الله ورسوله، وأقبلوا على عبادة عجلٍ من ذهب، مشاركين في ذلك عبدة الأوثان، وأصبحوا الشغل الشاغل لموسى وأخيه هارون، ومصدر المتاعب والمتناقضات في كل ما يأتون وما يذرون.

وكان موسى عليه السلام قد فارق قومه على عجل، قاصداً «جانب الطور الأيمن»، مستخلفاً عليهم أثناء غيبته أخاه هارون، إذ بعد ما حقق الله على يده لقومه نعمة النجاة والتحرير، رأى من واجبه أن يبادر لتلبية النداء الإلهي حتى يتلقى من ربه التعاليم التي تضمن لقومه حسن التدبير والتسيير.

وحاول بنو إسرائيل جاهدين أن يبرروا موقفهم ويفسروا انحرافهم، زاعمين أن الوعد الذي قطعوه لموسى عليه السلام بالثبات على طاعة الله وعبادته إلى أن يرجع من «الطور» لم يخلفوه اختياراً، وإنما أخلفوه اضطراراً، بدعوى أن الإنسان إذا وقع في الفتنة لم يعد يملك نفسه!.

ويتجه موسى وهو في ثورة الغضب والأسى من هول ما رآه إلى أخيه هارون باللوم والعتاب، وبعدما تأكد موسى عليه السلام من سلامة الموقف الذي اتخذه أخوه هارون، واقتنع بما قام به من محاولاتٍ لرد بني إسرائيل إلى جادة الصواب دون جدوى، التفت إلى (السامري) الذي أضلهم وأغراهم بعبادة العجل في غيبته، مستفسراً إياه في البداية، ومعاقباً له في النهاية.

أما موقف موسى عليه السلام من العجل الذهبي الذي صنعه السامري فقد قام بإحراقه ونسف رماده في البحر إلى غير رجعة.

- تذكير وتحذير: الآيات (99 – 114):

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ﴿٩٩﴾ مَّنۡ
أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
حِمۡلٗا ﴿١٠١﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ
بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن
لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا
قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴿١٠٧﴾ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ
لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ﴿١٠٨﴾ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ
ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴿١٠٩﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ
وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ
ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴿١١٢﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ
ذِكۡرٗا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ
إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾﴾

بعد انتهاء قصة موسى عليه السلام عادت الآيات إلى التنويه بالذكر الحكيم، وجددت الدعوة إلى الإقبال عليه واتِّباع هديه القويم، وبينت ما يؤدي إليه ترك العمل به من الأوزار والآثام، وما يتعرض له المعرضون عنه من العقوبات الجسام يوم القيامة الذي تنخلع لأهواله القلوب وتخشع النفوس ويرتجف لها الكون . (الآيات 99 – 112).

وكما أنزل الله (آيات الوعيد) من أهوال يوم القيامة، أنزل (القرآن كله) بلغة عربية مبينة ليفهمه العرب ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز الدال على كونه خارجاً عن طوق البشر، ثم أبان تعالى نفع هذا القرآن للناس بالتحصن بالتقوى والاتعاظ والاعتبار بهلاك الأمم المتقدمة، ثم لفت نظر رسوله ﷺ إلى

ما ينبغي أن يكون عليه من التأني والتثبت عند تلقي القرآن واستذكار مبانيه، وما ينبغي أن يتطلع إليه من مزيد العلم والفهم لاستيعاب معانيه. (الآيات 113–114).

– أدم عليه السلام بين الهداية والغواية: الآيات (115 – 127):

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا
لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ
إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا
تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ
إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾
فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ
ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾
قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى
هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى
فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ
حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ
تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ
وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾

مناسبة قصة أدم لقصة موسى عليه السلام :

كان القسم الأكبر من هذه السورة في بيان) قصّة موسى عليه السلام مع فرعون، وبني إسرائيل)، ثم جاءت هذه الآيات تتحدّث عن (قصّة آدم وحواء)، وعداء ومحاربة إبليس لهما.. وربّما كان في ذلك إشارة إلى أنَّ الصراع بين الحقّ والباطل لا ينحصر بأمس واليوم، وموسى عليه السلام وفرعون، بل كان منذ بداية خلق آدم وسيستمر كذلك إلى قيام الساعة.

وقد بدا لي -والله أعلم- أن ذكر (قصة آدم عليه السلام مع إبليس) في ختام سورة طه - والتي كان الحديث فيه عن قصة (موسى عليه السلام) مع نموذجين من أرباب الضلال والاستكبار: (فرعون - السامري)- فيه إشارة إلى من أخطر أسلحة الشيطان في الإغواء والإغراء:(سلاح التزيين والدعاية المضللة وتهييج الغرائز وإثارة الشبهات)، وهذا هو أس البلاء وأصل الشقاء، وقانون أهل الباطل في محاربة الحق عبر كل العصور .

- ✓ فهذا هو مكر إبليس لإيقاع آدم في مصيدة المعصية يتم عبر التزيين والخداع: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى﴾.
- ✓ وفرعون استخدم نفس السلاح في مواجهة دعوة الحق: ﴿قالَ أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى﴾.
- ✓ والسامري استخدم السلاح ذاته في تضليل بني إسرائيل والتلبيس عليهم مع استعدادهم للوقوع في تلك الفتنة العمياء: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ﴾.

وقد ذكرت د. سمر الأرناؤوط مناسبةً أخرى لطيفة:

(والقصة تذكير بالقانون الأول، حين أهبط آدم وحواء إلى الأرض: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. (سورة البقرة)، وفي قصة موسى نموذج السحرة الذين اتبعوا الهدى، ونموذج فرعون وملئه الذين كفروا وكذّبوا، وهذا القانون سارٍ إلى يوم الدين).

مناسبة قصة أدم لما قبلها من الآيات:

بعد أن ذكر سبحانه أنه صرّف الوعيد في القرآن وكرره لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا؛ أتبع ذلك ببيان أنهم لم يلتفتوا إلى ذلك ونسوه، كما لم يلتفت أبوهم آدم إلى الوعيد ونسي العهد، ثم فصل عهده لآدم وبين كيف نسيه وفقد

العزم، ثم ذكر عصيان إبليس للسجود لآدم وتحذيره من الخروج من الجنة إذا هو اتبع نصائحه، وهو بعد كل هذا قد أطاع وساوسه وقبل إرشاده، فأكل من الشجرة التي نهى عن الأكل منها فأخرج من الجنة، ثم بين سنة الله في الهداية والضلال وعاقبة المهتدين والضالين يوم القيامة.

– إنذار المكابرين: الآيات (128 – 135):

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى
﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ
وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ
مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ
﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ
لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ
ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ
إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ
مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

بعد أن بينت الآيات السابقة عاقبة الضالين (يوم القيامة)، أتبعت ذلك ببيان عاقبة أسلافهم في (الدنيا)، فإذا كانت القيامة غيباً لا تدركه الأبصار، فهذه مشاهد من واقع الهالكين ماثلةٌ أمام الناظرين، المساكن خاوية لم تُسكن من بعدهم إلا قليلاً، فما هؤلاء القوم لا يهتدون (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى)، ولولا أن الله وعدهم ألا يستأصلهم بعذاب الدنيا لحكمة عليا لَحَلَّ بهم ما حل بالقرون الأولى، ولكنها كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى أمهلهم إليه،)وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى).

وإذا كانوا مؤخرين إلى أجل ممهلين رويداً فلا عليك- يا محمد ﷺ- منهم ولا مما أوتوه من زينة الحياة الدنيا وزهرتها، ولا تلتفت إلى أقاويلهم الباطلة، وادعائهم أن القرآن ليس بحجةٍ ولا معجزة تدل على نبوتك، واستعن في مواجهتهم بالصبر على المكاره، والتسبيح آناء الليل وأطراف النهار، والتمسك بالقناعة والرضا والمداومة على الصلاة. (الآيات 131- 134).

وتختم السورة بإنذار الكفار بسوء العاقبة لإصرارهم على الاستكبار والعناد، ويأمر رسوله ﷺ بانتظار عاقبة المجرمين: (قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى). (الآية 135).

وبهذه الآية تختم السورة الكريمة لتنهي موقفاً من مواقف الدعوة بين النبيّ ﷺ والمشركين.

إنهم قد أُبلغوا رسالة ربّهم وقد صرّفت لهم الآيات وضربت لهم الأمثال وأقيمت الحجج والبراهين، وهاهم أولاء على مفترق الطرق .. إما أن يؤمنوا باللّه ويستجيبوا لرسول الله فتسلم لهم دنياهم وآخرتهم جميعاً، وإما أن يصدّوا عن سبيل اللّه ويأخذوا طريقهم مع أهوائهم وشياطينهم فيخسروا الدنيا والآخرة معاً (وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ). (الرعد 42).

سورة الأنبياء

موضوع السورة [1] :

تستهدف هذه السورة علاج داء (الغفلة والإعراض) المتمكن من عقول وقلوب المشركين من خلال عدة محاور:

1 - بيان زيف معتقدات المشركين القائم على التمسك بآلهتهم المزيفة والاعتزاز بها والدفاع عنها ضد من يستهزىء بها.

2 - إقامة (الدلائل الكونية) الناطقة بوحدانية الله، والدالة على قدرته وحكمته.

3 - عرض (الشواهد التاريخية) من خلال التذكير بدعوة الرسل إلى أقوامهم، والتذكير بهلاك القرى الظالمة. وقد جاء ذكر بعض الأنبياء ورسالاتهم وثناء على إخلاصهم وعناية الله بهم في معرض التذكير والتثبيت والتطمين والبشرى للمؤمنين.

4 - إظهار (خوارق العادات) من خلال قصص الأنبياء والتي تدل على القدرة المطلقة والمشيئة النافذة، في مقابل عجز وضعف الآلهة المزيفة، ومن أبرز هذه الخوارق: (إبطال خاصية الإحراق للنار في قصة إبراهيم عليه السلام - تسخير الجبال والحديد والطير لداود عليه السلام - تسخير الريح والشياطين لسليمان عليه السلام - نجاة يونس عليه السلام في بطن الحوت - استجابة دعاء زكريا عليه السلام بطلب الولد رغم عقم زوجته).

5 - الإنذار باقتراب الحساب تارةً وبنذر الوحي تارة أخرى، وهذا يستهدف اقتلاع جذور الغفلة التي عششت في قلوبهم وحرمتهم من إبصار أنوار الهدى.

---

(1) مستفاد من كتاب (مع الأنبياء في سورتهم) - د. عبد الجواد خلف

مناسبتها لما قبلها:

لما أمر الله عز وجل رسوله في ختام (سورة طه) بأن يبسط للمكذبين الإملاء، والتربص، والإمهال بقوله: « قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى». ناسب أن يقول- في أول (سورة الأنبياء)- أن هذا التربص لن يطول به الأمد، ولكنه يومٌ قريب الحساب وإن كانوا في غفلة وذهول عنه «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ»، وفصّل في أصحاب الصراط السويّ من الأنبياء المذكورين في السورة.

وأضافت د. سمر الأرناؤوط مناسبةً أخرى:

في (سورة طه) قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ وجاءت (سورة الأنبياء) فيها القصص وفيها الذكر ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.. ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

مقاطع السورة:

- اقترب للناس حسابهم: الآيات (1 – 10):

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن
ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ
وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ
ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ
شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ
ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا
ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾

بدأت السورة بتحذير هؤلاء الغافلين الذين تطرق أسماعهم دعوات متتابعة تجيئهم من كل جانب، ومع هذا فهم مقيمون على ما هم عليه من (غفلةٍ ولهو) أدت إلى حيرة وتناقض في وصفهم للقرآن العظيم، بل وفي اقتراحاتهم العجيبة بطلب (الآيات المادية الخارقة) التي تدل على التعنت والعناد، مع أنهم لو جاءتهم آية كتلك الآيات التي طلبوها لن يؤمنوا ولن ينجوا من هذا المصير الذي صار إليه المكذبون قبلهم .. أفليس من الضلال إذن أن يستعجلوا ما فيه هلاكهم ويعرضوا عن كتاب ربهم مصدر عزهم وشرفهم وفيه عظة لهم لو كانوا يعقلون ما فيه من مواعظ وزواجر؟!.

- إنذار الظالمين: الآيات (11 - 18):

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ
﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ
أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾
فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا
ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن
لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ
زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

تواصل الآيات حملتها الشديدة بإنذار الكفار ببيان (سنة الله في إهلاك المسرفين) الذين أشير إليهم في الآية السابقة (9)، مؤكدا أنه إذا حان مصرع

الظالمين لم يفلتوا مهما حاولوا أن يفروا من العذاب، ولم ينفعهم الندم ولا العتاب. (الآيات 11–15).

ثم بينت الآيات (16–18) أن هذا الهلاك يأتي وفق (سنة الله في خلق الكون بالحق)، والتأكيد على أن الناس لم يُخلقوا عبثاً وإنما خلقوا لعبادة الله عز وجل وإقامة الحق والعدل، ثم يردّوا إلى الله ليحاسبوا على ما عملوا وليلقى المحسن منهم جزاء إحسانه والمسيء جزاء إساءته.

(وفي هذه الآيات إشارةٌ هامة إلى أن الله الذي طبع (الطبيعة) هو الذي شرع (الشريعة)، وكما أن نواميس الطبيعة التي أبدعها تضبط (سير الأكوان)، فإن قوانين الشريعة التي أنزلها تضبط (سلوك الإنسان)، فما على الإنسان إلا أن يتحمل مسؤوليته كاملةً ويطبق على سلوكه قوانين الشريعة، كما تطبق كافة الأكوان على سيرها نواميس الطبيعة)[1].

– حجج وبراهين عقلية ونقلية : الآيات (19 – 29):

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا
يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ
ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا
يَصِفُونَ ٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ
قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم
مُّعۡرِضُونَ ٢٤ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱعۡبُدُونِ ٢٥ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا
يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ
وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ
إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾

(1) التيسير في أحاديث التفسير ج 4 / 113–114

بعد أن بينت الآيات السابقة (سنة الله في زوال الباطل وإزهاقه)، جاءت هذه الآيات (تسفيهاً لعقول هؤلاء المشركين المصرين على اتِّباع الباطل) الذين اتخذوا من البشر آلهة أو من الأحجار أصناماً ينحتونها ويعبدونها، وساقت لهم من البراهين العقلية والنقلية ما يدعوهم إلى الإيمان بالله ووحدانيته، والاعتراف بقدرته وحكمته، والدعوة إلى عبادته وطاعته، وبذلك لم يبق لهم دليل عقلي أو نقلي يسوغ لهم إصرارهم على الشرك.

- آيات كونية تنطق بالوحدانية: الآيات (30 - 35):

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

لما كشفت الآيات السابقة عن تصورات المشركين المريضة لجلال الألوهية وكمالها، جاءت هذه الآيات تلفت هؤلاء الضالين إلى ما هم فيه من ضلال وشرود عن الله الواحد المتفرد بالألوهية والملك والسلطان.. ودعتهم إلى (النظر في آيات الله في الكون)- وفيها من مظاهر عنايته بالإنسان، ورعايته له في كل آنٍ- علها تزيل عن عقولهم حجاب الجهل والضلال وتنزع غطاء العناد والاستكبار. (الآيات 30-33).

ثم انتقلت الآيات من الآيات (الكونية) إلى آية (الموت والحياة) المقدر على جميع الأحياء، فلقد قهر الله جل وعلا بالموت كل المخلوقات، وفي هذا دلالة على كماله سبحانه ووحدانيته، وضعف المخلوقات ومحدوديتها. وأكد أن الموت

ليس هو النهاية، والحياة الدنيا بما فيها من خيرٍ وشر اختبارٌ وابتلاء، تظهر نتائجه بعد الموت. (الآيات 34-35).

- من مواقف المشركين مع النبي ﷺ: الآيات (36 - 47):

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي
يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٦ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ
مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن
كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ
ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٣٩ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا
يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٤٠ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ
بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٤١ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ
مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ٤٢ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم
مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ٤٣ بَلۡ مَتَّعۡنَا
هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا
مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤ قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ
ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ٤٥ وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ
إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٤٦ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ
وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾

بعد أن ختمت الآيات السابقة ببيان سنة الله في (الابتلاء بالخير والشر)، بينت الآيات التالية فشل الكفار في (اختبار الإيمان) من خلال عرض مواقفهم من الرسول ﷺ، والتي اتسمت بالسخرية من دعوته واستعجال العذاب الذي توعدهم به، وصورت الآيات (39-40) ما ينتظرهم يوم القيامة من الأهوال والمفاجآت، مما ستذهب نفوسهم عليه حسرات، ثم وصفت ما يكون

عليه الطغاة الظالمون، الغافلون عن مجرى سنن الله في الأرض، وأنه قد يمهل الظالمين، حتى إذا ما حان مصرعهم لم يفلتهم، وأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر.

ثم بينت أن الإنسان مهما ملك من جاهٍ وقوة وسلطان هو كائن عاجز ضعيف محتاج إلى قوة عليا ترعاه وتمدّه بأسباب الحياة والبقاء. (الآيات 42-44).

ثم أمرت الآيات النبي ﷺ بإنذار المعاندين سوء العاقبة، داعياً إياهم إلى أن يسمعوا ويعوا، حتى يهتدوا وينتفعوا، (قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ)، مذكِّراً إياهم بما يصيب الظالمين الذين كانوا يستعجلون العذاب، من هلع وجزع، بمجرد ما يتعرضون لشيءٍ يسير من عذاب الله، (وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ). وذلك حتى تتأثر قلوبهم القاسية وتتبدل طباعهم الجافية الغليظة. (الآيات 45-47).

- أنبياء الله .. منارات هداية: الآيات (48 - 91):

لما ذكرت الآيات السابقة (معاناة النبي) ﷺ مع المشركين، ومقابلتهم لما يحمله لهم من هدى ورحمة بالاستهزاء والسخرية.. جاءت الآيات التالية تحكي له (معاناة ستة عشر نبياً) تحمَّلوا جميعاً ألواناً شتى من مثل ما تحمَّله هو من الآلام والمعاناة، التي اختلفت طبيعتها باختلاف كل نبي مع قومه.

وبديهي أن حكمة الله في ذكرهم وذكر أحوالهم هي ضرب المثل بهم لرسوله والمؤمنين، ففي حياتهم وجهادهم عبرة لمن اعتبر، وفي سيرتهم وسلوكهم نموذج مثالي لأفضل السير.

✓ وبدأت بذكر النبيين الكريمين (موسى وهارون عليهما السلام)، واقتصرت على التوراة وصفاتها التي تجمعها بالقرآن إبرازاً لوحدة الرسالتين فيهما:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

✓ ثـم عرضت نموذجـاً ثانياً من نماذج النبيين الراسـخين، ذوو قـدم ثابت في الإيـمان، وقـدرة فائقـة على الصبر والشـجاعة والثبـات، ومقارعة الخصـومٍ بالحجة والبرهـان، في شـموخ واعتـزاز، لا يرهبه ملـك، ولا يُرعبه تنكيـل ولا تعذيب..

إنـه (إبراهيـم ﷺ) إمـام الموحديـن الـذي ارتبـط اسـمه في جميـع الأديـان الكتابيـة بمكافحـة الوثنيـة، ومجابهة الـشرك، وإعـلان التوحيد ونشره بـين الناس. وبعـد أن نجّـى إبراهيـم مـن قومـه، أكرمـه الله تعـالى فوهب لـه إسـحق، ثم وهب لإسـحق يعقـوب وبـارك نسـله وكثّره.

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ
وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ
٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ
مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٦ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧ فَجَعَلَهُمۡ
جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ٥٨ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ
لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٩ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ٦٠ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ
أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ٦٢
قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣ فَرَجَعُوٓاْ
إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ
مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ
شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧
قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا
عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا
إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا
جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ
ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣ ﴾

✓ ولما كان (لوط عليه السلام) هو الذي استجاب لإبراهيم من قومه واتّبعه وآمن به، فقد كان من فضل الله سبحانه وتعالى عليه أن اصطفاه للنبوة وآتاه حكماً وعلماً، إذ كان هو النبتة الصالحة من بين هذا النبت الخبيث كله.

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

✓ ثم ذكر (نوح عليه السلام) الذي ظل يدعو قومه إلى التوحيد ألف سنة إلا خمسين عاماً، دون كللٍ ولا ملل، وهو في أثناء ذلك يتحمل جفوتهم وخشونتهم ووقاحتهم وسوء أدبهم، فنجاه الله ومن آمن معه وأغرق المكذبين.

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

✓ ثم ذكر قصة (داوود وسليمان عليهما السلام)، وفيها الابتلاء بالنعم والرفاهية، وبيَّن سبحانه أفضاله عليهم وكرمه بهم.

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

✓ ثم ذكر قصة (أيوب عليه السلام)، وهي قصة فريدة من نوعها لأنها لا تحكي قصة صراع نبي مع قومه، وإنما تحكي قصة ابتلاء نبي بالضراء في نفسه وماله وولده، وفيها إشارة إلى أن أنبياء الله وأصفياءه إذا ابتُلوا في شيءٍ من أنفسهم أو أموالهم ضرعوا إلى الله وبسطوا إليه أكفهم وولّوا إليه وجوههم وطرقوا أبواب رحمته بالدعاء والرجاء.. وأن الله تعالى يتقبل من عباده المخلصين ما يدعونه به فلا يقطع أمداد رحمته عنهم ولا يخيّب رجاءهم فيه.

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

✓ ثم بعد أن ذكر سبحانه صبر أيوب عليه السلام ودعاءه ربه وانقطاعه إليه حتى كشف عنه الضر – قفّى على ذلك بذكر هؤلاء الأنبياء (إسماعيل – إدريس – ذا الكفل) الذين صبروا على ما أصابهم من المحن والشدائد.

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

✓ ثم ذكر الله عز وجل نبيه (يونس عليه السلام) الذي ضاق ذرعاً بقومه بعد أن لم تفلح دعوته فيهم، ففارقهم مغاضباً لهم، ثم ندم على مفارقتهم ورجع إليهم امتثالاً لأمر الله، بعدما تابوا إلى الله ورفع عنهم العذاب.

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

والحكمة في ذكر يونس عليه السلام هي -والله أعلم- حث النبي ﷺ إلى أن يعتصم بالصبر في دعوته، ولا يضيق ذرعاً بجحود قومه وعنادهم، ولذلك خاطبه الحق سبحانه وتعالى بقوله: (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ). [القلم 48، 49].

✓ ثم الحديث عن (زكريا عليه السلام) وابتلائه بعدم الإنجاب، وتضرعه إلى ربه طلباً للولد، واستجابة الله له.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

✓ وختمت بالحديث عن (مريم وابنها عيسى عليه السلام)، وشهادة الله عز وجل لها بالعفة والطهر.

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

- وحدة الملة وعدل الجزاء: الآيات (92 - 106):

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾

وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا
قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمۡ وَمَا
تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾
لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمۡ
فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا
ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا
ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوۡمَ نَطۡوِي
ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا
عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ
أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ
عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى أولئك (المصطفين من رسله وأنبيائه)،، بينت الآيات التالية الهدف الأساسي من إرسال الرسل، وهو توجيه الخلق إلى عبادة الحق، وأنهم جميعاً في ذلك على دينٍ واحد، ودعوةٍ واحدة، وملة واحدة. ومع ذلك اختلف الناس، ووقع أكثرهم في الشرك، وانحرفوا عن الصراط السوي. (الآيات 93-94).

ثم قررت الآيات (94 -103) مسئوليتهم عما أحدثوه من تقطيع في دينهم عندما يرجعون إلى الله يوم القيامة، فمنهم مؤمنٌ لا كفران لسعيهٍ وعمله، ومنهم هالكٌ يرى العذاب فيتمنى العودة إلى الدنيا ليعمل صالحاً، ولكن هيهات هيهات !.

ثم تنتقل الآيات من الحديث عن وراثة المؤمنين (الجنة) إلى سنة الله في وراثة (الأرض) لعباد الله الصالحين. (الآيات 105- 106).

- رحمة للعالمين: الآيات (107 – 112):

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ
إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ
ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩ إِنَّهُۥ
يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ
فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ
مَا تَصِفُونَ ١١٢ ﴾

بعد الجولات السابقة المتنوعة مع المشركين طوال السورة الكريمة والتي ختمت بما ينتظرهم في الآخرة من (عذاب شديد)، جاءت الآيات التالية لتدعوهم مرةً أخرى إلى التماس (رحمة الله وهدايته) على يد خاتم رسله ﷺ مؤكداً لهم -على لسان رسوله- أنه قد بلغهم عن الله كل شيء، لم يكتمهم شيئاً، فليبادروا إلى الإيمان قبل أن ينفد الوقت وتضيع الفرصة، ﴿ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ﴾.

وخُتِم هذا المقطع بالالتجاء إلى الله والاحتكام إليه، حتى ينصر عبده، ويظهر دينه ولو كره المشركون « قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ». وهكذا ينهي النبي ﷺ موقفه مع قومه مع الضالين والمعاندين بأن يتركهم لحكم الله فيهم وقضائه بينه وبينهم، وهو حكم عدل وقضاء حق. (الآيات 110-112).

سورة الحجّ

موضوع السورة:

(إذا تأملنا الموضوعات التي ركزت عليها آيات النداء للناس في السورة وجدناها تدور حول تقوى الله تعالى، وهي أعظم ثمار الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر، وبيان قدرته سبحانه على بعث الناس من قبورهم، وتفرده سبحانه بالخلق، مع الكشف عن عجز الآلهة المزعومة وبيان ضعفها، والتصديق برسالة النبي ﷺ مع الإذعان والقبول.

ومن خلال عرض هذه الموضوعات الكبيرة ذكرت الآيات الكريمة الحج إلى بيت الله الحرام، وحثّت على تعظيم شعائره ومناسكه. ثم شرعت الجهاد، وبينت الحكمة من مشروعيته.

فكأن السورة الكريمة بمعالجتها لهذه الموضوعات ترسم الطريق المؤدي إلى بناء المجتمع الإسلامي، وظهور الأمة المسلمة، الأمة التي يجمعها الإيمان بالله تعالى الواحد الأحد، والتصديق برسالة الإسلام، ويمثل وحدتها وقوتها الحج بمشاعره ومناسكه، ويحمي كيانها ويصون حرماتها الجهاد في سبيل الله تعالى، ولهذا ابتدأت السورة بنداء الناس عامةً لتناقشهم في قضية الساعة وأحداثها وأحوالهم فيها، والأدلة العقلية على صحة وقوعها وبعثهم وحسابهم، وانتهت بنداء المؤمنين خاصة، يحدد لهم تكاليف المنهج الإلهي وسماته وعلاماته) [1].

والسورة كلها تدعو إلى تعظيم الله عز وجل المفضي إلى تقواه.

(1) التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم ج 5/ 415-416 بتصرف – الشيخ عبد الحميد طهماز

مناسبتها لما قبلها:

جاءت خاتمة (سورة الأنبياء) لتتحدث عن النبي ﷺ وأنه المبعوث رحمةً للعالمين، وأنه لا يحمل الناس حملاً على الهدى الذي بين يديه، فمن تولّى، فما على النبي ﷺ من أمره شيء.. (والموعد الآخرة) حيث يفصل الله بين العباد. وقد جاءت (سورة الحج) فبدأت بهذا النذير الصارخ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾ وسورة (الأنبياء) افتتحت بالتحذير من الغفلة وعاقبتها، وسورة (الحج) ترفع مستوى التحذير إلى التخويف من أهوال يوم القيامة والدعوة إلى تقوى الله عز وجل لعل القلوب تنزجر فتخشع وتخضع.

مقاطع السورة:

⏮ – إنذار وتذكير: الآيات (1 – 7):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾

بـدأت السـورة الكريمة بإعلانِ مـدو منذرة النـاس بأهوال يـوم القيامة، مبينة أحداثـه المروعة وأهواله العظيمـة. (الآيات 1–2).

ومـع هـذه الأهـوال العظيمـة والأحـداث المزلزلـة التـي تلقـى النـاس يـوم القيامـة، فـإن كثيراً مـن الناس لاهون عنهـا، مسـتخفّون بها، يأخـذون كل حديث عنهـا مأخـذ السـخرية والعبـث بهـذا (الجـدل العقيـم) الذي يسـلم المرء فيـه عقله هـواه فيرمـى بالكلام عـلى أي وجـه .(الآيـات 3–4).

لـذا جـاءت الآيـات التاليـة (5–8) لتقطـع ألسـنة المجادلين المبطلـين، وتبطل شـبهاتهم، مـن خـلال ذكـر (دلائـل القـدرة الإلهيـة) في خلـق الإنسـان وتنقله بين أطـوار مختلفـة. ودليـل إحيـاء الأرض بعـد موتهـا. وعقبـت الآيـات عـلى الدليـل الأول المسـتمد مـن (حياة الإنسـان)، والدليـل الثاني المسـتمد من (حيـاة النبات)، بالنتيجـة الحتميـة والمعقولـة، التـي يجب أن ينتهـي إليهـا كل مـن أنصـف وتـرك الجـدال، (ذَلِـكَ بِـأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَـقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَـلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّـاعَةَ آتِيَـةٌ لَا رَيْـبَ فِيهَـا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَـثُ مَـنْ فِي الْقُبُورِ).

- أحوال الناس واختلافهم في الله: الآيات (8 – 24):

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ
عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ
ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ
وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن
دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾
يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ

فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ
يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ
يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ
وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن
يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ
ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ
رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ
مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟
عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ
وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟
إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ۞

رغم كل هذه (الأدلة الساطعة) التي عرضتها الآيات السابقة تأبى نفوس هؤلاء (المجادلين والمعاندين) إلا الاستمرار في الجدل، لذا تكشف الآيات التالية (8–10) عن بعض الجوانب النفسية الباطنة، وبعض الأمارات الجسدية الظاهرة لهؤلاء، وتبين جزاءه في آخرته.

ثم وصفت الآيات (11–13) نوعاً ثالثاً من (المذبذبين والانتهازيين) الذين يعبدون الله على حرف، ويرون الإيمان صفقةً تجارية مادية، فتتقلب بهم الأحوال في السراء والضراء، ولا يثبتون على حال.

وبعدما وصفت الآيات (أصناف المجادلين والمذبذبين)، واستنكرت مواقفهم، وتوعدتهم بالعذاب الأليم جزاءً وفاقاً، عقب على ذلك بذكر (أهل

الإيمان والعمل الصالح)، ووصفت ما أعده لهم من نعيم مقيم. (الآية 14).

ثم عرضت صورةً لهؤلاء الذين يعبدون الله على حرفٍ، وصورت يأسهم من نصر الله لأوليائه بسبب ما غشي قلوبهم من الظنون الفاسدة والشكوك الباطلة. (الآية 15).

وبينت أن المسلمين يستمدون يقينهم في نصر الله من خلال آيات القرآن البينات التي تقنع كل ذي عقل سليم، وتتجاوب مع كل فطرة سليمة، فمن جادل فيها فإنما يجادل عن جهلٍ أو عنادٍ أو نفاق، (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ). (الآية 16).

وأشارت الآية (17) إلى أن أمة التوحيد والإيمان التي تمسكت بعبادة الرحمن سيفصل الله بينها وبين من تقطعوا أمرهم بينهم، ففارقوا حظيرة التوحيد، (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).[1]

وفي الآية (18) تعريضٌ بالكافرين الذين لا يعطون ولاءهم خالصاً لله في حين أن الوجود كلّه قائم على هذا الولاء المطلق الخالص لله..

وبذلك انقسم الناس إلى فريقين: فريق المؤمنين الذي تجاوب مع الكون؛ فسجد لله في خضوع وخشوع، وطاعةٍ وعبادة، وفريق الضالين الذي رفضوا السجود لله، وعكفوا على عبادة الأصنام والأوثان.

ثم أتبع بذكر ما نشب بين الفريقين من خصومة، وبين مآل كلٍّ من الفريقين من الإهانة والكرامة، والعذاب والنعيم يوم القيامة. (الآيات 19-24).

(1) تفصيل أصناف الناس في السورة يتناسب مع عالمية رسالتها فقد افتتحت بنداء الناس ودعوتهم لتقوى الله وآيات الحج جاءت عالمية بلفظ الناس .

– من صور الصراع بين الحق والباطل: الآيات (25 – 37):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ
لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ
أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ
بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ
يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ
مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ
بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ
تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن
يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا
مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ
ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ
ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ
إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا
رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ
﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي
ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ
فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ
ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا
وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا
هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

انتقلت الآيات – بعد الحديث السابق عن (خصومة المؤمنين والكفار)، وعاقبة كل فريق – إلى الحديث عن صورةٍ مثيرة من صور (الصراع القائم بين

الكفر والإيمان)، فقد كان الشرك بمكة في فترةٍ من الدهر عاتياً طاغياً، فاستولى على مهد التوحيد وقاعدته الأولى في الحرم الشريف، واستبد بهما، حتى حرم من الكعبة ومقام إبراهيم وارث إبراهيم خاتم الأنبياء والمرسلين، وصده ومَن معه من المؤمنين، عن الوصول إلى بيت الله الحرام وأداء مناسكهم فيه، وكان ذلك عام الحديبية، وتوعدت الآيات كل من صد عن سبيله بالعذاب الأليم. (الآية 25).

ثم انتقل مجرى الحديث إلى التذكير (ببناء البيت) الذي رفع قواعده إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، والتذكير بالرسالة السامية التي أعد الله لها هذا البيت عبر القرون والأجيال.

وهذه الآية تتضمن –بطريق التعريض– توبيخ مشركي قريش على ما هم فيه من المفارقات والتناقضات، فبينما إبراهيم عليه السلام كان يحرص على تطهير البيت من كل رجس وخبث، إذا بمشركي قريش ينتهكون حرمة البيت الحرام، ويملؤونه بالأوثان والأصنام .(الآيات 26-27).

ثم دعت الآيات (28-37) إلى (تعظيم شعائر الله ومناسكه في الحج)، وهي دليل على إخلاص القلوب وتقواها. (والمتأمل في أفعال الحج يلحظ فيها كلها أنها تظاهرة كبرى اختار القدر زمانها ومكانها لدعم التوحيد وغرسه في القلوب، وجمع الناس في المشارق والمغارب على معانيه... إن المناسك التي شرحتها هذه الآيات توكيدٌ إنساني قوى لمعنى التوحيد، وحشدٌ للجماهير تحت رايته. وفى بناء الأمم صاحبة الرسالة لابد من اختلاط تاريخها بعبادتها، وذكرياتها بسيرتها، وعواطفها بفكرها (ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ(32)). [1]

(1) نحو تفسيرٍ موضوعي لسور القرآن الكريم ص 262-263 بتصرف – الشيخ محمد الغزالي

⏮ – حق المؤمنين في الدفاع عن دينهم: الآيات (38 – 41):

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾

انتقلت الآيات من الحديث عن (بيت الله الحرام وارتباطه بشعائر الحج) إلى الحديث عن (الجهاد في سبيل الله).. فما السر في ذلك؟.

(إن تعظيم شعائر الله تعالى يستدعي حمايتها والمحافظة على حرماتها من تهديدات أعداء الله الذين يصدون الناس عن دين الله، ويسعَوْن بكل ما أوتوا من قوةٍ ومكر لينتهكوا حرمة شعائر الله تعالى، فلا بد إذن من قوةٍ تقمعُهم، وتدفعُ شرهم وكيدهم، ولهذا شرع الله تعالى الجهاد. فقد أنهت آيات الجهاد في سورة الحج عصور الطير الأبابيل، وفتحت عهداً جديداً، عهد الأمة المسلمة المجاهدة التي تعرف كيف تصون حرمات دينها، وتبذل دماءَها وأرواحها للمحافظة على حرمة بيت الله الحرام رمز وحدتها وتوحيدها).[1]

وقبل أن يأذن الله للمؤمنين بقتال من ظلمهم، وتثبيتاً لهم على الحق، أوحى إلى رسوله ﷺ إنه سبحانه سيتولى الدفاع عنهم، وأنهم سيكونون في حمايته

(1) التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم ج 5/ 465 بتصرف

ورعايته، عندما يعدون العدة لمكافحة الباطل وتقليم أظفاره، ويهبون لنصرة الحق وتحرير أنصاره. (الآيات 38-40).

ثم بين لهم الغاية التي يجب أن يقصدها المؤمنون من جهادهم ودفاعهم، بمجرد تمكنهم في الأرض وانتصارهم، وهي جهاد النفس على العبادة ما بعد التمكين في الأرض (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ). (41).

- مواساة وتثبيت: الآيات (42 - 51):

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ
وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ
خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَٰرُ
وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ
وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن
قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ
إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

بعد الحديث عن وعد الله عز جل (بالتمكين للمؤمنين)، عرضت الآيات التالية صوراً من مما جرى للأنبياء والرسل السابقين من (العنت والتكذيب)، وحذرت مما أصاب أقوامهم من الهلاك والعذاب، تثبيتاً لرسوله على الحق، وإنذاراً للمصرين على الباطل. (الآيات 42-48).

وفي هذه الآيات مواساةٌ للنبي الكريم ﷺ لما يلقى من قومه من تكذيبٍ وسفه وتطاول، فتلك هي سبيل الأنبياء مع أقوامهم.

ثـم أبـان أن وظيفـة الرسـول ﷺ إنـما هـي الإنـذار والتحذيـر، وليـس عليهـم مـن حسـابهم مـن شيء. فـإن شـاء الله عجل لهـم العـذاب، وإن شـاء أخّـره عنهـم، وقـد وعـد المؤمنين الذيـن يعملـون الصالحـات بالمغفرة مـن الذنـوب ودخـول دار النعيـم، وأوعـد الذيـن يثبّطـون العزائـم عن قبـول دعوة الإسـلام بـدوام العذاب في نـار الجحيم. (الآيـات 49-51).

– صيانة الوحي من شبهات الشيطان، ونصر أولياء الرحمن: الآيات (52 – 66):

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ
ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (٥٢) لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي
ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ
بَعِيدٖ (٥٣) وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ
لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٥٤) وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ (٥٥) ٱلۡمُلۡكُ
يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٥٦)
وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ (٥٨) لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ (٥٩) ۞
ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ
غَفُورٞ (٦٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعُۢ بَصِيرٞ (٦١) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ
وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ (٦٢) أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ
ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ (٦٣) لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ
ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (٦٤) أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ
بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ (٦٥) وَهُوَ
ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ (٦٦)﴾

تواصل آيات هذا المقطع (تثبيت الرسول ﷺ والمؤمنين معه من خلال الكشف عما يعترض كلَّ دعوة لرسولٍ أو مُصلح من معارضة الأشرار ومقاومة الفجّار، وما يلقي الشيطان من شبهاتٍ باطلة ينخدع بها ضعاف الإيمان والمنافقين، ويزداد المؤمنين ثباتاً على الحق، وليزداد ﷺ علماً بطبائع البشر وسنن الاجتماع، ويتسلَّى بذلك عن معارضة المعارضين وعناد المعاندين. (الآيات 52–55).

وختمت بتأكيد وعيد الله للكافرين والمكذبين: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، ووعده للمؤمنين الصالحين: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، وخصت الآيات (المهاجرين) منهم بالذكر والثناء، جزاء ما بذلوا في سبيل الله وإعلاء كلمته من التضحية والفداء. ودعت المؤمنين إلى رد عدوان المعتدين، والوقوف في وجه الطغاة الظالمين، واثقين في نصر الله عز وجل . (الآيات 56–60).

ثم تنتقل الآيات (61–66) للحديث عن بعض (آيات الله في الكون).. فما السر في ذلك؟.

إن عرض مظاهر القدرة الإلهية في الأنفس والآفاق، الدالة على عظيم قدرته وبالغ حكمته –في هذا السياق الذي يتحدث عن وعد الله لأوليائه بالنصر– فيه إشارةٌ دقيقة تستهدف تطمين المؤمنين وهم يجاهدون أعداءهم، بأن الله تعالى يدبر أمر الكون كله بدقةٍ وإحكام، فمشيئته نافذة في (السنن الكونية) و(السنن الاجتماعية) على حدٍ سواء.

كما أن في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ إشارةٌ إلى ما تتعاقب عليه أحوال الدنيا من ضياءٍ وظلمة وليل ونهار، وكذلك الأيام يداولها الله بين الناس، فمن نصر إلى هزيمة، ومن هزيمة إلى نصر، ومهما طال ليل الظلم والطغيان، فإن فجر العدل والحق لا بد أن يمحو ظلمة الليل الطويلِ متى حان الأوان ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

وبعد أن ذكر هذه الأمور الدالة على القدرة البالغة، ذكر البعث والنشور، إيذاناً بأنه ليس بشيءٍ في جانب هذه القدرة العليَّة. (الآية 66).

- بطلان شريعة ومنهاج المشركين: الآيات (67 - 76):

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾

انتقلت الآيات من الحديث عن دلائل الهدى في (الكون) إلى دلائل الهدى في (الشريعة)، وفيها إشارةٌ لطيفة إلى أن الأمة التي تفتح قلوبها لدواعي الهدى ودلائله في الكون والنفس هي أمةٌ مهتدية إلى الله بالاهتداء إلى نواميسه المؤدية إلى معرفته وطاعته.

ثم بيَّن أنَّ لكلِّ أمةٍ مَنْسكاً هم ناسكوه ينتهي حكمُه بتجدُّد شريعة أخرى، وأمر نبيه ﷺ بمواصلة دعوته عن بينة واقتناع، تاركاً الفصل النهائي بينه وبين

المعاندين والمنكرين إلى يوم الفصل والجزاء، فهو سبحانه محيطٌ بما في السماوات والأرض، لذا فلا حجة ولا برهان لكل من يخالف دين الله تعالى، ويخرج على شريعته. (الآيات 67-71).

ثم وصفت الآيات ما يكون عليه حال المشركين عندما تتلى عليهم آيات الذكر الحكيم، التي تكشف باطل معتقداتهم، حتى أنهم لتعلو وجوههم علامات الاستنكار ومظاهر التهجم، ولتكاد أيديهم تمتد إلى المؤمنين بالبطش والسطو، لهول ما يقرع أسماعهم من إنذارٍ ووعيد، مع بيان ما ينتظرهم وأمثالهم من العذاب الشديد. (الآية 72).

وتستمر الآيات بعد ذلك تعلن للناس جميعاً عن (زيف الآلهة المدعاة ووهن الشرك وحقارته)، مبيناً أن الأصنام والأوثان التي يخر لها المشركون سجداً لا تستطيع أن تدفع عنها حتى أذى الذباب، فكيف تُعبد من دون الله، وهي على ما عليه من الضعف والعجز أمام الذباب الصغير الضعيف؟!.

فما أبعد الفرق بين الإله الحق صاحب القوة والجبروت الذي يصطفي رسله من الملائكة والبشر، وبين تلك الآلهة الضعيفة العاجزة!. (الآيات 73-76).

- استجابة المؤمنين وثباتهم: الآيتان (77 - 78):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

في ختام السورة تجيء هاتان الآيتان لتحدد للمسلمين (معالم المنهج الإسلامي)، ودعائمه الأساسية، التي بدونها لا ينتظم للمسلمين وجودٌ ولا بقاء، وهي:

1 – إعلان العبودية لله سبحانه والتحرر من كل سلطانٍ سواه.

2 – فعل الخير على إطلاقه وتقديمه لكل الناس على مختلف مشاربهم.

3 – الجهاد الدائم في سبيل الله لإعلاء كلمته ونشر دينه.

4 – التزام ملة التوحيد وهي ملة إبراهيم عليه السلام، وقيادة العالم بالحق إلى الحق.

5 – إعلان الولاء لله سبحانه من خلال إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

6 – الاعتصام بالله، وانتظار العون والتأييد والنصر منه وحده لا من أحدٍ سواه.

وبهاتين الآيتين الكريمتين تُختم السورة الكريمة.. وبهذا الختام يلتقي بدؤها مع ختامها، فقد بدأت السورة بنذيرٍ صارخ للناس جميعاً أن يأخذوا لأنفسهم من هذا اليوم العظيم وأن يعملوا على ما ينجيهم من أهواله المهولة المفزعة: «يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ». فكانت حصيلة هذه النّذر هؤلاء المؤمنين الذين دخلوا في دين الله وسعوا إلى مرضاته، فكان أن دعاهم الله سبحانه وتعالى إليه، وخصّهم بوصاياه ليثبتوا على الإيمان وليغرسوا في مغارسه.

سورة المؤمنون

موضوع السورة:

محـور الحديـث في هـذه السـورة يـدور عـلى (الإيـمان والمؤمنـين)، فقـد تناولـت فيهـا الآيات بالعـرض والتحليـل حقيقة الإيـمان، وتناولـت بالذكر والثنـاء الجميـل صفـات المؤمنـين، وتناولـت بالـشرح والتمثيـل دلائـل الإيـمان القاطعـة وحججه السـاطعة، وتناولـت بالإبطال والتزييف شـبهات المكذبـين، ومـا يتعرضـون له من الخـزي والتعنيف يـوم الديـن، وتخلل ذلك كلـه وصـف الدعوة الإيمانيـة التي حملها الرسـل الكـرام إلى البـشر جيلاً بعد جيـل، ومـا بذلـوه مـن تضحيـاتٍ في هـذا السـبيل، ومـا واجههـم بـه أعداء الرسـالات الإلهيـة مـن تكذيـب وتضليل.

مناسبتها لما قبلها:

يلتقـى بدء هذه السـورة مـع خاتمة (سـورة الحج) قبلهـا .. فقد ختمت سـورة الحـّج بهـذا الخطاب العـام للمؤمنـين الذين اصطفاهـم اللّه واجتباهـم، وقد تضمن هـذا الخطـاب دعوةٌ إلى إقامـة الصلاة وإيتاء الـزكاة والاعتصام باللّه .. وبدء سـورة : «المؤمنـون» بقولـه تعـالى: «قَدْ أَفْلَـحَ الْمُؤْمِنُـونَ الَّذِينَ هُـمْ فِي صَلاتِهِـمْ.. » إلى آخر الآيـات هـو اسـتقبال كريم لهؤلاء المؤمنـين الذين دعـوا إلى اَللّه واسـتجابوا لدعوته وآمنـوا بـه.. فهؤلاء المؤمنون قـد أفلحوا وفـازوا برضـوان اللّه، وكان هذا الخبر من معجّـل البشريات لهم في هـذه الدنيا.

مقاطع السورة:

– معالم (الإيمان): الآيات (1 – 11):

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ
(٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ
أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ
(٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩)
أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾

افتتحت الآيات العشرة الأوائل من هذه السورة ببيان ما يثمره الإيمان بالله واليوم الآخر في نفوس المؤمنين من جميل الخصال وكريم الصفات، وما يتحلون به في سلوكهم الخاص وسلوكهم العام من المزايا والمميزات: من خشوع في الصلاة، وإعراض عن اللغو، وأداء الزكاة، والعفة التامة في المخالطة الجنسيّة، وحفظ الأمانة والوفاء بالعهد، والمحافظة على الصلاة دون انقطاع.

– دلائل (الإيمان) في الأنفس والآفاق: الآيات (12 – 22):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ
(١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا
فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ
إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا
فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ
فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ
وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ
بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا
مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)﴾

بعـد أن ذكر سـبحانه أحوال (المؤمنـين المفلحين) أتبع ذلك بذكـر (دلائل الإيمان في النفـس والآفـاق) ومـا تتضمنـه من آيـات القدرة والإبـداع، وفي ذلك إشـارةٌ هامة إلى أن التفكـر في آيات الكون والأنفس هـي مفتاح الإيـمان وبوابة اليقين.

ففـي هـذه النظرة التـي ينظر بهـا الإنسـان إلى نفسـه وإلى أصل نشـأته وتطوره في الحيـاة وتنقلـه في الخلـق، يرى الإنسـان أن يـداً حكيمة قـادرة هي التـي أوجدته وأخرجتـه عـلى هـذه الصـورة التـي لا وجه للشـبه بينهـا وبين هـذا الـتراب الهامد الـذي ولـدت منـه.. فكيف لا يولي الإنسـان وجهـه إلى الذي فطره وصـوّره وأقامه خليفـة في هـذا العـالم الأرضي؟، وكيـف لا يدين لخالقـه ورازقه بالطاعـة والولاء؟ ، ثـم كيـف يعطى يديه ويسـلم زمامه لأحجـارٍ ينحتهـا أو لحيوانٍ يربيه أو لإنسـان هـو مخلـوقٌ مثلـه؟ ذلك ضـلال مبـين وانحـداراً سريـع إلى عالم الـتراب مـع الهوام والحشرات!.

والربـط بـين خلـق الإنسـان وخلـق الكـون مـن دلائـل التنسـيق الدقيـق بـين مخلوقـات الله في وظائفهـا، وفي اتجاهاتهـا، وكلهـا من أجل الإنسـان الـذي كرمه الله.

- **موكب (الإيمان) عبر التاريخ : الآيات (23 – 50):**

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا
تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ
عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنۡ
هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ
﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ
ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ
ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ
أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ
أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ﴿٣٠﴾

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ
إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ
وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ
مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا
مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ
هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا
قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا
يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم
بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ
هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا
عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟
مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ
مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

تنتقل الآيات من الحديث عن (دلائل الإيمان) التي تقود الإنسان لعبادة الله وحده وتقواه إلى الحديث عن (موكب الإيمان) المتمثل في دعوة الرسل لأقوامهم، وكيف استقبل هؤلاء القوم هذه الدعوة الكريمة باستعلاءٍ كاذب وسفاهة عمياء.

إن القاسم المشترك بين جميع الرسل كان دائماً هو الدعوة إلى عبادة الله وحده، (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ)، وأن القاسم المشترك بين أعداء الرسل كان دائما هو الطعن في رسالتهم، بكونهم بشراً وليسوا بملائكة، وبكون الدعوة التي جاؤوهم بها غريبةً، ولم يسمعوا بها من آبائهم الأولين، وأن الرسل ليسوا في زعمهم إلا عبارة عن مجانين ومفترين، وأن النشأة الآخرة والبعث الذي تثبته الرسالات الإلهية مجرد تخويف وتهويل، ومن قبيل المستحيل.

وفيها إشارة إلى أن كثيراً من الأمم قد أهملوا التدبر والاعتبار في آيات الإيمان؛ فكفروا بهذه النعم وجهلوا قدر المنعم بها، وعبدوا غيره وكذبوا رسله الذين أرسلوا إليهم؛ فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، وأهلكهم بعذابٍ من عنده.

وهنا تبدو مناسبة لطيفة بين نهاية المقطع السابق وبداية هذا المقطع :

(كانت آخر آيات المقطع السابق قوله تعالى: (وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (22)) سفينة الصحراء، وسفينة الماء، وهما من أجل النعم. إنها نعمة الأمان لجيل من الناس في صحراء الحياة وعبابها، وهنا – في هذا المقطع – سفينة نوح تحمل الحقيقة المؤمنة – ممثلة في نوح والذين معه – وتوفر لها الأمان في غمرة الطوفان الذى اجتث الباطل وابتلع المبطلين لتبقى الحقيقة بذرةً صالحة في أرض طيبة خصبة، فتنبت وتستوى على سوقها وتأخذ طريقها نحو النماء. سفينة هناً وسفينة هناك وهذا ما يربط بين المقطعين). [1]

– دعوة واحدة .. وأمة واحدة : الآيات (51 – 62) :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ وَإِنَّ
هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ٥٢ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرٗاۖ كُلُّ
حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ٥٣ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم
بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ٥٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ
رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا
يُشْرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ
يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٞ
يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ٦٢ ﴾

(1) المؤمنون والنور ص–67 د. سعد إسماعيل شلبي

بعد عرض قصص هؤلاء الرسل في إيجاز معجز، يتوجه بالخطاب إلى أمة الرسل جميعاً كأنهم مجتمعون في صعيدٍ واحدٍ، في وقتٍ واحد، من غير فارقٍ من المكان أو الزمان، مؤكدة بذلك وحدة الرسالة الإلهية، ووحدة الرسل الذين جاؤوا بها، تبعاً لوحدة مصدرها وهو الله الواحد الأحد، الذي أوحى بها إليهم جميعاً، (وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ). ونبهت في نفس الوقت، إلى أن الخلافات الدينية التي برزت في صفوف المنتسبين إلى الدين، وجعلتهم منقسمين على أنفسهم طوائف وشيعاً بعد فترةٍ من الرسل، فاتخذوا من دين الحق الواحد أدياناً مختلفة لا علاقة لها بالرسالة الإلهية الأصلية، والعقيدة الإيمانية الأساسية. وفي ذلك إشارةٌ إلى أن الاختلاف والتفرق من نواقض الإيمان المفضية لعدم الفلاح. (الآيات 51-54)

ثم تهديد لهؤلاء الضالين المختلفين، الذين أحاطت بهم سحب الغفلة حتى أعمتهم عن الحق، وظنوا في إمهال الله لهم، وإمداده لهم بالأموال والبنين، دليل رضا وعلامة قبول. (الآيات 56-).

ثم في مقابل هؤلاء (المغترين) تبرز صورة (المؤمنين المشفقين) من عذاب الله، المسارعين إلى الخيرات، الحريصين على هجر الشرك بكافة صوره. (الآيات 57-61).

وهنا يأتي قوله تعالى في الآية التالية :(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...). (الآية 62). فما هي مناسبته للسياق؟..

فيه إشارة لطيفة إلى أن ما يصنعه المؤمنون من المسارعة إلى الخيرات بدافعٍ من الإيمان الذي غمر القلوب في حدود طاقة المؤمن حين يغمر الإيمان قلبه، وأن ما تهرب منه الكافرون ولم ينهضوا به لم يكن تكليفاً فوق طاقتهم.

ثم في نفس الآية (وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) تقريرٌ للحساب الدقيق الذي لا يبخس الناس شيئاً، وبيان العدالة المتمثلة في الجزاء على الأعمال.

- المعرضون عن (الإيمان): الآيات (63 – 77):

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ
﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ
بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾
أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ
وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ
وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ
تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ
رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم
بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ
شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾

في هـذه الآيـات نخسـة موجعـة لهـؤلاء المشركين الذيـن يسـتمعون إلى هـذه الآيـات وكأنهـا لا تعنيهـم ولا تتحـدّث إليهـم.. فهـؤلاء المشركون لا يزيدهـم الهـدى إلا ضـلالاً، ولا النـور إلا عمى، ولا الإنعام والإحسـان إلا طغيانـاً وكفراً.

وأشـارت الآيـات إلى أن الفئـة التـي تتزعـم الكفـر والضـلال، ضـد الإيـمان والهـدى، في كل جيـل، هـي مـن ذلـك النـوع المـترف المتكـبر المغـرور، الـذي نـال مـن الثروة وسـعة الـرزق، ومـن النفوذ والسـلطان، ما يجعلـه يتكـبر ويتطاول على الخلـق، ولا يجيـب داعـي الحق، وفضحـت الآيات مـا تقوم به هـذه الفئـة الضالة، مـن سـخريةٍ واسـتهزاء بآيـات الله البينات، ومـا تتندر بـه في المجالس سـمرها عن الرسـول والرسـالات. (الآيـات 63-74).

وبينت أن هؤلاء الكافرين قد اختبرهم الله تعالى، تارةً بالنعم (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ). (الآية 75)، وتارةً بالنِّقم (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ). (الآية 76)، ولكنهم تمادوا في غيهم، وظلوا في غوايتهم، حتى يفاجئهم عذاب الآخرة، فيسقط في أيديهم، وييأسوا من النجاة (حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ). (الآية 77).

- حجج (الإيمان) القاطعة: الآيات (78 - 92):

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

تعود هذه الآيات لتفتح باب (الأمل) للمشركين بعدما لفحتهم رياح (اليأس) وهم يقاسون عذاب جهنم، علهم يرجعوا عن غيهم، ويعودوا إلى ربهم. وذلك من خلال عرض بعض (حجج الإيمان الساطعة) والتي تتمثل في:

أولاً: (نعم الله تعالى): وأعظمها وأكرمها السمع والبصر والفؤاد. (الآية 78)، ثم نعمة الخلق والإيجاد من عدم، ثم الموت ثم البعث والنشور(79

الآيـة). والوجـود نعمـة لأنـه خيرٌ مـن العدم، والحشر نعمـة لأنه حيـاة جديدة لا مـوت بعدهـا، ووضـع لـكل نفـس في مكانهـا الذي أُعـد لهـا: في الجنـة أو في النار. ثـم نعمـة ثالثة وهـي نعمة التدبير وتصريف الكـون والحيـاة. (الآيـة 80)، ولكن هـؤلاء المشركـين أنكـروا الحيـاة بعـد المـوت، وقالـوا كيـف نعـود إلى الحيـاة مـرة أخـرى بعـد أن نصـير ترابـاً وعظامـاً؟.. ولـو أنهـم نظـروا إلى الليـل والنهـار مثلاً لعرفـوا أن النهـار ينسـخه الليـل ثـم يعـود النهـار فيطلـع مـن جديد ناسـخاً ظلام الليـل.. وهكـذا.. ليـل ونهـار ونهار وليـل.. كذلك الحيـاة والموت، ثـم الحياة بعد المـوت. (الآيـات 81-83).

ثانيـاً: (أسـئلة تقريريـة) تكشـف زيـف ادعائهـم وضعـف حجتهـم وبطـلان شركهـم وتفاهـة معتقدهـم. وفيها دلائل على شـمول تدبـير الله تعالى، وكمال سـيطرته وهيمنتـه عـلى الكـون، واسـتحالة وجـود شريـكٍ في ملكـه. (الآيـات 84-92).

– توجيهات وابتهالات: الآيات (93 – 98):

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾

في هـذه الآيـات التفـات إلى النبـي الكريـم ﷺ بعـد هـذا العـرض المبسـوط لوجـوه المشركـين ومـا يـدور في أفكارهـم من سـخافاتٍ، وما تنطق به ألسـنتهم من سـفاهات، ومـا تنعقـد عليه قلوبهـم مـن شركٍ وضلال، وفي هـذا الالتفـات يدعو الله سـبحانه نبيّـه ﷺ أن يطلـب إلى ربـه ألا يكـون بمشـهدٍ مـن هـؤلاء المشركـين حـين يحـلّ بهم بـأس الله ويقـع عليهم عذابـه، وفي هذا إشـارةٌ إلى شـدّة هـذا البلاء وقسـوته، وأنـه ممـا لا تحتمـل النفـس رؤيتـه بالعـين، فكيـف حـال المبتلى بـه الذي يتجـرع كـؤوس عذابه؟..

ثم إن هذا من جهةٍ أخرى تهديدٌ للمشركين بالعذاب الأليم الذي يدعو الله أولياءه إلى أن يتضرعوا إليه طالبين الفرار منه، قبل أن يقع، حتى لا يشهدوه بأعينهم، كما أمره سبحانه أن يستعيذ به من وساوس الشياطين وما يزينون به للناس من منكراتٍ.

- الحصاد المر: الآيات (99 - 114):

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾

لما ختمت الآية السابقة (باستعاذة الرسول ﷺ من مجرد قرب الشياطين منه) في أي حالٍ من أحواله، أتبع ذلك ببيان أن (كثيراً من الناس لا يأخذون حذرهم من الشيطان)، ولا يستعيذون بالله منه؛ فيفسد عليهم دينهم، وينقض ظهورهم بالذنوب والآثام، ثم يظلون هكذا في غفلتهم «حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ» وانكشف عن عينيه الغطاء ورأى ما قدم من منكرات «قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ». وفي هذه الآيات صفعة قوية في وجوه هؤلاء الذين ظلوا متمردين

على الله، متمادين على الضلال والعناد، طيلة حياتهم، من البداية إلى النهاية، لا يتذكر أحدهم مولاه إلا عند احتضاره ودنو أجله، وتعرض الآيات مشاهد حسرات وآهات المكذبين وهم يعاينون العذاب الأليم، وقد كانوا في الدنيا يستقبلون النذر الإلهية باستخفافٍ واستهزاء، وهذا نتيجة جهلهم بحكمة الله في الخلق، وهو ما تبينه الآيات التالية.

- أفحسِبْتُمْ أنما خلقْناكُمْ عبثًا: الآيات (112 – 118):

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ١١٦ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ١١٧ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾

في ختام سورة (المؤمنون) يقرر الله تعالى حقيقةً ثابتة لا مناص من الاعتراف بها والالتزام بنتائجها، ألا وهي: أن الله تعالى لم يخلق الإنسان عبثاً، وإنما خلقه لإبراز حكمةٍ إلهية من وراء إيجاده وإمداده، وإنجاز مهمةٍ سامية في مستوى إدراكه واستعداده، ألا وهي جعله خليفة في الأرض يقوم بعمارتها واستثمار خيراتها، طبقاً لمنهج إلهي حكيم، يكون مسؤولاً عن تطبيقه كاملاً، لينال ما هو أهلٌ له من الثواب أو العقاب. (الآيات 115-117).

ولتوضح الآيات خطورة هذه العقاب الذي ينزل بالمكذبين والمشركين أصدر حكمه الفاصل في ختام هذه السورة فقال: (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)، في مقابلة الفاتحة التي جاءت في مطلعها تحمل البشرى للمؤمنين الموحدين بالفوز الأكبر، حيث قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)، وشتان ما بين تلك الفاتحة وهذه الخاتمة.

ثم تختم السورة بهذه الآية الكريمة: «وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ». (الآية 118).

فسبحانك سبحانك من ربٍّ كريم، غفورٍ رحيم .. تعنو لجلاله الوجوه، وتستخزى (أي تشعر بالخزي والعار) في مواجهة كرمه ومغفرته ورحمته، ويستحى من عصيانه والتمرد على طاعته أهل الحياء!.

وألا شاهت وجوه الذين يلقون رحمة الرحمن الرحيم بالتمرد والكفران، وألا خسيء وخسر أولئك الذين يغريهم لطف اللطيف وإحسان المحسن بالتطاول عليه والعدوان على حرماته!.

سورة النور

موضوع السورة [1]:

جاءت سورة النور تضع النقط على الحروف، وتبين «آياتها البينات» أسس التربية الخلقية والاجتماعية النظيفة الطاهرة من كل دنس، التي يجب أن يقوم عليها المجتمع الإسلامي والأسرة المسلمة، بصفتها الخلية الأولى وحجر الزاوية في بناء ذلك المجتمع، حتى يقضي على الخصال الجاهلية، والمفاهيم الوثنية غير الأخلاقية، قضاء مبرماً.

لذا بينت السورة مظاهر إصلاح المجتمع وتحقيق العفة والطهر والاستقامة من خلال تحصينها بأسوار منيعة:

1 - تحريم الزنا وبيان عقوبته، وتحريم قذف المحصنات وبيان عقوبته، وبيان الإجراءات الاستثنائية التي يلزم اتخاذها عند صدور القذف من نفس الزوج في عرض زوجته.

2 - عرض لقصة الإفك التي اختلقها المنافقون، وروجوها للقذف في عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، ثم ما أنزل الله في براءتها ولعن المنافقين، ووصفهم المشين. (تحصين من الخوض في الأعراض والإشاعات الأفاكة).

3 - فرض الحجاب والأمر بغض البصر وإخفاء زينة المرأة. (تحصين من مقدمات الزنا).

4 - بيان منهج تحصين المجتمع من شرور المنافقين، وهم عوامل هدم في داخل المجتمع المسلم، فيسعون لنشر الفاحشة وترويج الرذيلة وإشاعةً الانحلال والفوضى.

---

(1) التيسير في أحاديث التفسير ج 4 / 246-247 بتصرف

5 – تقرير حرمة المساكن والبيوت، ومنع دخولها وانتهاك حرمتها للاطلاع على دخائلها، ونصت على طريقة الاستئذان للدخول في البيت، وأوجبت الاستئذان –داخل البيت– في فترات الخلوة اليومية على أعضاء العائلة أنفسهم، ولو كانوا صغاراً. (تحصين من انتهاك حرمة البيوت وأهلها).

6 – بيان آداب مجالسة رسول الله ﷺ والحديث معه والنداء عليه، وآداب الانصراف من مجلسه الشريف، بعد الاجتماع به والجلوس بين يديه. (تحصين من تجاوز حدود الأدب مع رسول الله ﷺ والأمر بطاعته).

مناسبتها لما قبلها:

ختمت سورة المؤمنون بإشارة إلى مغفرة الله ورحمته بعباده المؤمنين؛ فقال تعالى: (وَقُل رب اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)، وجاءت سورة النور محققة لتلك الرحمة من خلال تشريعاتها الحكيمة التي أنارت للعباد الطريق الموصل إلى السعادة الدائمة في الدنيا والآخرة.

مقاطع السورة:

⏮ – حدود ربانية لحفظ المجتمع من الفاحشة : الآيات (1 – 10):

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى
فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ
مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ
يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ
وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾
وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ
إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَـٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٧﴾

وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ
غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ
حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

في بدء السورة بقوله تعالى :(سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)، إلفاتٌ إلى ما سيجيء في السورة من أحكام وتشريعات وقواعد لحفظ المجتمع وصيانة روابط الأسرة التي هي الأساس الذي يقوم عليه كيان الجماعات والأمم، وفيها إشارةٌ إلى أن ما جاء في هذه السورة من الآداب والتعليمات وأحكام الحلال والحرام، والأوامر والنواهي والحدود، هي أحكامٌ قاطعة لابد أن توضع أحكامها موضع التنفيذ. (الآية 1).

✓ حد الزنا والقذف (الآيات 2-5):

ثم تبدأ السورة بهذا الحكم وهي (عقوبة الزاني والزانية المحصنين) (الآية 2)، وحرصاً على حفظ عرض المؤمنات المحصنات، حتى لا يلطخ بسوء، هددت الآيات من يتجرأ على قذفهن بالزنا ولم يشهد معه أربعة شهود، (بعقوبة القذف) وهي الجلد ثمانين جلدة، وبرفض شهادته باستمرار، وباعتباره من الفساق غير العدول، تغليظاً لشأن القذف، وردعاً عنه بكل شدةٍ وحزم. (الآية 4-5).

✓ حد اللعان بين الزوجين: (الآيات 6-10).

ثم انتقلت الآيات لبيان حكم اتهام الزوجة بالفاحشة في نطاق الأسرة الزوجية، فشرعت ما يعرف باللعان.

⏮ – حديث الإفك: الآيات (11 – 20):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

انتقلت الآيات من الحديث عن القذف الصادر من الأباعد ومن الأقارب، وبيان الحكم الشرعي المطلوب تطبيقه على صوره المختلفة، إلى الحديث عن أكبر وأخطر قذفٍ قام به المنافقون في تاريخ الإسلام، وذلك في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، عند منصرفها من إحدى الغزوات مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، ووصولها متأخرةً عن موكبه، بسبب اضطرارها إلى الوقوف عن السير، لقضاء حاجتها والبحث عن عقدٍ نفيس ضاع لها، وقصة هذا القذف هي المعروفة بـ"قصة الإفك"، والإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، والبهتان الذي لا تشعر به حتى يفاجئك، والذي تولى كبره هو زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، وقد برأها الله مما قذفها به المنافقون، كما برأ مريم العذراء مما قذفها به اليهود المغرضون، وأقيم حد القذف الشرعي على مَن روج هذا البهتان العظيم.

وندّدت الآيات (19–20) في ختام هذا المقطع بالذين يجدون لذةً في ترويج أقوال السوء، ونشر الإشاعات الباطلة عن صالحي المؤمنين، لبلبلة الأفكار ونهش الأعراض، وهددهم بالعذاب الأليم في الدنيا، وبعذاب النار في الآخرة.

وأخيراً، جدد الحق سبحانه وتعالى منّته على من وقعوا في المحظور، حيث فتح في وجوههم من الرأفة والتوبة أوسع باب، حتى لا يعاجلهم بالعقاب، (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ).

– وصايا ربانية تعقيباً على حادثة الإفك: الآيات (21 – 26):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾﴾

بعد أن عالجت الآيات – في المقطع الماضي – قصة الإفك والبهتان العظيم التي لفقها المنافقون، وألقى عليها وعلى بواعثها وانعكاساتها ونتائجها الأضواء الكاشفة، وحذر عامة المؤمنين من الوقوع في شرك الإشاعات الباطلة كيفما كان مصدرها، ورسم لهم طريق مواجهتها ومقاومتها للقضاء عليها في المهد، وجه إليهم في هذا المقطع مجموعةً من (الوصايا الربانية التي تحميهم من السقوط في مستنقع الفاحشة):

1 – التحذير من الانقياد للشيطان والسير في ركابه واتِّباع خطواته، فهو دليل شر لا قائد خير، وهو قرين سوءٍ وفساد، لا رفيق هدى ورشاد. (الآية 21).

2 – دعوة الموسرين المحسنين من حسن المعاملة للمحتاجين المعسرين، وغض الطرف عن فلتات ألسنتهم، وعدم مؤاخذتهم بما قد يصدر عنهم من أغلاط في تصرفاتهم، ورغبهم في الصفح عنهم ومعاملتهم بمثل ما يرجون أن يعاملهم به ربهم، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وفيها إشارةٌ لموقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه من مسطح بن أثاثة، ابن خالته رضي الله عنه، عندما أقسم بعدم الإنفاق عليه لخوضه في حديث الإفك. (الآية 22).

3 – تشديد النكير على المفترين الذين يرمون المحصنات المؤمنات، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة. (الآيات 23–25).

4 – بيان سنة الله في المجتمع الإنساني من حيث تناسب الأشكال، ووقوع كل إنسانٍ على شاكلته، والتقاء كل نظير بنظيره، إن في الأخلاق والسلوك، أو في المعتقدات والتصورات. (الآية 26).

⏮ – تدابير وقائية لحماية المجتمع من الفاحشة: الآيات (27 – 34):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ

وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ
أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ
أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ
ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ
لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟
فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ
نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ
فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟
فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ
بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ
خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

إتماماً للمقطع السابق، تأتي أيات هذا المقطع لتعرض تشريعاتٍ ربانية (لصيانة المجتمع من الفواحش والمنكرات)، منها:

1 – فرض أحكام الاستئذان، ومنع دخول البيوت بغير إذن أهلها، إلا البيوت غير المسكونة على سبيل الانتفاع المؤقت مثل محطات الأسفار التي يقصدها المسافرون للاستراحة، والمقاهي والأسواق التجارية ما دامت مفتوحة، فلا استئذان في دخولها. (الآيات 27–29)

2 – الدعوة إلى غض الأبصار، وحفظ الفروج، وعدم إبداء المرأة زينتها إلا أمام محارمها. ثم الدعوة إلى توبةٍ خالصة صادقة يتوجه بها المؤمنون إلى ربهم، لتكون طريقهم إلى الفلاح. (الآيات 30–31).

3 – تزويج من لا زوج له في المجتمع المسلم حرّاً كان أو عبداً، والدعوة إلى العفة، صيانةً للأفراد من الفاحشة، وحفاظاً على المجتمع نقياً طاهراً،

وأمر الأولياء بإعانة ما ملكت أيمانهم ومساعدتهم على الزواج صيانةً لهم من الانحراف، وتطهيراً لقلوبهم من الوقوع في الفاحشة. والنهي عن إكراه الإماء على الفاحشة ابتغاء المال، وابتغاء عرض الحياة الدنيا، وهو ما كان يمارسه المنافقون في المجتمع المسلم. (الآيات 32–33).

ثم تأتي آية تعقب على ذلك كله، وتصف هذه الشرائع بأنّها آياتٌ مبينات في سبيل الوصول إلى العفّة والطهارة، ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾. (الآية 34).

– نور على نور: الآيات (35 – 40):

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ
فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ
وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ
مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ
ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٞ لَّا
تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ
ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ
يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ
ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ
سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن
فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ
ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

تأتي هذه الآيات تعقيباً على الآيات السابقة فتختم على نورانيتها، ونورانية ما جاء فيها من أحكام، وأنها تنير درب السالكين سبيل الطهارة والعفة والرقي في سلم النقاء والتزكية.

وفيها إشارة إلى (مصدر النور) في هذه الأحكام والآداب وهو نور الله تعالى الذي عم آفاق الكون، وآفاق النفس الإنسانية. ويمتد هذا النور ويتجلى في بيوت الله. (الآيات 35-36).

وذكر مثلاً لأولئك الذين (استجابوا لهذا النور)، فما عاد يشغلهم شيءٌ عن تلقيه، أو يلهيهم عرض دنيوي عن اتِّباعه، أولئك الذي ملأ الإيمان قلوبهم، فحرصوا على ما عند الله من أجرٍ وثواب. (الآيات 37-38).

في مقابل نفوس أخرى (لا تطيق هذا النور) ولا تقبله، لأنه يضع حداً لشهواتها الجامحة ؛ فضرب لهم القرآن مثلين لبيان خسرانهم المبين وخيبتهم المرة. (الآيات 39-40).

- دلائل النور في أيات الكون : الآيات (41 - 46) :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ
وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ
﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ
يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى
ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ
رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾
لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(لما ذكر الله تعالى أعمال المؤمنين واستقامتهم على نور الله تعالى، وبين ضلال الكفار والظلمات التي يتخبطون فيها، فأظهر أنوار قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين، أتبع ذلك بذكر دلائل نوره في الكون، فذكر سبحانه وتعالى بعض دلائل النور في الآفاق وذلك - والله أعلم - لأمرين:

الأول: لتقوية دلائل التوحيد في قلوب المؤمنين، فيزدادوا نوراً وهدايةً، ولتقوم الحجة كاملة على الضالين، فلا عذر لهم في الجحود والنفاق والغواية.

الثاني: لتتعرف على تفاعل الكون كله بنور خالقه، وما أثمره هذا التفاعل من امتثالٍ لأوامره وإعلانٍ لتسبيحه، وذكره وشكره والامتنان بالعبودية له سبحانه وتعالى)[1].

إن هذه الآيات الكونية شاهدة ناطقة بأن الله المالك هو وحده الذي له سلطة التشريع، وهي آياتٌ بينة تكفي لتبديد ظلمات النفس وشبهاتها، ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. (الآية 46).

وللدكتور توفيق زبادي تعقيب لطيف يربط فيه بين آيات هذا المقطع بما سبقه (35–44)؛ فيقول:

(ذكر الله في سياق الحديث عن الأحكام الشرعية سنته في الثواب والعقاب، وسنته في الهدى والضلال، وسنته في تكوين السحاب وإنزال المطر، ووسط السورة باسمه (النور)؛ ليعلم عباده أن حكمه الشرعي نورٌ، من استضاء به نجا، وأن من غدا إلى المسجد أو راح امتلأ قلبه نوراً من نوره سبحانه.

واختار من حالات البرق حالة (الضياء)؛ ليتناسق مع النور في السياق.. نور الأحكام الشرعية، نور بيوت الله، نور قلوب رواد المساجد، نور الجزاء.

إن الله يعلمنا أن سننه كلها نور من آثار اسمه النور، من استضاء بها وعمل بها؛ هداه الله إلى الصواب والرشاد في الدنيا، وإلى النعيم الدائم في الآخرة).

(1) التفسير الموضوعي لسورة النور ص –44 د. جمال عبد الستار محمد

- المعرضون عن النور: الآيات (47 – 57):

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ
أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ
﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ
أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ
﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞
وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ
وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾
وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا
ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ
بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

لما ختمت الآية السابقة ببيان دور آيات الله في هداية الروح والقلب والعقل والوجدان إلى معرفة الله، بينت الآيات التالية أن هناك صنفاً من الناس رفضوا هذه الهداية، وأبوا الاحتكام إليها نتيجة فساد قلوبهم وإصرارهم على نفاقهم (الآيات 47–50)، في مقابل الصورة المشرقة للمؤمنين وما في قلوبهم من صدق ويقين يدفعهم إلى السمع والطاعة دون تردد أو ارتياب. (الآيات 51–52).

ثم تعرض الآيات (53 – 54) أنموذجاً من اضطراب المنافقين في قبول الهداية، فيتثاقلون من القيام بواجب الجهاد في سبيل الله، الذي كان اختباراً

حقيقياً لطاعتهم وامتثالهم أمر الله تعالى، فهم في مجال القول أبطال حروب وفرسان قتال، فإذا جدّ الجدّ كانوا أجبن الناس وأحرص الناس على حياة!.

ثم دعت الآيات الناس جميعاً إلى طاعة الله وطاعة رسوله، مبينةً أن الإعراض عن الدعوة الإلهية، والهداية الربانية، لا يعفي أحداً من مسؤولياته. (الآية 55).

ثم تبين الآيات أنّ (سبيل الاستخلاف والتمكين للدين) في الأرض يكون باتِّباع تلك الأحكام، والسير في هدي ذلك النور (الآيات 55-56). وأن الكافرين الذين يخرجون عن طريق الهداية ليسوا بمعجزين في الأرض. (الآية 57).

- تنظيم العلاقات الاجتماعية في داخل الأسرة المسلمة: الآيات (58 - 61):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)﴾

لما اهتمت الآيات السابقة بالتشريعات (خارج البيوت) من خلال عرض أحكام الاستئذان وغض البصر والحجاب، جاءت هذه الآيات لتؤكد موضوع الطهر والنقاء في (داخل البيت) المسلم والأسرة المسلمة وذلك من خلال:

1 – ضرورة الاستئذان الواجب على الرقيق والأبناء الذين لم يبلغوا الحلم، وضرورة أن يستأذن هؤلاء الأطفال إذا بلغوا الحلم .(الآيات 58–59).

2 – التخفيف عن القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً في شأن وضع الثياب الظاهرة، كالجلباب والرداء ما لم يؤد ذلك إلى إظهارهن مفاتهن، وأن العفة خيرٌ لهن.(الآية 60).

3 – نفي الحرج عن ذوي الأعذار من حيث مخالطة الناس، والأكل معهم، كما نفت الحرج عن الأقارب والمحارم أن يأكلوا من بيوت بعضهم بعضاً، وتفتح المجال للأكل من بيوت الأصدقاء شريطة الالتزام بالأحكام التي تضمنتها السورة من حيث انضباط العلاقات الاجتماعية، وعدم إفضائها إلى فاحشةٍ أو محرم، أو كشف عورات، أو هتك حرمات. (الآية 61).

– أداب الاجتماع في مجلس الرسول ﷺ :الآيات (62 – 64) :

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ
حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا
ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٢ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ
يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن
تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ
يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٦٤﴾

بعد أن جاءت الآيات السابقة لتحكم الصلة بين (أفراد المجتمع الإسلامي) ، تجيء هذه الآيات لتنظم العلاقة بين (الأمة وقائدها الأعلى)

-ممثلـةً في رسـولها ﷺ- وبينـت أنهـا صلة وثيقـة العرى ملاكهـا السـمع والطاعة؛ خاصـةً عنـد الاجتماع في مجلس الرسـول للتشـاور في أمـرٍ جليل، وكشـفت الآيات السـتار عـن سـلوك المنافقـين في هـذا المجـال، حيـث كانـوا ينصرفـون مـن الجمع متسـللين. (الآيـة 62).

وفي سـياق الحديـث عن «الأمر الجامـع» الذي يدعو الرسـول ﷺ إلى حضوره وتـدور حوله المناقشـة والحـوار، نبهت الآيـة (63) إلى أن مخاطبة رسـوله ﷺ يجب أن تكـون مصحوبـة بـالأدب اللائـق بمقامـه الكريـم، وحـذرت مـن التمـرد على تلـك الضوابـط والمخالفـة لتلـك التعليـمات، مبينـاً مـا يـؤدي إليـه عـدم اتِّباعهـا والخـروج عليها من أسـوأ العواقب، في الدنيـا والآخـرة، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِيـنَ يُخَالِفُونَ عَـنْ أَمْـرِهِ أَنْ تُصِيبَهُـمْ فِتْنَـةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وجـاء ختـام السـورة بقولـه تعـالى: ﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مـا فِي السَّـماوَاتِ وَالْأَرْضِ قَـدْ يَعْلَـمُ مـا أَنْتُـمْ عَلَيْهِ وَيَـوْمَ يُرْجَعُـونَ إِلَيْـهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُـوا وَاللَّهُ بِـكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. (الآيـة 64)، وفيـه ثـلاث إشـارات لطيفـة تتعلـق بموضوع السـورة وهي:

1 – ﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّـماوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ... إشـارة إلى أن الله شرع ما مرَّ من أحـكام، لأنـه صاحب السـلطان الأعظـم في هذا الوجـود، ومالك هـذا الكون وما فيـه، فله وحده سـلطة التشريع، والتحليـل والتحريم.

2 – ﴿قَـدْ يَعْلَـمُ ما أَنْتُـمْ عَلَيْهِ وَيَـوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْـهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا﴾... إشـارة إلى الرقابـة الإلهيـة الصارمـة عـلى سـلوك العبـاد، ممـا يقتـضي تسـجيل كل أفعالهم، وإعلامهـم به يـوم القيامـة ليتحقق الجـزاء العادل بإثابـة المطيع، ومعاقبـة العاصي.

3 – ﴿وَاللَّهُ بِـكُلِّ شَيْءٍ عَلِيـمٌ﴾ ... إشـارة إلى شـمول العلـم الإلهـي لـكل شيء، وهـذا يدعـو إلى تمـام الامتثـال والخضـوع لأحكامـه عـز وجـل، اسـتعداداً لثوابه، وحـذراً مـن عقابـه، وحيـاءً من جنابـه)[1].

(1) التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه ص 329 بتصرف – د. زياد الدغامين، وقد استفدت منه كثيراً في بيان بعض وجوه الترابط بين مقاطع السورة .

سورة الفرقان

موضوع السورة:

تكفلت سورة الفرقان بالإجابة عن تساؤلٍ هام وهو: لمَ يعرض أكثر الناس عن الحق رغم كثرة حججه القاطعة وبراهينه الساطعة؟.

فكشفت السورة عن أهم (أسباب الضلال)، وأبرزت صوراً من صور ضلال الضالين، مع بيان بعض شواهد الحق ودلائله، وبينت في آخرها صفات المهتدين المنقادين للحق والراضين به، فتمت بذلك المقابلة، واكتملت الصورة البشرية، وجاءت آيات السورة بحق فرقاناً بين الهدى والضلال، وبين المهتدين والضالين.

واسم السورة يوحي بأن هناك نزاعاً بين طرفين، والسورة تتولى التفريق بينهما وإظهار الحق وتجليته، فهي تتحدث عن معركةٍ فكرية بين المؤمنين والكافرين، وهي تقدم الأدلة لنصرة الحق وفصله عن الباطل من خلال نسف شبهات المكذبين الباطلة ودحض أوهامهم الكاذبة.

وقد جمعت السورة بين (المنهج العقلي) عبر إثارة العقل للتفكر في مشاهد الكون، و(المنهج العاطفي)، عبر إثارة الوجدان للنظر في مصارع المكذبين عبر التاريخ.

وعندما نستنطق الآيات الكريمة التي تتضمنها سورة الفرقان نجدها تدور حول محاور أربعة:

- المحور الأول: (القرآن) وما أودع الله فيه من كنوز الحكمة الإلهية.

- المحور الثاني: (الرسالة) والعبء الثقيل الذي ألقته على عاتق الرسول العناية الربانية.

- المحور الثالث: (التوحيد) وتزييف معتقدات الشِّرك والوثنية.
- المحور الرابع: (المعاد) وما يؤول إليه مصير الكون ومصير الإنسانية.

مناسبتها لما قبلها:

كانت سورة «النور» -التي تسبق هذه السورة- نوراً من نور الحق جلّ وعلا، سطع نورها في آفاق المجتمع الإسلامي فجلا كل غاشيةٍ وفضح كل ضلالٍ وبهتان.

وكانت «سورة الفرقان» مكملةً لهذه السورة، إذ قد استفتحت بتمجيد الله الذي أفاض على عباده هذا الخير الكثير المبارك بما نزّل من آياتٍ بينات على نبيّه الكريم هي الفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والنور والظلام. فكان النور المشع من سورة النور كاشفاً للشُّبه، مجلياً للشكوك والريب، مقيماً أمر المسلمين على نورٍ مبين .. وهذا النور الذي معهم من آيات الله هو «الفرقان» الذي يفرقون به بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال.

مقاطع السورة:

⏮ - سمو الفرقان وعظمة مُنزّله سبحانه: الآيات (1 – 3):

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾

افتتحت السورة بالثناء على الله تعالى الذي تنامى خيره وتكاثر، فشمل كل شيء، ومن أعظم مظاهر الخير المتنامي إنزال القرآن على عبده محمد ﷺ، ليبلغ عن ربه ما أوحي إليه وينذر به العالمين، ومن أوائل المبلغين المنذرين أولئك الذين اتخذوا معبوداتٍ صنعوها بأيديهم ثم أضفوا عليها بأوهامهم صفة

القدسية، وهم يدركون عجزها المطلق عن دفع الضر عن أنفسها أو جلب النفع لها، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً لأحد من الناس..

وبذلك اتضح بطلان آلهتهم المزيفة، وأكدت التنزيه والتقديس للمعبود الحق سبحانه وتعالى.

- شبهاتٌ وأكاذيب : الآيات (4 – 20):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو
ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ
وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا
رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ
مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ
مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ
ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ
جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ﴿١٠﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ
بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۢ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا
تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ﴿١٣﴾ لَّا
تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ﴿١٤﴾ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ
ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ﴿١٥﴾ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ﴿١٦﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ
مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ
ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٨﴾ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ
صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا
قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ
وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾﴾

في مقابل (سمو الفرقان وعلو منزلته) وتفريقه بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشد والغي، تأتي هذه الآيات لتكشف (انحطاط الشرك وسفوله) وذلك من خلال عرض شبهات المشركين الساقطة وأقوالهم الكاذبة:

✓ فقد قالوا في (آيات الله وكلماته): «إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ»، وقالوا فيها أيضاً: «أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا» ..

✓ وقالوا في (رسول الله ﷺ): «ما لِهَذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها».

✓ ثم حكى عنهم نوعاً ثالثاً من أباطيلهم، وهو (تكذيبهم بيوم القيامة)، ثم وصف ما أعد للكافرين فيه مما يشيب من هوله الولدان من نارٍ تلظى يسمعون لها تغيظاً وزفيراً، ثم أتبع ذلك بما يؤكد حسرتهم وندامتهم بوصف ما يلقاه المتقون في جنات النعيم، مما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثم جاءت الآيات (17 – 19) لتعرض مشهداً من (مشاهد يوم القيامة) يعرض على هؤلاء المشركين وهم في هذه الدنيا مع ضلالاتهم ومعبوداتهم، وفي هذا المشهد يرون ما سيكون بينهم وبين هذه المعبودات من عداوةٍ وخصام وشقاق.

ثم تأتي الآية (20) وفيها التفاتٌ إلى النبي الكريم ﷺ ببيان (سنة الله في المرسلين)، وفيها إشارة إلى قومه وكأنه يقول لهم هذا هو رسول الله إليكم، وإنه ليأكل الطعام ويمشي في الأسواق شأنه في هذا شأن المرسلين من قبله جميعاً، لتتحقق حكمة الله في ابتلاء الناس .. فهل أنتم بعد هذا الذي رأيتم من مشاهد الآخرة، هل أنتم مؤمنون به على صفته تلك؟ أم لازلتم على ما أنتم عليه من إنكارٍ له وتكذيب به؟.

– عناد وجدال: الآيات (21 – 29):

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ
ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً
مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ
تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ
يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ
مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ
ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾

منذ نبتت نابتة سوءٍ من أولياء الشيطان، وأعلنوا حرب التزييف والتشويه والطعن على أولياء الرحمن، وهم يدورون في حلقةٍ مفرغة، يرددون نفس القول المتهافت المبتذل، من كل هراءٍ، وسلاحهم الوحيد هو سلاح العناد والجدال والمراء، ولذلك جاءت آيات هذا المقطع للكشف عن تُرّهاتهم وإبطال شبهاتهم، وحكاية مزاعمهم التي لا تستند إلى أساس، وتحدياتهم التي بلغت الغاية في الإسفاف والإفلاس.

ففي هذه الآيات بيانٌ لمقولةٍ من مقولات المشركين في مواجهة الدّعوة التي يدعوهم إليها رسول الله، وما يحمل إليهم من كلمات ربّه وآياته من هدى ونور.. وهم هنا يقولون أكثر مما قالوا .. يقولون: «لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا». ثم تتوعدهم بالهلاك والعذاب وتبين أن رؤيتهم الملائكة يعني وقوع القيامة، ولا يدرون ماذا ينتظر المجرمين أمثالهم حين يتغير نظام الكون وتنزل الملائكة، حيث يتبرأ الطغاة بعضهم من بعض، وهم يعضون أصابع الندم على فوات الإيمان بالرسول وصحبته.. في مقابل صورة لأهل الإيمان الذين تقبّل الله سبحانه منهم أحسن ما عملوا، وتجاوز عن سيئاتهم وأدخلهم منازل رضوانه..

- تثبيتٌ ومواساة: الآيات (30 – 34):

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾

في هذه الآيات تقرع آذان المشركين كلمات الله صارخةً بشكوى الرسول الكريم ﷺ من إعراض قومه عنه وسخريتهم به، واستهزائهم بكلمات الله والتشكيك فيه .. ذلك وما زالت مشاهد القيامة التي كانوا بين يديها منذ قليل، ما زالت تلبس كيانهم وما زال العرق المتصبب من هولها يرشح على وجوههم!.

ثم عزاءٌ كريم من ربٍّ كريم للنبي الكريم، عن مصابه في قومه الذين تفيض نفسه الرحيمة عطفاً عليهم ورحمةً بهم.. فهذا حكم الله في الضالين المعاندين منهم، وتلك هي سنة الله عز وجل في معاداة المجرمين لدعوة الحق.

- عاقبة المكذبين عبر التاريخ: الآيات (35 – 44):

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾

تستمر هذه الآيات في مواساة النبي ﷺ من خلال الحديث عن الظالمين من الأمم السابقة وموقفهم من رسلهم، وكيف أخذهم الله سبحانه بعذابه. وتأتي الآيات التالية (41–42) وفيها لقاءٌ مع المشركين بعد أن وقفوا على مصارع القوم الظالمين، وما سيلقونه من عذاب أليم يوم البعث والجزاء.. وفي هذا اللقاء عرضٌ لمقولاتهم المنكرة التي تطفحُ بالسخرية والاستهزاء، وهو دليل إفلاس القوم وفراغهم الفكري والنفسي.

وفي ختام هذا المقطع نطقت الآيات (43–44) بما يهدئ روع الرسول ﷺ، ويحدد مسؤوليته تجاه المرسل إليهم، مبيناً أن هذه المسؤولية تقف عند حدود التبليغ والبيان، ولا تتجاوزهما إلى انتزاع الإذعان والإيمان، ومنبهاً إلى أن السر في إصرار الضالين على ضلالهم وعدم إيمانهم بآيات الله البينات، هو اتّباعهم الأعمى لأهوائهم، وكونهم لم يحسنوا الانتفاع بما رزقهم الله من حواس وملكات: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

– أيات كونية تقود إلى الإيمان: الآيات (45 – 55):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا
﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ
سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ
وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا
وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا
﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم
بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ
وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا
وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ
ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

مناسبة هذه الآيات لما قبلها هي أن الآيات السابقة تحدثت عن الضالين الذين لهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، وكل ما لهم هو هوىً مطاع متسلط عليهم، مستبد بهم، لا يملكون معه نظراً عاقلاً أو سمعاً واعياً.. وهنا في هذه الآيات (45-54) عرض لصورةٍ كريمة للإنسان الذي يرى فيعتبر ويسمع فيعقل، ثم ينتفع بما عقل.. والخطاب -وإن كان للنبيّ ﷺ- فإنه خطاب عام لكل من يستجيب لهذا النداء العلويّ ويلقاه بقلبٍ سليم ونظر مستقيم.

ففي هذه الآيات لفت أنظار الناس أجمعين إلى عدة ظواهر طبيعية، مرتبطة في نشأتها وسيرها بالسنن الإلهية، كل واحدٍ منها برهانٌ ساطع على وجود الله وقدرته، ودليل قاطع على حكمته ورحمته، وهذه الظواهر هي ظاهرة تعاقُب الظل والضوء، وتعاقب الصحو والمطر، وتعاقب الليل والنهار، وتعاقب الشمس والقمر، وازدواج الماء بين عذب ومالح، وازدواج الإنسان بين ذكرٍ وأنثى. (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ). [الجاثية 13].

ثم يأتي التعقيب والاستغراب بعد هذه الجولات في الآفاق والنفس الإنسانية التي تدل على تفرُّد الله سبحانه وتعالى في الخلق والإبداع، وافتقار كل شيءٍ من المخلوقات إليه، كيف يتخذ هؤلاء الجاهلون من دون الله آلهةً هي عاجزة عن جلب النفع لأنفسها ولعابديها أو دفع الضر عن أحد. (الآية 55).

⏮ - دعوة المعاندين ومحاورتهم: الآيات (56-62):

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا ٦٠ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ٦١ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ٦٢﴾

(تـأتي الآيـات المـرة تلـو الأخـرى تـسرّي عـن رسـول الله ﷺ مـا يلاقيـه من القـوم، وتسـليه عـن الجفـاء والعنـاد الـذي يُقابـل بـه، فجاءت آيـات هـذا المقطع لتذكِّـر الرسـول ﷺ أن مهمتـه التبليـغ ليـس إلا، والتبليغ بشـقيه البشـارة والإنذار همـا المطلوبـان منـه، أمـا هدايـة القوم وحملهـم عـلى الإيمان، فهـذا تحت مشـيئة الله خالقهـم وليس ضمـن مهـمات الرسـول. مذكـراً لهـم أنـه لا يبتغـي بذلـك منهـم أجـراً ولا مـالاً ولا جاهـاً. (الآيـات 56-57).

ولـما كان الاسـتمرار في دعـوة القـوم يحتـاج إلى قـوةٍ دافعـة وعـزم قـوي مـن صاحبـه، جـاء الأمر بـأن يتـوكل على الحي الـذي لا يمـوت. (الآيـات 58-59).

ولكـن هـؤلاء الجاهلـين المعانديـن لا يتركـون حماقاتهـم مهـما أقيمـت لهـم الحجـج والبراهـين، ومهـما أبـرزت لهـم الدلائـل والبيّنـات، ومهـما بينـت لهـم صفـات الكـمال للخالـق جـلَّ جلالـه، فـإذا طلبـت منهـم بعـد كل ذلـك، أن يخضعـوا للرحمن قالـوا: وما الرحمـن؟! مستغربين متجاهلين، ولجُّوا في طغيانهـم وعنادهم يعمهـون)[1] . (الآية 60).

ومـن مظاهـر هـذه الرحمة ما جعل سـبحانه من نجـوم بارزة ظاهرة في السـماء، وجعـل الشـمس مصـدراً للضـوء والحـرارة، وتعاقـب الليـل والنهـار. فما أوسـع رحمـة الرحمـن التـي يعيـش في ظلها أعـداء الرحمـن المحاربـون له، المسـتكبرون عن عبادتـه، ومـا أعجـب اسـتكبارهم ونفورهم!. (الآيـات 61-62).

- عباد الرحمن ثمرة اتباع الفرقان: الآيات (63 - 77):

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ
سَلَٰمٗا ٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا
وَمُقَامٗا ٦٦ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧

(1) المعجزة والرسول من خلال سورة الفرقان ص 164-168 بتصرف - د. مصطفى مسلم

وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّو۟ا بِٱللَّغْوِ مَرُّو۟ا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُو۟ا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّو۟ا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُو۟ا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا

في ختام هذا المقطع عرض (صفات المؤمنين الذين استجابوا لله والرسول) فلم يكفروا بالرحمن، بل آمنوا به وأقبلوا على طاعته وعبادته عن اقتناع وإذعان، وتشرفوا بالانتساب إليه حتى وصفهم القرآن بأنهم (عِبَادُ الرَّحْمَنِ) وذلك ليقتدي بهم من لا يزال سابحاً في بحر التردد والعناد، من بقية العباد.

وكأن عباد الرحمن هم الثمرة الجنية للجهاد الشاق الذي بذله الذي أُنزل عليه الفرقان، ووصفهم بخصالٍ تتعلق بتعاملهم مع أنفسهم، وتعاملهم مع غيرهم من الناس ومعاملتهم لربهم جلَّ جلاله. وجاءت هذه الصفات من خلال اثني عشر خُلقاً هي من أسس الأخلاق الإسلامية وهي: (التواضع – الحلم– التهجد – الخوف– ترك الإسراف والبخل – البعد عن الشرك – اجتناب القتل – النزاهة عن الزنا – التوبة – تجنب الكذب– قبول المواعظ – الابتهال إلى الله تعالى).

وهكذا فعباد الرحمن هم المثل الحية الواقعية للفئة التي أراد الإسلام تكوينها بمنهجه التربوي الخاص، وهم الذي يستحقون أن يعبأ بهم رب

السماوات والأرض، ولولاهم ولولا تضرعهم إلى ربهم لَمْ يعبء الرحمن أن ينزل بأسه بأهل الأرض جميعاً. (قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا). (الآية 77).

وبهذه الآية تختم السورة، وهي إعلانٌ عام للناس جميعاً- الضالين والمهتدين - أنهم ما خلقوا إلا ليعبدوا الله، ثم تهديدٌ ووعيد للكافرين المكذبين الذين دعوا إلى عبادة الله ليحققوا الغاية من خلقهم، ولكنهم كذبوا رسول الله ﷺ، وأبوا أن يؤمنوا بالله ويوجّهوا وجوههم إليه؛ فحقّ عليهم العذاب ولزمهم ما قضى الله سبحانه وتعالى به في أهل الكفر والضلال.

سورة الشعراء

موضوع السورة:

(محور الحديث في بداية هذه السورة وفي نهايتها إبطال الشبهات التي يرددها أعداء القرآن، والرد عليهم بأقوى حجة وأسطع برهان، ولا سيما ما يموهون به من وصف الرسول بكونه شاعراً من الشعراء، وما يلوحون به من كون القرآن الذي أنزل عليه إنما هو نوعٌ من الشعر الذي هو منه براء.

وبين بداية هذه السورة ونهايتها المتعلقين بمعجزة القرآن تخللت آياتها البينات قصة موسى مع فرعون وقومه، ثم قصة إبراهيم مع قومه، ثم قصة نوح مع قومه، ثم قصة هود مع عاد، ثم قصة صالح مع ثمود، ثم قصة لوط مع قومه، ثم قصة شعيب مع أصحاب الأيكة.

ويلاحظ في ترتيب قصص الأنبياء المذكورة في هذه السورة أن الأسبق منها في الذكر كان هو الأقرب على عهد الرسالة المحمدية، ثم يليه ما فوقه، فقد وقع البدء بقصة موسى قبل قصة إبراهيم، ثم تلتها قصة إبراهيم قبل قصة نوح وهكذا، لأن الأمر يتعلق بتثبيت الرسول في دعوته، وضرب المثل له بما أصاب الرسل السابقين من أجل قيامهم بمثل رسالته، حتى يصمد ويثابر، ويصبر ويصابر.

وإذا كان ثمة اختلاف بين قوم وقوم فهو في نوع الداء المتمكن منهم، والذي يتسلط عليهم ويحكم تصرفاتهم في الحياة، فهم- أي الأقوام جميعاً- يحملون في كيانهم عللاً نفسية وأمراضاً روحيةً وعقليةً؛ ولكن لكل قوم داءهم الغالب عليهم وعلتهم المتمكنة منهم، إلى جانب العلة الغليظة المشتركة بينهم وهي الكفر أو الشرك بالله)[1].

(1) التيسير في أحاديث التفسير ج 4 / 358-362 بتصرف

مناسبتها لما قبلها:

جاء ختام (سورة الفرقان) محذراً هؤلاء المشركين الذين لم يستجيبوا لله وكذبوا رسوله ببيان أنهم في عداد السَّقط الذي لا يؤبه له ولا يحسب له حساب. وجاء في بدء (سورة الشعراء) قوله تعالى: «لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ». في إشارةٍ إلى أن هؤلاء المشركون - وقد رضوا لأنفسهم أن يكونوا على هذا الوصف- فإنهم لا يستحقون منك أيها النبي هذا الحرص الشديد على هدايتهم ولا هذا الأسى المضنى على ما هم فيه من ضلال.. فإنك لو نظرت إليهم حسب وضعهم عند الله بين المخلوقات لوجدتهم في منزلةٍ دون منزلة الهوام والحشرات.. فكيف تهلك نفسك أسىً على هلاكهم وضياعهم!.

مقاطع السورة:

- المعرضون عن الإيمان: الآيات (1 - 9):

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾

بدأت السورة بالحديث عن (معجزة القرآن الكريم) وموقف المشركين منه، وبيان أن حرص النبي ﷺ على هداية قومه المشركين لن يخرج بهم عما هم فيه من ضلال، لأن الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون البشر أحراراً في اختياراتهم، مسؤولين وحدهم عن كفرهم وإيمانهم، فلا مجال لإخضاعهم بالقهر والاضطرار، وإنما هي الدعوة والإقناع ثم الاقتناع عن طواعيةٍ واختيار. وهؤلاء المشركين لا يتأثرون إلا بما هو ماديٌّ يقع على أجسادهم ويصيبهم في

جوارحهم شأنهم في هذا شأن الحيوان (استكمالاً لما جاء في سورة الفرقان قبلها (إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا).. أما ما يقع لعقولهم من آيات الله القرآنية والكونية فإنهم لا يتأثرون بها ولا يفقهون مواقع العبرة والعظة منها، وهؤلاء المعاندون لن يعجزوا الله ولن يخرجوا من سلطانه.

– قصة موسى عليه السلام : الآيات (10 – 68):

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ
هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا
مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ
مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ
فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ
﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ
نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ
﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ
﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا
غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ
بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ
فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن
يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى
ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ
يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ
ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾

قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ
حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ
ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ
أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ
أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾
فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ
﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ
أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا
ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

ما هي مناسبة قصة (موسى عليه السلام) لما قبلها؟.

إن الآيات السابقة عرضت لموقف المشركين من النبيّ ﷺ وخلافهم عليه مع حرصه على هدايتهم، فكان أشبه الناس بخلافهم وعنادهم وعتوهم (فرعون) الذي جاءه موسى بآيات مادية محسوسة، كتلك الآيات التي كان يقترحها المشركون على النبيّ ﷺ، فما زاده ذلك إلا لجاجاً وعناداً.. فناسب ذلك أن يذكر هذا الحديث عن فرعون في معرض الحديث عنهم ليروا على مرآة الزمن وجههم واضحاً في أعتى العتاة وأظلم الظالمين.. وهذا النوع من الكبر والاستعلاء، والتشويه والتسفيه الذي واجه به فرعون وملؤه دعوة موسى عليه السلام لا يختلف عنه موقف قادة الشرك من دعوة خاتم الأنبياء والمرسلين،

فقد تعرضت دعوته ﷺ لنفس التشنيع والتهديد، وتعرض كثيرٌ من أصحابه الأولين لنفس الوعيد والعذاب الشديد.

وقد تضمنت قصة موسى عليه السلام عدة إشارات هامة:

1 – بيان القاسم المشترك الذي تلتقي فيه جميع الرسالات الإلهية، وهي أنها رسالة تحرير للإنسان من الرق والاستبداد، وإنقاذ له من معتقدات الشرك والوثنية التي هي الحليف الطبيعي للتخلف والاستعباد.

2 – إن الحكمة الإلهية اقتضت أن تسلح كل رسولٍ بالمعجزة التي تثبت صدقه وصدق رسالته، حتى يستطيع أن يتحدى المعاندين الجاحدين بمعجزته، ويقنع الشاكين الباحثين عن الحق والحقيقة بدعوته.

3 – إن قصة موسى عليه السلام التي قصها الله على خاتم أنبيائه ورسله عبارة عن شريطٍ يرى فيه نموذجاً مما يتعرض له الرسل وتتعرض له الرسالات، من مختلف الإذايات، كما يرى فيه ما يكرم الله به رسله من حُسن العاقبة وخفي الألطاف، في نهاية المطاف (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ). [الأعراف 128].

ولا شك أن ما تضمنته قصة موسى، من المواقف والمشاهد والمثلات والعبر، كان يشابه أو يقارب إلى حدٍ كبير ما يواجهه خاتم الأنبياء والمرسلين في الحال، وما سيواجهه في المستقبل المنتظر، فقد عبأ مشركو قريش جميع قواهم المادية والأدبية للطعن في رسالته، وحاولوا بكل الوسائل محاصرة دعوته، وكما فارق موسى وقومه معه مصر، لينجو من طغيان فرعون وقومه، هاجر خاتم الأنبياء والمرسلين مع أصحابه من مكة، لينجو من طغيان الشرك وأهله، وكما كان النصر على فرعون حليف موسى في عاقبة أمره، سيكون النصر حليف الرسول وصحبه في نهاية عمره (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ). وتبدأ القِصَة هنا بالمرحلة الثانية من حياة موسى بعد أن بلغ أشدّه وتلقى الرسالة من ربه.

وحوار موسى عليه السلام مع فرعون دورةٌ تدريبية عظيمة في أسلوب الحوار مع طاغيةٍ معاند مستكبر، وعدم تمكينه من استدراجه للخروج عن أهداف

الدعـوة، فالرسـول لا يدافع عن شـخصه وإنـما يدافع عن الرسـالة التـي أوكله الله تعـالى ببلاغها.

– (قصة إبراهيم عليه السلام): الآيات (69 – 89):

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ
أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ
يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ
﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي
خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ
﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ
﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي
ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا
تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ ﴾

مناسـبة ذكـر قصـة إبراهيـم بعد قصة موسـى عليهما السـلام، هي أنـه في قصة موسـى إذا كان المشركـون قـد رأوا في قـوم فرعون (عتوّهـم واسـتكبارهم)، فإنهم يـرون في قـوم إبراهيـم (جهلهـم وسـفاهة عقولهـم) إذ ينقـادون لأحجـارٍ صـمّاء ويعفّـرون جباههـم بـين يـدى دمىً خرسـاء!.

وإذا كان الحـوار الإبراهيمـي مفيـداً ومنتجًا بالنسـبة للـماضي في مهاجمة الشرك والوثنيـة، والتعريـف بخصائـص ومظاهـر الربوبيـة، فـإن التذكـير بـه في كتاب الله عـلى عهد الرسـالة المحمديـة، أعظم فائـدة، وأعم عائـدة، لا سـيما ومشركو قريش يعتـبرون أنفسـهم أقـرب الأقربـاء لإبراهيم الخليل، ودعـوة إبراهيـم للتوحيد ضد الـشرك الـذي هـم عليـه سـندٌ قـوي يؤكـد دعـوة خاتـم الأنبيـاء، وبطـلان عبادة الأصنام وفسـاد اللجـوء إليها.

- مشاهد النعيم والجحيم يوم القيامة: الآيات (90 – 104):

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

هـذه الآيـات تعقيـب على هذه المشـاهد التي شـهد فيهـا المشركون مـن قريش موقـف أهل الضلال كقوم فرعون وقوم إبراهيـم وما يعبدون من دون الله، وتأبّيهم عـلى الهـدى وخلافهـم لمـن يدعونهـم إلى الله.. وفي هـذا التعقيب تنكشـف عواقب الأمـور للمحسـنين والمسـيئين جميعـاً، فينـزل كلّ منزلته وينـال كل جـزاء ما عمل. فأمـا المؤمنـون المتقـون فتزلف لهم الجنّـة وتفتح أبوابهـا لهم فيدخلونهـا وينعمون بما أعـد الله سـبحانه وتعـالى لهم فيهـا من نعيـم مقيم، وأما أهـل الشـقاء والضلال فها هـي ذي الجحيم تـبرز لهم ويحيط بهـم سرادقها.

- قصة نوح عليه السلام: الآيات (105 – 122):

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾

﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي
ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١١٩ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ١٢٠ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ
أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٢﴾

وفي قصة نوح عليه السلام صورة واضحة تجرى فيها الأحداث على نحو مماثل تماماً لما يجرى بين النبيّ ﷺ وقومه، يدعوهم إلى الله فلا تعطفهم عليه عاطفة النسب والقرابة، ولا ينكشف لأبصارهم شعاعٌ من هذا النور المشرق الذي بين يديه، ولا يستجيب له منهم إلّا قليلٌ من حاشية القوم ممن لا يراهم القوم من أصحاب الجاه والسلطان فيهم، وهؤلاء الذين آمنوا من المستضعفين هم علةٌ أخرى من العلل المريضة التي تدعو القوم إلى خلاف النبيّ ﷺ والوقوف في الجانب الآخر المعادي له. وتختم القصة بنجاة المؤمنين وهلاك المكذبين.

– قصة هود عليه السلام : الآيات (123 – 140):

﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ
١٢٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٢٦ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٧ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ
تَخۡلُدُونَ ١٢٩ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ١٣٠ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٣١ وَٱتَّقُواْ
ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٣٤ إِنِّيٓ
أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ
ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨ فَكَذَّبُوهُ
فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

وآيةٌ أخرى من آيات الله هي في هذا الصراع الذي كان بين هود عليه السلام وبين قومه.. إن قوم هود على شاكلة قوم نوحٍ سواء بسواء .. فهل يجد فيها المشركون عبرة لهم؟!.

- قصة صالح عليه السلام: الآيات (141 - 159):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

وتلك آية أخرى في هذا الموقف الذي كان بين نبي الله صالح عليه السلام وبين قومه، «وما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ». (يونس 101).

ويلاحظ التشابه القوي بين مواقف الأقوام من رسلهم على اختلاف أزمانهم وأوطانهم.

إن رسلهم عندهم بموضع تهمة؛ فهذا ساحرٌ أو مسحور، وهذا شاعرٌ أو مجنون، وذاك دعيٌّ يتلقى من غيره ما يحدّث الناس به، إلى غير ذلك مما يرمونهم به من بذيء القول وسفيه الحديث.

- قصة لوط عليه السلام: الآيات (160 - 175):

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ

مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

ولا تختلف قصة لوط عليه السلام مع قومه عن قصة كل نبي سبقه أو جاء بعده مع قومه.. إنه داعية يدعو باسم ربه إلى خيرٍ وإلى هدى، وقومه إلا قليلاً منهم يتصدون له ويقفون في وجه دعوته مهددين متوعدين بالهلاك أو الطرد من الديار.

والداء المتمكن من قوم «لوط» – إلى جانب الكفر بالله– هو هذا الانحراف والشذوذ الذي كانوا يعيشون فيه ويأتونه جهرةً من غير حياءٍ أو خجل، وكانوا في ذلك أول من حمل هذا الداء الذي تفشّى في الناس فيما بعد.

– قصة شعيب عليه السلام : الآيات (176 – 191):

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

والـداء الـذي تمكّـن مـن قوم شـعيب وتسـلط عـلى سـلوكهم في الحيـاة – إلى جانـب الـداء الغليـظ وهو الكفـر – هـو التلاعـب بالمكاييـل والموازيـن، والتعدّي عـلى حقـوق الغـير بهـذه السرقـة الخفيـة، وخيانـة الأمانـة في الكيـل والوزن.

– تعقيبٌ على قصص الأنبياء السابقين [1]:

1 –إن ممـا يسـتلفت النظـر، ويـدل عـلى وحـدة الرسـالات الإلهيـة، ووحـدة الرسـل الذيـن جـاؤوا بهـا، أن كتـاب الله اسـتعمل أسـلوباً واحـداً في حكايـة مـا خاطـب بـه أولئـك الرسـل أقوامهم، عـلى اختـلاف أزمانهـم وتعـدد مواطنهم، إذ نجـد الأنبيـاء جميعـاً عبروا عن نفـس المعـاني والمقاصد، واسـتعملوا نفـس الطريقة في مخاطبـة أقوامهـم ودعوتهـم إلى الإيـمان بالرسـالة التـي جـاؤوا بهـا مـن عند الله، إذ قـال كل منهـم مخاطبـاً لقومـه: ﴿أَلَا تَتَّقُـونَ * إِنِّي لَكُـمْ رَسُـولٌ أَمِـينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُـونِ * وَمَـا أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْـهِ مِـنْ أَجْـرٍ إِنْ أَجْـرِيَ إِلَّا عَـلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهـذا الخطـاب يوضـح أن هدف الرسـالات الإلهية الأسـاسي هـو وضع حدٍ لمـا يقـع فيـه النـاس مـن الانحـراف والاسـتهتار، وإيقـاظ ضمائرهم للخـروج من تيـه الغفلـة واللامبـالاة وقفـص الجحـود والإنـكار، حتـى يقبلـوا على إصـلاح ما فسـد، ويهتمـوا بترميم ما تداعـى للسـقوط، ويحيوا حياةً إنسـانية نظيفة، منسـجمة مـع إرادة الله، لا تجلـب سـخطه وإنما تجلب رضـاه، وتتحقق بهـا في الأرض الخلافة عـن الله، وهـذا هـو معنـى «التقـوى» الـذي يدعو إليـه كافة الأنبيـاء والرسـل ﴿أَلَا تَتَّقُـونَ﴾، ولا طريـق لذلـك إلا تلقـي الرسـالات الإلهيـة عـن رسـل الله، الذيـن اختصهـم برعايتـه، وائتمنهم على رسـالته، وجعـل طاعتهم سـبيلاً إلى طاعته، فقال كل منهـم لقومـه عن أمـر الله وكلمتـه: ﴿إِنِّي لَكُـمْ رَسُـولٌ أَمِينٌ﴾.

2 – لا شـك أن تقديـم كتـاب الله لقصـص الأنبياء السـابقين، وتلاوة رسـوله للآيـات التـي نزلت في شـأنها عـلى المؤمنـين، وسـماع أخبارها في فجر الإسـلام من

(1) التيسير في أحاديث التفسير ج 4/ 384–392 بتصرف .

طـرف المكذبـين والكافريـن، ممـا يزيد المؤمنـين إيمانـاً على إيمانهـم، عندمـا يعرفون نجاة إخوانهـم الذيـن سـبقوهم بالإيـمان في سـالف الأزمـان، وممـا يزعـزع ثقـة المكذبـين والكافريـن بمعتقداتهـم الباطلـة، عندمـا يعرفـون المصير المفجـع الـذي آل إليـه أمـر المكذبـين بالرسـالات الإلهيـة، في القـرون الماضيـة، عسـى أن يذكـروا ويعتـبروا، ويتراجعـوا عـن باطلهـم ويزدجروا.

3 – مـن خـلال الحـوار الـذي دار في هـذه القصـص بـين الرسـل وأقوامهـم يتضـح لـكل ذي عينـين أن الرسـالات الإلهيـة منـذ فجرهـا الأول لم تكـن توجـه النـاس نحـو السـماء إلا لتلهمهـم طريـق الصـلاح في الأرض، وان هدفهـا الأول والمبـاشر كان هـو العمل على إصـلاح المجتمع البشري، والسـعي لتطهـيره من كل الشـوائب التـي تعوق سـيره إلى مـدارج الإحسـان.

– تنزيل رب العالمين: الآيات (192 – 209):

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ
ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن
يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا
كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ
بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ
نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ
جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن
قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾

في هـذه الآيـات تعقيـبٌ عـلى هـذا القصـص الذي اشـتمل عـلى أخبار سـبعة أنبيـاء مـع أقوامهـم، وهـذا التعقيـب ردٌّ عـلى مـا يـدور في خواطـر المشركـين ومـا يتهامسـون بـه حينـاً ويجهـرون به حينـاً، من أن هـذا القصـص إنما هو من أسـاطير الأولـين ومـن واردات هـذا المـورد الـذي ينبـع مـن الأوهام والخيـالات..

لـذا جـاءت الآيـات التاليـة وفيهـا بيـان (المصـدر الرباني لهـذا القصـص)[1]، وأن حاملـه إلى الرسـول هـو الـروح الأمـين جبريـل عليه السلام. ولكـن تمكّـن الكفـر من قلـوب المشركين قادهـم إلى الإصرار عـلى الجحود والعنـاد، وتضليـل العباد، حتى يأتيهـم العـذاب بغتـة؛ فيتمنـون لو أنهـم أعطوا مهلـةً أخرى لاسـتدراك مـا فات، وهيهـات هيهـات ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۞ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾. وتختـم آيـات هذا المقطـع بالتأكيـد على أن الله عـز وجـل لا يظلـم أحـداً مـن خلقه بـأي حـال ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۞ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

⏮ – نسف الشبهات وفضح الأكاذيب: الآيات (210 – 227):

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

تعـود الآيـات في هـذا المقطـع الختامـي للسـورة إلى (إبطـال الشـبهات) التـي يرددهـا أعـداء القـرآن، تنزيهـاً لكتـاب الله تعـالى عن أن تقرب الشـياطين سـاحته،

(1) وكأن آيات القصص كلها كانت كجملة اعتراضية بين الآية الأولى في السورة (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) وبين (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) تؤكد مصدرية القرآن ومصداقية قصصه وآياته وتؤكد على صدق المرسَل به وأمانته وصدق المرسل إليه.

أو تنهك حرمته وحصانته، وبينت كذلك استحالة وجود أي علاقةٍ بينه وبين الكهانة والكهان، وبينت أنه لا نسبة بين شعر الشعراء ووحي القرآن، فكتاب الله يعرض على الناس عقيدة ثابتة لا تتبدل، وشريعة حق خالدة لا تتحول، وهو يعبر عن حقائق كلية إلهية وكونية لا سبيل إلى إبطالها أو نقضها، ولا مناص من قبولها وعدم رفضها.

وبعد أن ردَّ على المشركين مزاعِمَهم الباطلة، وألزمهم بالحُجج الدامغة، وأوضح لهم الـمَحَجَّة الواضحة، وجه الخطاب إلى الرسول الأمين، يذكره بعشيرته الأقربين ومن اتبعه من المؤمنين، ويدعوه إلى المزيد من التوكل على الله، ويبشره سبحانه بالنصر على الأعداء، بعدما أعلن أنه منهم براء، لأنهم أصروا على الظلم والعصيان. (الآيات 214-220).

وبعد أن أبطل ما قالوه في القرآن العظيم، من أنه من قبيل ما تلقي الشياطين على الكَهَنة من الأباطيل، أبطل ما قالوه من أنه من قبيل الشعر، وأنَّ رسول الله ﷺ من الشعراء، على نهج القرآن في تكميل البيان. ثم استشهد على ضلال الشعراء و خداعهم، فيجعلون الحقَّ باطلاً، والباطلَ حقاً، والصِّدقَ كذباً، والكذبَ صدقاً؛ لمآربَ يطلبونها، ومطالبَ يقصدونها. (الآيات 221-226).

ثم ختم السورة بهذا التَّهديد الرهيب لأولئك المشركين الذين يرمونه ﷺ بهذه التهم الباطلة، تنفيراً للناس عنه، وتشويهاً لأمر الدعوة ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾. (الآية 227).

سورة النّمل

موضوع السورة:

(جاءت سورة النمل للدلالة على هدي الوحي، ونعمة إنزال الكتب وإرسال الرسل، والإشارة إلى بعض الأنبياء والرسل تعييناً، حيث بدأت بخطاب النبي ﷺ، ثم ذكرت خمسة من الأنبياء والرسل ممن قبله وهم: موسى عليه السلام، وداود وسليمان عليهما السلام، وصالح عليه السلام، ولوطاً عليه السلام.

وكان الله تعالى قد أهلك دولة فرعون الكافرة التي اضطهدت الأمة الإسلامية من أتباع موسى عليه السلام، وكان الله تعالى قد كتب لمؤمني بني إسرائيل قيام دولةٍ إسلامية في زمن نبيهم وملكهم سليمان بن داود عليهما السلام، لم يجعل لها مثيلاً من قبل ومن بعد، وجعل هذه المملكة والدولة حاكمة على غيرها، مبددةً لدول الكفر في زمانها في سياسةٍ خارجية قلما تجد لها مثيلاً في التاريخ. (مملكة قائمة على الحكم بالحق وعلى قوة العلم وحسن الإدارة).

وكان الله تعالى أيضاً قد أهلك أمتين من الأمم بمعصيتين سافرتين؛ أما إحداهما فلم تكتف برد دعوة رسول الله صالح عليه السلام، بل تأمَّرت على قتله رغم ما أيده به الله تعالى من المعجزة الحسية الباهرة التي طلبوها تعتناً وجحوداً. وأما الأخرى فقد جاءت بتنكيس عجيب لفطرة الله، ولم تكتف برد دعوة نبيها لوط عليه السلام إلى الإقلاع عن هذه الجريمة الخبيثة، بل أرادوه في بيته على ضيفه، فكان هلاكهم عبرة باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها).[1]

والسورة (ترسم منهاجاً لتربية النفوس على الإيمان والتقوى، وإعداد الدعاة على أسس العلم والتزكية ومن قبله الإيمان، وتصور أبعاد وحجم

(1) معالم السياسة الشرعية في سورة النمل ص 6–7 – د. وسيم فتح الله

المعركة التي يخوضها المؤمنون لإيصال دين الله إلى عباد الله. وهي تعرض مناهج لدعوة الناس إلى هذه الروافد الخيرة التي تحقق للإنسانية سعادة الدارين، بمختلف المناهج: العلمي والعقلي (لفت الأنظار إلى بديع صنع الله وعجيب خلقه)، والفطري (تذكير الفطرة بالتوحيد المغروس في كينونتها)، والعاطفي (إثارة وجدان الإنسان من خلال الترغيب والترهيب)، ومنهج القوة (الحسية والمعنوية)، وهي مبسوطة خلال خمس قصص للأنبياء السابقين، والمغزى العام من إيراد هذه القصص لهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو إقامة الموازنة بين موقف مشركي مكة خاصة والمنكرين والجاحدين عامة في الأمم الغابرة بذكر سبيل الفلاح والترغيب فيه، وبيان سبل الضلال والترهيب منها)[1].

مناسبتها لما قبلها:

كانت الآيات التي ختمت بها (سورة الشعراء)، دفاعاً عن القرآن الكريم، من أن يكون من واردات الشعر، كما كانت دفاعاً عن النبيّ ﷺ، أن يكون من زمرة الشعراء.. وكان بدء سورة «النّمل» حديثاً عن هذا القرآن من حيث أنه هدى وبشرى للمؤمنين الذين يؤمنون به، يتعاملون بأحكامه وآدابه، على حين أن الشعر يقوم عموده على غير هذا الطريق الجادّ المستقيم.. كما كان هذا البدء حديثاً عن النبيّ، بأنه بمعزلٍ عن الموارد التي يردها الشعراء، ويملؤون دلاءهم منها.. إنهم يأخذون ما توحيه إليهم شياطينهم، على حين أن النبيّ ﷺ يتلقى هذا القرآن وحياً من لدن حكيم عليم «وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ».

(1) الدعوة إلى الله تعالى دراسة مستوحاة من سورة النمل ص 165-166 بتصرف – د. عبد الرب نواب الدين

مقاطع السورة:

- إعجاز القرآن بين المؤمنين والكافرين : الآيات (1 – 6):

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلَّذِينَ
يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ
بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي
ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾

بدأت السورة ببيانٍ لما في القرآن من هدى وبشرى للمؤمنين، حيث يجدون في آياته البينة ما يكشف لهم معالم الطريق إلى كل ما هو حق وخير وإحسان ، في مقابل الكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة، فإن هذا القرآن لا يزيدهم إلا كفراً وضلالاً. (الآيات 1 –5).

ثم تلفت الآية التالية (6) نظر الشاكين والمكذبين إلى ما يتضمنه القرآن من الحق المبين، حتى يكونوا مما فيه على بينةٍ ويقين (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) و«الحكيم» لا يوحي إلا بالحكمة، و«العليم» لا ينطق إلا بالعلم، ومَن لم ينتفع بما في القرآن من علم وحكمة بقي معدوداً في عداد الجهلة والسفهاء، غريقاً في أوحال المغالطات والجدل والمراء.

- قصة موسى عليه السلام : الآيات (7 – 14):

﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ
لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا
وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ
فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ
لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

تعرض هذه الآيات حلقةً سريعة من قصة (موسى عليه السلام) بعد قوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)، وذلك ليقول لرسول الله إنك لستَ بدعاً في هذا التلقي، ها هو ذا موسى عليه السلام يتلقى التكليف وينادى ليحمل الرسالة إلى فرعون وقومه، وليس ما تلقاه من قومك بدعاً في التكذيب، فها هم أولاء قوم موسى تستيقن نفوسهم بآيات الله ولكنهم يجحدون بها ظلماً وعلواً.

وقد وصف الله تعالى فرعون وقومه في هذه الآيات بالفسق والفساد والظلم والاستكبار والاستعلاء، وكل واحدةٍ من الصفات توجب سخط الله وغضبه، وتعرض أهلها للدمار والهلاك، فما بالك إذا اجتمعت كلها في صعيدٍ واحد؟!.

– (سليمان عليه السلام .. والنملة .. والهدهد) : الآيات (15 – 44):

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾

إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾
وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ
عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩
﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ
إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾
إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ
قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ
قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم
بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ
ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ
لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن
يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ
لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا
رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ
لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ
ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا
مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي
ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ
قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

مناسبة هذه القصة لقصة (موسى وفرعون) هي أن الله سبحانه وتعالى يبتلي بنعمه من يشاء من عباده، فمنهم من يكفر بهذه النعم ويتخذ منها أسلحةً يحارب بها في مواقع الحق والخير، ويضرب بها في وجه المحقين والأخيار من عباد الله.. ومنهم من يتلقى هذه النعم بالشكر لله والولاء لطريق الله ولمن

يسلك هذا الطريق من عباده.

فهذا فرعون يمكّن الله له في الأرض ويبسط له الرزق، فيتحول من إنسانٍ إلى شيطانٍ مريد، وإلى إعصار عاصف يأتي على كل ما يزرع في منابت الحق والخير، على غير هذا تماماً كان موقف عباد الله المؤمنين الذين يعرفون لله قدره ويذكرون له فضله، ومن هؤلاء (داود وسليمان عليهما السلام).

(ولعل أبرز الوجوه التي تنفرد بها دعوة هذين النبيين الكريمين هو: التمكين لدعوتها، إذ جمع الله لهما النبوة والمُلك.. الشريعة الحافزة والسلطة الوازعة، ومن ثم لا ترى مقاومةً ولا تكذيباً ويختفي في دعوتها صلف (الملأ) واستكبارهم وعتوهم.. وترى من خلال سيرتها المباركة تلك النفس الزكية المستشرقة الأوابة التي تستشعر فضل الله وعظيم منته، فتؤوب إليه وتخشع له وتلهج بالحمد والشكر والثناء الجميل كلما سنحت فرصة أو تهيأ سبيل. ثم لم يكن التمكين لهما في الأرض بالذي يلهيهما عن الله وذِكره وشكره، وفي مثل هذا عظات بليغة للحكام والدعاة). [1]

ولك أن تتأمل في موقف سليمان عليه السلام وهو في أروع مظاهر سلطانه، وفي أعظم مجالي قدرته وقوته يقف بين يدى أضعف مخلوقات الله –وهي النملة– فيأخذ منها العبرة والعظة، وينظر من خلال ملكها إلى ملكه العريض فيرى أن لها سلطاناً كسلطانه، وملكاً كملكه، وسياسةً رفيقة رحيمة، فلا يملك إلا أن يخشع لسلطان الله بين يديها، ويسبح بحمده وجلاله: «رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ».

فأين موقف فرعون من هذا الموقف؟ وأين الأرض من السماء؟ وأين الباطل من الحق والعمى من الهدى؟ وأين أعداء الله من أولياء الله؟.

(1) الدعوة إلى الله تعالى دراسة مستوحاة من سورة النمل ص 196 بتصرف – د. عبد الرب نواب الدين

ثم تعرض الآيات (20 – 44) قصة (سليمان مع ملكة سبأ) وما فيها من مشاهد مثيرة وأحداث عظيمة، تنتهي بإعلان ملكة سبأ مفارقة ما كانت عليه من الشرك «الذي هو ظلم عظيم»، والدخول مع سليمان في ملة التوحيد. وتتجلى فيها الدعوة إلى الله بأبهى صورها: سياسة حكيمة وعدل وقوة علم وقوة جُند.

⏮ – (قصة ثمود وقوم لوط): الآيات (45 – 58):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ
يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا
تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ
قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ
يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَٰسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ
ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا
وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟
ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟
يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ
تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ
﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ
إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ
﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

مناسبة هذه القصة لما قبلها –والله أعلم– هي أن (ملكة سبأ)، مع ما كانت عليه من كفر موروث، حين رأت الصرح الممرد عرفت صدق سليمان وأنه على صلةٍ بالسماء، فآمنت بما آمن به هو واتبعت سبيله، وأن (قوم ثمود) قد طلع عليهم نبيّهم بآيةٍ من آيات الله هي «الناقة» فلم يروا فيها ما رأت ملكة سبأ في الصرح

المـرد؛ بـل كذبـوا نبيهـم صالـح عليه السلام ورموه بالسـفه.. فهـذا موقـف وذاك موقف. [1]

وكلا الموقفيـن بيـن يدى آيةٍ مـن آيات اللّٰه، فيكـون في تلك الآية عبرةٌ وعظـة لقوم وضلالٌ ومهلكـة لآخريـن. وانجلـت معركة الحـق التي كان يخوضهـا صالح عليه السلام لإزهـاق الباطـل -كما هـو المنتظر دائمـاً- بنجاته ونجـاة من معه مـن المؤمنين وهلاك المتآمرين المفسـدين.

ومـن قصة صالـح ومـا فيها من المثـلات والعبر، انتقلت الآيـات للحديث عن (قـوم لـوط)، وما ابتدعـوه من الفاحشـة الكبرى التـي غطت على بقيـة الفواحش، حتـى عـم مقتهـا وانتشر، بـين كافة البـشر، وفيهـا صورةٌ أخـرى من صـور الفسـاد في الأرض التي اسـتحقت العقوبة الشـاملة لتطهير الأرض من دنسـهم ورجسهم.

- أإلهٌ مع اللهِ: الآيات (59 - 64):

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾
أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ
ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ
يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ
وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن
يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ
ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن
يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ
﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ
هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

---

(1) ذكرت د. سمر الأرناؤوط تعقيباً على ما سبق: (وملكة سبأ يبدو أنها كانت عادلةً محاطة بمستشارين أهل رأي وحكمة، تلقت دعوة سليمان عبر رسالةٍ مكتوبة ألقاها هدهدٌ من جنوده ونظرت فيهاً واختبرتها، فلما تبين لها الدلائل الحقة على صدق سليمان وأحقية دعوته آمنت؛ أما ثمود فهم رفضوا استكباراً ولم ينظروا في دعوة صالح أبداً، وتجرّأوا على آية الله بدافع أهوائهم. فأنّى لهم أن يُعمِلوا عقولهم ليروا آية الحق فيرضخوا لها طائعين؟!).

بعد هذا العرض الكاشف الذي عرضت فيه الآيات (مواقف الكافرين من دعوة الحقّ) التي يحملها إليهم رسل الله، ويقدّمون بين يديها الآيات المحسوسة التي تنطق بقدرة الله وعظمته وتشهد لرسله بأنهم مؤيدون من عند الله، وبينت ما كان منهم من العناد والتحدّي ثم التطاول والتعدّي، وبينت ما نزل بهم من عقاب ساحق وعذاب ماحق.. دعا الله عز وجل نبيه ﷺ إلى حمده تعالى على نصرة المحقين، وهزيمة المبطلين، والسلام على أصفيائه المتقين، الذين بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة. (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى). (الآية 59).

ثم انتقلت الآيات للحديث عن دلائل وحدانيته وقدرته وحكمته، منتزعةً من واقع الكون وواقع الإنسان، إذ فيهما أوضح حجة وأسطع برهان. وفي هذا العرض المتد المختلف الصور والألوان لآيات الله في الأرض وفي السماء، وفي البر والبحر، لا يجد المكابرون والمعاندون سبيلاً إلى الإفلات والهروب من الإقرار بوحدانية الله.

وقد تناولت هذه الآيات (دلائل التوحيد) الخمسة وهي:

1 – دليل الخلق والإبداع من خلال الآفاق. (الآية 60).

2 – دليل العناية (وجود النظام الدقيق في شئون الكون). (الآية 61).

3 – دليل الفطرة، فلا ملجأ ولا ملاذ للمخلوقات عند وقوع الضر بهم إلا التوجه إلى الواحد الأحد. (الآية 62).

4 – إثبات صفات الكمال لله سبحانه وتعالى وتنزيهه عن صفات النقص، وعلى رأس هذه الصفات صفة الرحمة والهداية إلى المصالح المادية والمعنوية. (الآية 63).

5 – البراهين العقلية الإقناعية. (الآية 64).

- تفرد الله تعالى بمعرفة الغيب: الآيات (65 – 78):

﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٦٥
بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ
وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٦٩ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ
٧٠ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٧١ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم
بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ٧٢ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا
يَشۡكُرُونَ ٧٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٤ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي
ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٧٥ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ
ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي
بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٨﴾

بعد أن عرضت الآيات السابقة دلائل وحدانية الله وقدرته وحكمته البارزة في الأنفس والآفاق، وأعقب كل واحدةٍ منها قوله: (أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ). على سبيل التوكيد والتقرير أنه لا إله إلا هو الحق المبين، أشارت الآيات التالية إلى إحدى العقائد الأساسية في ملة التوحيد، ألا وهي انفراد الحق سبحانه وتعالى (بعلم الغيب) من دون أحد من خلقه (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)، ومن ذلك انفراده وحده بعلم وقت الساعة المحدود، وما يصاحبها من نشر وحشر، وعرض وحساب، وثواب وعقاب، ورغم ذلك فالمشركين قد طال جدالهم وزاد شكهم وحيرتهم في هذا الأمر، بل وصل سفههم وحماقتهم إلى استعجال العذاب. (الآيات 65–68).

لذا دعا الله رسوله الأمين إلى أن يحض الناس، مؤمنهم وكافرهم، على التجول في أرض الله، للتأمل والاعتبار، حتى تحدثهم عن مصارع الذين

أجرموا بأصح الأخبار (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ). (الآية 69).

ثم تأتي الآية (70) وفيها (عزاء) للنبي الكريم ﷺ في هؤلاء الذين أجرموا والذين حقَّ عليهم العذاب .. فليدعهم النبيّ لمصيرهم المشئوم هذا وليخلِ نفسه من لذعات الأسى والحزن عليهم (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ). مع (تهديد) للمشركين بأنهم لن يفلتوا من قبضة الله عز وجل، ولن يخلصوا من عذابه لما هم فيه من كفرٍ وضلال تمتلىء به صدورهم وتنطق به ألسنتهم، والله سبحانه يعلم ما يخفون وما يعلنون .. فأين يذهبون؟. (الآيات 71–75).

ثم جاءت الآيات التالية (76–78) لتلفت هؤلاء المشركين إلى علوّ هذا القرآن، وإلى أنه هو الذي يصحح لبني إسرائيل ما أحدثوا في الكتاب الذي بين أيديهم من تحريفٍ وتبديل حتى وقع بينهم هذا الاضطراب والاختلاف.

– عزاءٌ وتثبيت: الآيات (79 – 90):

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ
إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا
فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ
أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا
فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ
لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي
الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾
وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ
بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ
بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ۞

في هـذه الآيـات إمداداً للرسـول ﷺ بمـددٍ إلهي جديد، وهـو في خضم المعركة مـع قـوى الـشرك والإلحـاد، والـشر والفسـاد، وتثبيتـاً لفـؤاده حتى يتخطـى جميع العقبـات والمزالـق، وليريـح الحق سـبحانه وتعالى ضمير رسـوله من العنـاء الكبير، الـذي يلاقيـه ممـن طبع الله عـلى قلوبهم عندمـا لا يسـتجيبون لله ورسـوله ، وليرفع عنـه كل مسـؤولية في عـدم اسـتجابتهم، بعد بذل الجهـد البالـغ في أداء الأمانة، بين لـه أن مـن كان ميـت القلب، أصـم الأذن، أعمى البـصر والبصيرة، لا شـفاء له من دائـه، ولا أمـل في هدايتـه (إِنَّكَ لَا تَهْـدِي مَـنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِـنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَـاءُ). [القصـص 56]. (الآيات 79-81).

فـإذا أصبـح أكثـر البـشر «موتـى» القلـوب، قسـاةً لا يمارسـون أي نـوع من أنـواع الخـير والبر فيـما بينهم، «صـم» الآذان، لا يسـمعون نصيحـةً ولا موعظة، «عمـي» البصائـر والأبصار، لا يهتـدون في حياتهـم الخاصة والعامة سـبيلاً، وإذا نبـذوا التعاليـم الإلهيـة وراء ظهورهـم بالمـرة، يكون ذلـك إيذاناً بأنـه «قد حقت عليهـم كلمـة العـذاب»، لـذا جـاءت الآيـات التاليـة (82-85) بدءاً مـن قوله تعـالى: (وَإِذَا وَقَـعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَـا لَهُمْ دَابَّةً مِـنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُـوا بِآيَاتِنَـا لَا يُوقِنُـونَ). لتشـير إلى الوقـت الـذي يقـع فيـه سـخط الله وغضبه عليهـم، وعذابـه لهـم فخـروج الدابـة علامـةٌ مـن علامـات السـاعة، ومظهـرٌ «لكلمـة العـذاب» التـي حقت وقتئـذٍ عـلى الكافرين والفاسـقين، والشـاكين في ربهـم والجاحدين.

ثـم ذكَّـر الله عبـاده -ولا سـيما الجاحديـن والغافلين- ببعـض آياته البـارزة في الكـون التـي تـدل على مبلـغ علمـه، وقدرته وحكمتـه، حتـى يتدبروهـا ويتفكروا في نظامهـا المحكم الدقيق، ويسـتخلصوا مـن التدبر فيهـا نتائجه الحتميـة، (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّـا جَعَلْنَـا اللَّيْلَ لِيَسْـكُنُوا فِيـهِ وَالنَّهَارَ مُبْـصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَـاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

فهـذا الليـل الـذي جعلـه الله سـكناً لهـم، وهـذا النهار الـذي جعلـه الله ضياءً يكشـف ظـلام الليـل.. أليـس في هـذا شـاهدٌ يشـهد بالحـق، وينطق بوجـود إلـهٍ متفـرد بالقيـام على هـذا الوجـود؟!. (الآيـة 86).

وفي الآيات التالية (87-90) يردّ المشركون مرةً أخرى إلى الدار الآخرة عندما يبعثون ويقفون بين يدي الله، وقد تملكهم الخوف والفزع .. في مقابل ما خص به عباده المكرمين من الأمن يوم الفزع الأكبر.

- مفاصلة المكذبين: الآيات (91-93):

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

بهذه الآيات الثلاث تختم سورة النمل فيلتقى ختامها مع بدئها.. حيث بُدئت بعرض كتاب اللّه الكريم وما فيه من هدىً وبشرى للمؤمنين ومن خزى ووعيد للمشركين الضالين..

ثم تختم السورة بهذا الموقف الذي ينهى به النبي ﷺ ما بينه وبين قومه، إنه قد دعاهم إلى اللّه وبلغهم رسالة ربه وأسمعهم آياته، فليس لهم بعد هذا على اللّه حجة «فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ». (الآية 92).

وأن ينذر الكفار بأنهم سيرون آيات الله ووعيده الموعود رأي العين واليقين بعد أن سمعوها ولم يؤمنوا بها، وبأن الله ليس بغافلٍ عما يعملون وإن بدا أنه يمهلهم ولا يستعجل عليهم. (الآية 93).

سورة القصص

موضوع السورة:

(نزلت هذه السورة لتبين أن هناك قوةً واحدة مؤثرة في الكون ألا وهي قوة الله وحده، وأن هناك قيمة واحدة في الكون هي قيمة الإيمان.

وجاءت السورة لتقرر حقيقةً ثابتة على مرّ العصور أن النصر لا يأتي بالضرورة مع الكثرة والقوة، وإنما يأتي بأمر الله وحده فهو الناصر الذي ينصر عباده، فمن كانت معه قوة الله فلا خوف عليه، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع قوى الكون، ومن كتب الله عليه العذاب لا تنفعه كل استحكامات العالم.

ففرعون لما أخبره الكهنة بأن قتله سيكون على يد طفلٍ من بني إسرائيل، استخدم نفوذه وجبروته وسلطانه في قتل الأطفال من بنيٍ إسرائيل، ولكن يقظته وحذره وعيونه لم تمكنه من إزالة الخطر عن نفسه، ولم تدفع عنه خطر الطفل الصغير المجرد من كل قوةٍ إلا من قوة الله عز وجل؛ فكان هذا الطفل الذي تربى في حجر فرعون سبباً في إنهاء جبروت فرعون وسلطانه. وفي مقابل نهاية طغيان الملك والقوة (فرعون)، ذكرت نهاية طغيان المال (قصة قارون) الذي خرج على قومه بهيئة المتبختر وهو يحسب أنه أوتي هذا المال والعلم عن ذكاءٍ ودهاء؛ فانقسم قومه على فريقين: فريق فُتن به وتمنوا مكانه، وفريقٌ آخر هم عباد الله الصالحين لم يهتزوا بهذه المظاهر الزائفة.

وهنا تتدخل قوة الله فتخسف به وبداره الأرض، فلا يغني عنه ماله وعلمه من الله شيئاً. وقصة قارون مرتبطة كلّ الارتباط بنهاية فرعون وطغيانه، فالقصتان تعبران عن استمرار الإنذار الإلهي). [1]

---

(1) سورة القصص دراسة تحليلية ص 22 بتصرف – د. محمد مطني

مناسبتها لما قبلها:

جـاء في سـورة الشـعراء، ثم في سـورة النمـل -السـابقتين على هذه السـورة- حديـث موجـز عن موسـى وفرعـون.. وجاء في هـذه السـورة بيانٌ مفصّـل للفترة الأولى مـن حياة موسـى عليه السـلام.

تحدّثـت عـن مولـده، وإلقائه في اليـم، والتقـاط آل فرعون له، ونشـأته في بيت فرعـون، ثـم قتله المـصري، ثـم فـراره إلى مدين ولقائـه الشـيخ الصالـح، وتزوّجه بإحـدى ابنتيـه اللتـين لقيهـما على مـاء مدين، وسـقى لهما.

مقاطع السورة:

- سنة الله في إنقاذ المستضعفين وعقاب المفسدين: الآيات (1 – 13):

﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ
بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ
طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤ وَنُرِيدُ أَن
نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥
وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ
٦ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا
تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ
لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨ وَقَالَتِ
ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا
يَشۡعُرُونَ ٩ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا
عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ
وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١١ ۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ
يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ
وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾

بـدأت السـورة بوصـف الكتـاب بكونـه « مبينـاً » لأنـه يبـين ويميـز الحـق مـن الباطـل، والحـلال مـن الحـرام، والهـدى مـن الضـلال، في العقائـد والشرائـع والأقـوال والأفعـال. (الآيـات 1-2).

ثـم شرعـت في الحديـث عـن فرعـون الـذي لبـس ثـوب الجـبروت والطغيـان، وصـورت علـوه واسـتكباره، واسـتعباده لطائفـةٍ بنـي إسرائيـل، ثـم بينـت منـة الله عز وجـل عـلى هـؤلاء المسـتضعفين وبيان أن إرادته هـي الغالبة والقاهـرة. (الآيات 3-5).

ثم في الآيات التالية (6-13) يكشـف الله سـبحانه وتعالى عن الأسـباب التي يقيمهـا سـبحانه لتمضي بهـا إرادتـه وتتحقق مشـيئته، ويـبرز هنا مظهرٌ مـن مظاهر العنايـة الإلهيـة، فقـد سـخر الحـق سـبحانه وتعـالى - وهو اللطيـف الخبـير - لإنقاذ موسـى مـن الغـرق والقتـل أعـدى أعاديه مـن آل فرعـون، وحـرم عليـه المراضع لـيرده إلى أمـه كـي تقر عينهـا بوليدهـا وتوقن بوعـد ربها وتسـعد ببشـارته إليها.

- قتل موسى عليه السلام للقبطي وفراره إلى مدين: الآيات (14 - 21):

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾
وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن
شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ
فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ
نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ
عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى
ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن
يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن
تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ
أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ
ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾

بعدما اهتمت الآيات السابقة بوصف (الطور الأول) من حياة موسى (تهيئة موسى في مرحلة الطفولة، ثبات عاطفي في حضن الأم)، تبدأ هذه الآيات بإبراز مرحلة (نضجه وشبابه) (تهيئته في مرحلة الشباب: قوة واندفاع الشباب لإغاثة الضعيف)، ووصف ما آتاه الله من عقلٍ وفهم، ومعرفة بدين آبائه الصالحين، وتهتم بما اعترض حياته في هذه الفترةً من الحادث المزعج، الذي أدى إلى مقتل أحد الرعايا الفرعونيين، وما واجهه عقب ذلك الحادث من مخاوف ومتاعب، حتى اضطر لأن يفارق مصر إلى بلدٍ لم تبق فيه سلطة لفرعون وآله، فراراً من عقابه وعذابه.

– موسى عليه السلام في مدين ولقاء الشيخ الصالح: الآيات (22 – 28)

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ
مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ
تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ
﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ
﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ
مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ
ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ
حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ
فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

هنا تنتقل الأحداث نقلةً بعيدة، حيث نرى موسى في «مدين» وهي على أطراف الجزيرة العربية من جهة الشام، وقد جاءه الغوث والفرج من خلال لقائه بالشيخ الصالح وزواجه من إحدى ابنتيه، ذلك بينما كنا معه منذ لحظةٍ

في مصر وفي أحشاء عاصفةٍ هوجاء لم يكن أحد يقدّر له الخلاص منها.. فما أعجب لطف الله عز وجل، وما أسرع نجدته لعباده الصالحين متى تضرعوا إليه وطمعوا في كرمه وفضله!.

– موسى عليه السلام بين تلقي الرسالة ومواجهة فرعون: الآيات (29 – 42):

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ
ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ
تَصۡطَلُونَ ٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ
ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا
تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ٣١
ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ
فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٣٢
قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي
لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ
بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ
٣٥ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا
بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ
وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا
عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا
لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ
فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ
فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ
أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي
هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢﴾

في هذه الآيات تبدأ مرحلةٌ جديدة من مراحل المسيرة التي تتحرك فيها الأحداث إلى غايتها .. فها هو ذا موسى قد وفى بالعهد الذي بينه وبين الشيخ الصالح وقضى الأجل، ثم تحركت أشواقه إلى أهله وقومه بمصر فأخذ زوجه وسار عائداً على الطريق الذي جاء منه، وهنا يتم تكليفه بالرسالة، وتزويده بالمعجزات اللازمة لمواجهة طغيان فرعون وجبروته.

ثم ذكرت الآيات ما بين موسي وفرعون من مناظرة ومجادلة، ووصفت ما كان عليه فرعون وجنوده من عتو واستكبار، وإهدار لحقوق الخلق واستهتار، ثم عقب على ذلك بإغراقهم في البحر وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، جزاءً وفاقاً لكل طاغية متجبر، (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ). (الآيات 39-40).

وكما كافأ الله (أئمة الهدى) الذي يدعون الناس إلى الخير، فجعل لهم «لسان صدق» أي لسان «مدح ومبرة» في الآخرين، كافأ (أئمة الضلال) الذين يدعون الناس إلى الشر، وجعل لهم لسان «قدح ومعرة» في الدنيا ويوم الدين، (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ). (الآيات 41-42).

⏮ - بين إيتاء الكتاب لموسى عليه السلام والقرآن لمحمد صلى الله عليه وسلم وتكذيب الكفار لهما: الآيات (43 - 50):

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ
يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ
كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ
أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

شاءت قدرة الله أن يكون قيام موسى عليه السلام بتبليغ دعوته المقرون بالقضاء على فرعون ودولته، تمهيداً لإكرام موسى بنزول التوراة عليه، وإقامة نظام جديد مستمد من الوحي الإلهي ومستند إليه، (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ). (الآية 43).

ثم يذكر الله عز وجل خاتم رسله بالمراحل التي قطعها موسى في حياته قبل أن يولد هو ويبعث بقرون، ويعرفه بالوقائع والمواقع التي تألفت منها قصة موسى بدءاً وختاماً، الأمر الذي لا سبيل إلى معرفته، والتعرف عليه على حقيقته، لولا الوحي الذي أكرم الله به رسوله، وجعله برهان صدقه ودليله، يتحدى به الجاحدين والمكابرين. (الآيات 44-46).

وتعرج الآيات (48-50) بعد ذلك على موقف المتعنتين المعاندين الذين تمسكوا بالضلال حتى بعد إعلان الرسالة ونزول الكتاب، وأخذوا يشترطون للإيمان بخاتم الرسل أن يكون له من الآيات مثل ما أوتي موسى من قبل، والحال أنهم لم يؤمنوا برسالة موسى، رغماً عن الآيات التي قارنت رسالته، وبينت الآيات أنهم عباد هوى وأتباع ضلال، لا يبحثون عن الحق ولا يهتدون إلى الصواب.

- سنن الهداية بين ضلال المشركين وإيمان أهل الكتاب: الآيات (51 - 61):

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا
مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ
ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟
لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى
مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن
نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ
إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ
إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ
فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا
ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ
خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ
مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾

كانت الآيات السابقة تمهيداً للقاء المشركين وعرضهم على كتاب اللّه عرضاً مباشراً بعد أن رأوا ما هم فيه من ضلال وعناد ومكابرة في الحق، وأنهم وفرعون في هذا المقام على سواءٍ حتى لكأنهم أبناؤه الوارثون لكل ما عُرف عنه من جور وجبروت.

وفي هذه الآيات (تحريضٌ) للمشركين من قريش- ومن العرب عامة- إلى المبادرة بأخذ حظهم من الكتاب الذي نزل عليهم، وضرب لهم المثل، لمن اغتنم فرصة ظهور الرسالة الخاتمة، فبادر إلى (اتِّباع النور الرباني)،

بفريق من أهل الكتاب ما كادوا يسمعون رسول الله يتلو كتاب الله حتى أعلنوا إيمانهم، واعترفوا بأن ما جاء به من عند الله هو الحق الذي لا غبار عليه، وقد مدح الله صبرهم على أذى المكابرين، وإعراضهم عن مهاترات الكافرين. (الآيات 51–55).

ثم بينت الآيات أن إلقاء (نور الهداية) إلى الحق في قلب هذا الفريق أو ذاك، أمرٌ فوق طاقة الرسول مهما كان حريصاً عليه؛ ولو كان الأمر يتعلق بأقرب الأقربين إليه ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. (الآية 56).

وانتقلت الآيات لتفنيد (أعذار المتثاقلين) عن الاستجابة لله ولرسوله، ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾، مبينةً لهم أن الطغيان بالنعمة والغرور بها وسوء التصرف فيها، والاستكبار على الحق والخلق من أجلها، وعدم التوجه بالشكر إلى الله الذي أنعم بها، يؤدي حتماً إلى زوالها ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾، وبين لهم سنته في (هلاك القرى الظالمة) بعد إمهالهم وإقامة الحجة عليهم ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾. (الآيات 57–59).

ثم التفتت الآيات إلى أولئك المنهمكين في جمع الحطام من الحلال والحرام، الذين تملكتهم شهوة الطمع والشَّره، مذكراً إياهم بالمصير المحتوم، في انتظار اليوم المعلوم، الذي يجب له الاستعداد، والتزود بخير الزاد، ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. (الآيات 60–61).

⏮ – دعوة إلى النجاة قبل فوات الأوان : الآيات (62 – 75):

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ
عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا
يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ
كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ
ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن
يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ
لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ
ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن
جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم
بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ
شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا
هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

بعد أن ردّ القرآن الكريم على حجج المشركين، وبَّين تهافتها بتأكيده على أن الأمن يكون بالقرب من الله، وأن الخوف في البعد عنه، يجول النص بهم جولة أخرى بعرض مشهد من (مشاهد يوم القيامة) وما يحصل فيه من الإهانة والتقريع والعذاب للمشركين، وكيف تسقط في يوم القيامة من بين أيدي المشركين الكفرة أعذارهم، ويتخلى عنهم من اعتقدوا في الدنيا أنهم ينصرونهم من دون الله. وهذه المشاهد المروعة تدعو كل عاقلٍ إلى المبادرة بالإيمان والإذعان قبل معاينة الهوان والخسران. (الآيات 62–67).

وانتقلت الآيات إلى الرد على تطفل المتطفلين من عتاة المشركين، الذين أرادوا أن يكون الترشيح للرسالة تبعاً لأهوائهم وعصبياتهم القبلية الجاهلية، وخادماً لمصالحهم على حد قولهم: (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ). [الزخرف 31]، مبينا أن إرادة الله فوق كل اعتبار، وهي أساس الاختيار لرسالة المصطفى المختار. (الآيات 68-69).

وذكَّرت الناس أجمعين، بحقيقة التوحيد الكبرى القائمة إلى يوم الدين، وكمثالٍ بارز على ألوهيته وربوبيته وتدبيره الحكيم دعا الناس أجمعين في هذا المقام إلى التفكير في ظاهرة تعاقب الليل والنهار وتبادل الضياء والظلام، بنظامٍ وانتظام. (الآيات 70 – 73).

ثم عادت الآيات إلى تقريعهم وتبكيتهم مرةً أخرى من خلال تخلي الشركاء الموهومين عنهم، وإدراكهم -بعد فوات الأوان- أن إشراكهم لم يكن عن دليلٍ صحيح، بل كان عن محض الهوى. (الآيات 74-75).

– قصة قارون.. الاستعلاء والطغيان بالثروة والمال: الآيات (76 – 84):

۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ
لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾
وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن
كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾
قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ
مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ
عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ
قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ
خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ
ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾

وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

مناسبة قصة قارون لقصة فرعون:

هناك مناسبة لطيفة بين قصة (قارون) وقصة (فرعون)، حيث عرضت السورة في بدايتها قصة فرعون كنموذج للطغيان السياسي (قوة السلطات والحكم)، وكيف باءت بالبوار مع البَغي والظلم والكفران بالله والبعد عن هداه، والآن تجيء قصة قارون لتعرض نموذجاً للطغيان الاقتصادي الداعم للحاكم حفاظاً على مصالحه الشخصية (سلطان المال والعلم)، وكيف ينتهي بالبوار مع البغي والبطر والاستكبار على الخلق، وجحود نعمة الخالق.

مناسبة قصة قارون لما قبلها من الآيات:

(بعد أن بينت الآيات السابقات (تخلي الشركاء يوم القيامة) عن الاستجابة لمن اتخذوهم شركاء، وضل عنهم ما كانوا يفترون، يبين الله جَلَّ وَعَلا في هذه الآيات (تخلى المال عن صاحبه المغتر به)، وانتفاء الانتفاع به، وانعدام الفائدة له في إنقاذه من عقاب الله تعَالَىَ ليستكمل المعنى أنه لا ناصر إلا الله، ولا معز إلا الله، فنلاحظ الترابط بين الآيات والتلازم بين المعاني)[1].

ومن وصف الآيات لقارون يكتشف المؤمنون نموذجاً غريباً من حياة المترفين الأغرار، وما هم عليه من كبر وبطر وعتو واستكبار، ويشاهدون الصراع القائم بين «العلم السطحي الأعمى» الذي هو أسير الشهوة والأثرة

(1) سورة القصص دراسة تحليلية ص 194 – د. محمد المطني

والأنانية، و»العلم العميق المستنير» الذي هو المعيار الصحيح لتمييز الحق من الباطل، والنعيم الباقي من النعيم الزائل.

وبقدر ما كانت «خرجة» قارون في زينته [1]، محفوفاً بالحشم والخدم، لافتةً للأنظار، مثيرةً للأفكار، ها هو الحق سبحانه وتعالى يأخذه أخذ عزيز مقتدر بشكل يدهش العقول ويبهر الأبصار،(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ).

قوله تعالى: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ». (الآية 83).

ولعلك تسأل ما علاقة هذه الآية بما قبلها، وما هو دورها في هذا السياق؟

بعدما سجل كتاب الله نفاذ حكمه القاهر فوق عباده، في (فرعون الطاغية المتجبر)، وفي (قارون المغتر بكنوزه)، انتقلت الآيات إلى تقرير حقيقة عامة تشمل كل الطغاة المفسدين، وعتاة المترفين، مبيناً أن من لم يعمل على إقامة العدل بين الناس، ونشر الصلاح في مجتمعاتهم، لن يكون له أدنى حظ من النعيم المقيم في دار الخلود، (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ). وتقوى الله هي الحاجز الحصين من الوقوع في شرك الفساد، وهي الدواء الناجع لعقدة الاستعلاء والاستبداد.

وبين جزاء الحسنات وعاقبة السيئات في الآخرة حيث يتجلى عدل الله في إكرام المحسنين وعقاب المفسدين. (الآية 84).

(1) وهي خرجة مقصودة من قارون وأمثاله أمام العامة تؤكد لهم الفرق الشاسع بينهم وبين المستكبر بماله ترضي غروره ويحطّم بها شخصياتهم لينقادوا إليه انقياد القطيع طالما لا يمكنهم مجاراته أو الوصول لما وصل إليه .

⏮ – وصايا على طريق الحق: الآيات (85 – 88):

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يتوجه الخطاب في الآيات الأخيرة من هذه السورة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، يمن عليه بنعمة الوحي الذي آتاه، ويأمره بالثبات على الحق والصمود في وجه أعداء الله، ويعرفه بأنه مسؤول عن رسالته أمام الله، ويوصيه بمفاصلة المشركين والبراءة منهم . (الآيات 85–87).

وعندما أشرفت «سورة القصص» على النهاية، ذكر الله عز وجل كافة البشر، وفي طليعتهم كل من طغى وتجبر، بحقيقةٍ أزلية كبرى تتهاوى أمامها جميع الادعاءات الزائفة والتحديات الباطلة، ألا وهي أن الله تعالى هو وحده الحي القيوم، الدائم الحياة والبقاء، الذي لا يلحقه موتٌ ولا فناء، المتصرف في ملكه والقاهر فوق عباده من كافة الأحياء دون استثناء، (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ). (الآية 88).

فإذا سلم للمرء دينه وخسر كل شيء فهو الذي ربح كل شيء ولم يخسر شيئاً، لأن كلَّ شيء هالٌك وإلى زوال (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ). (الرحمن 27).

تعقيبٌ على سور الطواسين (الشعراء – النمل – القصص):

ذكرت د. سمر الأرناؤوط علاقةً لطيفة بين سور الطواسين الثلاثة بما قبلها وما بعدها:

(إن سور الطواسين الثلاثة –والله أعلم– تكمل موضوعاً واحداً كل منها ترسم زاويةً من الصورة الكاملة، فبعد (الفرقان) الذي فرَّق به بين الحق والباطل، تأتي سورة (الشعراء) لتبين وسائل العمل بهذا الفرقان، ألا وهو الإعلام الحق في مواجهة الإعلام الباطل، فدور الإعلام لا يخفى على أحد في بناء الأمم والمحافظة عليها، لتأتي بعدها سورة (النمل) تبين وسيلةً ثانية ألا وهي الحكم القائم على العدل والعلم وحسن الإدارة الداخلية والخارجية، وبعدها تأتي سورة (القصص) والتي فيها وسائل حماية الأمة من طغيان الطغاة الفاسدين في الحكم المتمثلة في فرعون وإعانة الظالم على ظلمه المتمثلة في طبقة السياسيين الفاسدة ونموذجها هامان، ثم الحماية والحذر من أصحاب المصالح الخاصة من داخل الأمة نفسها المنتفعين بالسكوت عن الظلمة، ونموذجها قارون الذي كان من بني إسرائيل قريباً لموسى عليه السلام، وحين تحسن الأمة اختيار الحاكم وملئه وإدارته على أساس العدل الذي أرساه منهج القرآن يمكّن الله تعالى لها في الأرض.

وإذا مُكن للأمة فلا بد من أن يتربص بها أعداء الداخل والخارج فتأتي بعدها سورة (العنكبوت) لتعلمنا أن التمكين أمرٌ والمحافظة والثبات عليه أمرٌ آخر ويحتاج إلى مجاهدةٍ حقيقية للنفس للفرد والأسرة والمجتمع والأمة، وسيحاول الأعداء التهويل والتخويف بأكثر من أسلوبٍ ليستسلم الفرد ويحيد عن طريق الحق وينشغل بدنياه عن أخراه).

سورة العنكبوت

موضوع السورة:

(إن من يتأمل السورة الكريمة في مطلعها ليدرك ببساطةٍ شديدة أن المقصد الأساس الذي جاءت به هو التأكيد على أن الابتلاء سنة كونية من الله في خلقه لتمييز الصادقين من الكاذبين.

والملاحظ أن السورة في افتتاحها تناولت ذكر المطلوب وهو المجاهدة والصبر والصدق في الإقبال على الله، وفي اختتامها تناولت الجزاء العظيم على ذلك بالمعية والتوفيق والثواب العظيم.

وما بين الافتتاح بالمطلوب والختام بالموعود تتناول السورة الكريمة جانباً من قصص الأنبياء السابقين ليكون في ذكرهم وذكر أقوامهم مددٌ وعون للسالكين مهما اشتدت العقبات وكثرت الأشواك، وكأنها تقول لهم: إن الطريق قصير فاثبتوا وإن بدا لكم غير ذلك فلا تثنيكم عقبة ولا تصدكم طعنة. فمهما طالت المدة فأمامكم نوح عليه السلام، ومهما اشتدت المحنة فأمامك إبراهيم عليه السلام، ومهما شذ الأعداء وانتكسوا وخرجوا عن كل معقول فأمامكم لوط عليه السلام.

وهي كذلك تعطي القوة للمؤمنين المجاهدين الصادقين وتؤكد لهم أنهم أصحاب القيمة الحقيقية في هذه الحياة، لأنهم أهل الحق وهم الأجدر بالخلافة عليها، لأنهم المتصلون بالله، القائمون على الأرض بمنهج مَن استخلفهم. أما من سواهم فما هم إلا كالعنكبوت هم أضعف وأقل من أن يلتفت إليهم أو يأبه بهم.

إذن فمقصد السورة هو الفتنة والابتلاء، وكل ما جاء في السورة من موضوعات إنما يدور في فلك هذا الموضوع ولا يخرج عنه من أنواع البلاء وصوره والعوامل المساعدة على النجاح فيه وثمراته).(1)

مناسبتها لما قبلها:

كان ختام (سورة القصص) دعوةً إلى النبيّ الكريم ﷺ وإلى المؤمنين جميعاً أن يكون ولاؤهم كلّه لله ولدين الله، وأن يكون ما بينهم وبين أهليهم وذوي قرابتهم من وراء هذا.

ثم كان بدء سورة «العنكبوت» إعلاناً صريحاً للمؤمنين بما انطوى عليه ختام سورة «القصص»، وهو أن الإيمان له تبعاته وأعباؤه التي يجب أن يتحملها المؤمنون في رضا، وأن يتقبلوها في صبرٍ واحتساب لما وعدهم به الله سبحانه وتعالى من ثواب عظيم وأجر كريم.

مقاطع السورة:

– سنة الله في ابتلاء المؤمنين : الآيات (1 – 7) :

﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ٤ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ
ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ
ٱلْعَٰلَمِينَ ٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٧﴾

(1) ابتلاء المؤمنين في ضوء سورة العنكبوت ص 29 بتصرف – د. حسين عبد الحميد البراً راجع أيضاً بحث علم المناسبات بين السور والآيات للمؤلف، وقد استفدت منه كثيراً في بيان أوجه الترابط بين مقاطع السورة.

افتتحت السورة بتعريف المؤمنين الصادقين بأن ما هم عليه من إيمانٍ لا بد أن يجلب لهم كثيراً من المتاعب، فالمعركة الدائرة بين الخير والشر، والحق والباطل لا تفتر أبداً، وما عليهم إلا أن يوطنوا أنفسهم على الصمود في وجه الباطل، وتحمل ما تفاجئهم به الأيام من الفتن والمحن، فمن لم يثبت ولم يصمد أمام المحن اندرج في عداد الكاذبين، ولم يكن من المؤمنين الصادقين. (الآيات 2–3).

ونبهت الآيات إلى أن الذين يعملون السيئات، ظناً منهم أن الله لا يراهم ولا يحاسبهم، لن يفلتوا من قبضة الله، وأنه سيؤاخذهم بما كسبوا عاجلاً وآجلاً، (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ). (الآية 4)، في مقابل تطمين الذين يرجون لقاء الله، ووصل قلوبهم به في ثقة وفي يقين (مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ). (الآية 5).

ثم بشر المؤمنين الصادقين بثمرة جهادهم للنفس، وثمرة جهادهم لأعداء الحق (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۞ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ). (الآيات 6–7).

– من صور الابتلاء : الآيات (8 – 13):

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا
تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ
فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ
بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا
هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ
وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

بعدما تحدثت الآيات السابقة عما يتعرض له الإنسان من فتنٍ ومحن، وما يلزمه من الصبر عليها في سبيل الحفاظ على عقيدته المثلى، والتمسك بدين الحق، نبهت هذه الآيات إلى ثلاثة أنواع من الفتن:

1 - فتنة الوالدين والأقربين : (الآيات 8-9)

وهي الفتنة التي يتعرض لها المؤمن الصادق من أقرب الأقربين إليه، ألا وهو أن يكون أبوه وأمه على خلاف عقيدته، وأن يحاول كل منهما الضغط عليه لمتابعتهما على الباطل، كما وقع من بعض الوالدين عند بدء ظهور الإسلام.

وبيان الموقف الذي يقفه الابن المؤمن من والديه المشركين في الالتزام بجانب الإيمان وعدم طاعتهما في معصية الله.

2 - فتنة المذبذبين في العقيدة من ضعفاء النفوس: (الآيات 10-11)

وهذه الفئة متى تعرضت لنوع من أنواع الأذى في سبيل الله استعظموا الأمر وتراجعوا إلى الوراء، وتلمسوا رضا الناس عنهم بدلاً من رضا الله، وعلى العكس من ذلك متى جاء النصر من عند الله حشروا أنفسهم في عداد المؤمنين، وأكدوا لمن لا يعرفهم أنهم كانوا في طليعة المنتصرين.

3 - فتنة الإغراء بالكفر وتزيين الباطل : (الآيات 12-13)

وهذه الآيات تعرض فتنة أئمة الكفر وزعماء الضلال، ممن يدعون الناس إلى متابعتهم على الباطل، متعهدين لهم، مقابل ذاك بحمل خطاياهم وتحريرهم من كلفة الحساب وتبعة العقاب، وأكدت أن أولئك الذين تعهدوا بحمل خطايا أتباعهم سيحملون خطايا أنفسهم مع خطايا أولئك الأتباع المضللين، وبذلك يطول حسابهم، ويتضاعف عقابهم، جزاءً وفاقاً، ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

- نماذج الفتن عبر التاريخ [1] : الآيات (14 – 40):

في هـذه الآيـات ذكـر الله الأنبيـاء في عرضـه لنـماذج الفتـن عـبر التاريخ ليعلـم غيرهـم مـن عامـة النـاس أن الله أرسـلهم بـشراً يعانـون مما يعـاني منه النـاس، وهم رغـم كرامتهم على الله إلا أن الله شـدد عليهـم في البلاء والمحنة ليكونوا أسـوةً لبقية النـاس في الصبر والمجاهدة والتحمـل، وليعلم الناس أن الابتـلاء كرامـةٌ مـن الله وليـس امتهانـاً كما يظنه بعـض من ضعفـت أفهامهم ممـن قـال الله عنهم: (وَأَمَّـا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَـدَرَ عَلَيْـهِ رِزْقَهُ فَيَقُـولُ رَبِّي أَهَانَنِ). (الفجـر 16). فمـن تأسـى بالأنبيـاء فـاز ونجـا واسـتحق مـن الله التكريم، وقـد سـاق الله تعـالى في سـورة العنكبـوت أمثلـة ونـماذج لاقـت مـن المحن صنوفـاً وألوانـاً منها:

1 - ابْتِلاءُ نُوحٍ عليه السلام : الآيات (14-15):

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥﴾

اقتـصر في ذكـر قصـة نـوح عليه السلام عـلى هاتـين الآيتـين اللتـين تصـوران المحنـة في أبـرز معانيهـا مـن حيث (طـول أمـد الفتنـة) والابتـلاء والأذى، حيـث ذكـر المـدة وأعقبها بذكـر النهايـة والمصير الـذي آل إليه أمـره بصبره ومجاهدتـه، لنتعلـم أنـه مهما اشـتد البلاء وطال فـإن له نهاية، وعلى الإنسـان أن يوجـه نظـره للعاقبـة حتـى يسـتمد منهـا طاقـة النـور التـي تعينـه عـلى المجاهـدة والصبر.

(1) راجع ابتلاء المؤمنين في ضوء سورة العنكبوت ص 120 وما بعدها0

2 - فِتْنَةُ إِبْراهِيم عليه السلام: الآيات (16-27):

﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ ١٦ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ
وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا
عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ
ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠ يُعَذِّبُ مَن
يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا
فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٢٢ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٣
فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٤ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ
بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ
بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥ ۞
فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ
إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ
وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾

جاء الحديث عن فتنة إبراهيم عليه السلام من وجهٍ آخر وهو وجه (الشدة والمحنة العصيبة)، حيث جاءت الفتنة على حقيقتها وأصل مدلولها اللغوي وهو الإحراق بالنار، وذلك أنه دعا قومه إلى التوحيد واستخدم في ذلك كل ألوان الإقناع الحسية والعقلية وبصَّرهم بخطر ما هم عليه، وذكرهم بالعاقبة السيئة التي تنتظرهم إن هم داوموا على العناد والكفر، فلم يكن منهم إلا أن

تداعـوا إلى النـار العظيمـة فأوقدوهـا ثم طرحـوه فيها، وهـل فوق الطـرح في النار من بـلاء؟.

3 - مِحْنةُ لُوطٍ عليه السلام : الآيات (28-35) :

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا
مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ
وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟
ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟
أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟
نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾
وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ
وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا
مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾
وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

تـأتي محنـة لوط على محـور آخر غير الذي جـاء عليه ابتلاء نـوح وفتنة إبراهيم، وهـو خـروج قومه عن كل مألوف و(انتكاسـتهم عـن الفطرة السـوية) التي خلقوا عليهـا بـشراً كرمهـم الله ورفـع قدرهـم.. فارتـضى الذكـران إتيـان الذكـران دون الإنـاث، واشـتدت في ذلك شـهوتهم المنحرفة عـن كل مألـوف ومعروف.[1]

(1) ذكرت د. سمر الأرناؤوط أن : (الترف الفكري وعدم الانضباط بقيم الدين والشرع في بعض المجتمعات يجعلهم يتطاولون على كل قيمة أخلاقية فمن أمِن العقوبة أساء الأدب، وهذا ما يحصل في هذا العصر من التسويق للشذوذ الجنسي).

4 -ابْتِلاءُ شُعيْبٍ عليه السلام : (الآية 36):

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

وابتلاء شعيب عليه السلام جاء في صورةٍ أخرى غير الصور السابقة مع الاشتراك في التكذيب والمصير السيئ، إلا أن المحنة هنا في صورة (مجتمع جشع) لا يحرص أصحاب المال والسطوة فيه إلا على أنفسهم، ولا يبالون بغيرهم من شرائح المجتمع المختلفة.

5 - إشارة سريعة لقوم عاد وثمود، وفرعون وقارون: (الآيات 38-40):

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

وختم هذا المقطع بالإشارة إلى جملة من الأقوام والأفراد اشتهروا بالجحود والعناد (الآيات 38-39)، ثم أجملت الآيات أنواع العذاب الذي نزل بهم جزاءً ما ارتكبوه من طغيان وفساد (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ...). (الآية 40).

وتوسط ذكر فرعون بين قارون وهامان في السورة تحديداً فيه إشارة إلى فتنة عظيمة وهي فتنة السلطان الجائر مدعوماً من فسادٍ مالي وفساد إداري – والله أعلم.

⏮ - كمثلِ الْعنْكبُوتِ اتخذتْ بيْتاً: الآيات (41 - 45):

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

لما ذكر الله عز وجل بعضاً من تلك (الأقوام الضالة) التي كذبت برسل الله واستمسكت بما كانت عليه من شرك، جاء هذا المثل البديع ليجسد صورة هؤلاء المشركين - وما عبدوا من دون الله ليكون لهم منها قوة وسنداً- فكان مثلهم في ذلك مثل العنكبوت حين تتخذ لها بيتاً تقيمه حولها وتسكن إليه وتحتمي به، إلا أنه لا يثبت لأية لمسة من ريح عابرة أو حشرة طائرة. وإن هذه الآلهة التي دخل القوم في حماها لهي أوهى من بيت العنكبوت لا تدفع عن الداخلين في حماها أذى ولا ترد شراً. (الآيات 41 43-).

ثم عقب على هذا المثل الذي صور (ضآلة الباطل) ببيان (الميزان الحق) الذي قامت عليه السموات والأرض، وهو الذي ينبغي على كل عاقل أن يتخذ منه نوراً يهديه لدربه ويبصره طريقه إذا أراد السلامة والوصول الصحيح (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ). (الآية 44).

ثم ذكرت الآية التالية (45) معينات الثبات على الحق وهي: (تلاوة القرآن وإقامة الصلاة والمواظبة عليها والمداومة على ذكر الله)[1].

(1) أضافت د. سمر الأرناؤوط أن: (في هذه الآية تعريف قرآني بهدف الصلاة: النهي عن الفحشاء والمنكر، من يصلي كثير لكن من يعي هدفها قليل ولهذا يحتاج العبد أن يجاهد نفسه في صلاته لتحقق الهدف الذي يحصّنه من كل الفتن والابتلاءات التي يواجهها في الحياة).

وفي هـذا المثـل الرائع إشـارة هامـة إلى أن قوة الله عـز وجل هي القـوة الحقيقية الوحيـدة والدائمـة، المتصرفـة في الكـون تـصرف الحكمـة والعـدل، وهـي الركـن الركـين والحصـن الحصين.

– الابتلاء بأهل الكتاب ومنهج مجادلتهم : الآيات (46 – 49):

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩ ﴾

عندمـا يتأمـل القـارىء المتدبر –لأول وهلـة– قوله تعـالى: « وَلا تُجادِلـُوا أَهْلَ الْكِتـابِ إِلَّا بِالَّتـي هِـيَ أَحْسَـنُ إِلَّا الَّذيـنَ ظَلَمـُوا مِنْهُـمْ وَقُولـُوا آمَنَّـا بِالَّـذي أُنْزِلَ إِلَيْنـا وَأُنْـزِلَ إِلَيْكُـمْ وَإِلَهُنـا وَإِلَهُكُـمْ واحِـدٌ وَنَحْـنُ لَهُ مُسْـلِمُونَ». يتسـاءل ما علاقة هذه الآيـات بـما قبلها؟

والإجابـة: لما جـاءت الآية السـابقة داعية النبـي الكريم ﷺ أن يتلـو ما يوحى إليـه مـن ربـه، وأن يقيم الصلاة قيامـاً يحدث في القلـب ذكراً لله .

بينـت الآيـات التاليـة أنـه من محامـل هـذه الدعوة تـلاوة مـا أوحـى إلى النبي ﷺ مـن آيـات الله عـلى (أهـل الكتـاب) وتبليغهـم رسـالة الإسـلام، إذ ليـس المـراد مـن التـلاوة مجـرد التـلاوة، وإنـما المـراد هنـا إعـلان النـاس بهـا وإسـماعهم آيـات الله وكلماتـه. (تـلاوة تُسـمع الآذان لتصـل إلى القلـوب فتصلحهـا). وأهـل الكتـاب حـين يسـمعون كلـمات الله التـي يتلوهـا النبـي ﷺ والمؤمنـون لا يلقونهـا على وجـه واحـد .. فكثير منهـم يلقونها بالبهـت والتكذيـب، وقليل منهم أولئـك الذيـن يلقونهـا بالقبول والتسـليم ..

وفي الآيتين (48-49) خطاب للنبي الكريم ﷺ من ربه سبحانه وتعالى يكشف لأهل الكتاب عن حقيقة جهلوها وتجاهلوها وهي أن منصب النبوة والرسالة وتلقي الوحي الذي رشحته له العناية الإلهية، لم يكن له يدٌ في اكتسابه، ولا تشوف إلى تلقي مدده، وإنما هو هبة من الله منحه إياها، ليثبت صدق رسالته إلى الخلق، حتى يقلعوا عن الباطل ويؤمنوا بالحق.

- عنادٌ وغرور: الآيات (50-55):

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

بعد هذه اللفتة العارضة إلى (أهل الكتاب) وأسلوب مجادلة المؤمنين لهم وما عند علمائهم من علم بهذا القرآن - عادت الآيات لتصل الحديث مع (المشركين) وتكشف عن عناد وغرور هؤلاء الجاحدين من خلال أمرين:

1 - (طلب الآيات المادية المحسوسة) التي رافقت رسالة بعض الرسل السابقين، مثل ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى، غافلين عن أن الله تعالى قد وهب خاتم أنبيائه ورسله كتاباً معجزاً (مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) يعدل بجميع تلك المعجزات، ولا يقتصر أثره على فترة محدودة من الأوقات، بل سيظل إعجازه قائماً، وأثره سارياً في كل زمان (الآيات 50-52).

2 – (استعجال العذاب الإلهي)، غافلين عن أن الدنيا سرعان ما تزول وتأتيهم الآخرة، ويأتيهم من العذاب الأليم ما يغشاهم ويحيط بهم من كل جانب. (الآيات 53–55).

– تثبيت المؤمنين في أوقات المحن : الآيات (56 – 60):

﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِى وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰىَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

انتقلت الآيات بالخطاب إلى (المؤمنين) الذين اضطروا لمغادرة أوطانهم نتيجة (فتنة المشركين) لهم، وعرفهم سبحانه أن أرضه الواسعة مفتوحةٌ في وجوههم، ميسرة الأسباب من أجلهم، كما أن رحمته الواسعة محيطة بهم من كل جانب، فما عليهم إلا أن يعتزوا بإيمانهم ويتمسكوا بدينهم، ولا يضيقوا ذرعاً بكيد الكائدين، ومكر الماكرين، (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ). (الآية 56).

ثم اهتمت الآيات بإزالة أهم عقبتين تعترضان طريق المهاجرين، وهما فتنتان قد يقع فيهما أهل الإيمان من بعض المثبّطين المخذّلين من شياطين الإنس والجن، فقد يجبن الإنسان عن الخروج خوفاً من الموت وقد يُخوّف بالرزق فيجبن:

1 – قضية (الأجل) : (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا). (الآيات 57–59).

فإذا ما شعر المسلم بحتمية الأجل من ناحية، وبيقينية الرجوع إلى الله للحساب من ناحيةٍ أخرى، فإنه سينهض لأداء ما عليه من واجبات غير هيّابٍ لما سيواجه في طريق هجرته.

2 – قضية (الرزق) : (وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ). (الآية 60). حيث بين الله عز وجل لهم أنه لا يرزقهم وحدهم، وإنما يرزق جميع الدواب على سطح الأرض وهذا يعطيهم طمأنينة أكثر، لأن الذي يرزق هذه الدواب من غير طلب منها كفيل برزقهم من غير طلب أيضاً، ومن ثم فإنهم لا يجوز لهم الخوف من فوات الرزق أبداً، وعليهم أن يتوكلوا على الله وحده، ولا يلتفتوا إلى سواه.

– تناقض صارخ : الآيات (61 – 69):

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

بعد هذه الوقفة مع هؤلاء المؤمنين الذين حملهم المشركون على الهجرة من أوطانهم بما أخذوهم به من بأساء وضراء، عادت الآيات لتلقى المشركين بقذائفها المدمّرة التي تدكّ بها حصون الشرك وتهدم قلاعه بحجتها الدامغة وبيانها المبين. ووصفت تناقضهم الصارخ من خلال ثلاث صور:

1 - إقرارهـم بـأن الله سبحانه هـو الـذي خلق السموات والأرض وسخّر الشمس والقمر، وهو الذي نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها، ثم يتوجهون بالعبادة إلى غيره، ويعطون ولاءهم لآلهةٍ مزعومة لا تنفع ولا تضر. (الآيات 61-63).

ثم تبين الآية التالية (64) أن الـذي يغطّي على أبصار هؤلاء المشركين ويعمّي عليهم الطريق إلى الحق هو اشتغالهم بهذه الدنيا وتنافسهم على متاعها واستهلاك أنفسهم في الجري اللاهث وراء شهواتها.

2 - عرض صورة هؤلاء الجاحدين إذا ركبوا في الفلك، واستشعروا الخطر، ذكروا الله، وفزعوا إليه، وأسلموا وجوههم له، مخلصين له الدين، فإذا خلصوا من البلاء، ونجوا من الهلاك، عادوا إلى ما كانوا فيه من شرك، ونسوا ما كان منهم لله من دعاء ومواثيق. (صورة إيمان المصلحة الآنية). (الآيات 65-66).

3 - كفرهم بآيات الله وجحودهم النعم التي يعيشون فيها من فضله وإحسانه، رغم أن الله سبحانه اختصهم من بين العرب جميعاً بهذا البلد الحرام الذي ألقى في قلوب العرب جميعاً توقيره وتوقير ساكنيه. وبهذا عاش هؤلاء المشركون في ظل هذا البلد الحرام آمنين لا ينالهم أحد بسوء. (صورة الجاحدين لنعمة الأمن والرزق). (الآيات 67-68).

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ». (الآية 69).

بهذه الآية الكريمة تختم السورة؛ فيلتقي ختامها مع بدئها، ولقد بُدئت السورة بإيذان المؤمنين بالابتلاء وملاقاة الفتن على طريق الإيمان، وأن استمساك المؤمن بإيمانه يقتضي جهاداً وتضحيةً بالنفس والمال والأهل والولد والوطن.

وهذا الختام الذي ختمت به السورة هو وعدٌ كريم من الله سبحانه وتعالى المؤمنين الذين يجاهدون في سبيل الله، ويحتملون ما يلقاهم على طريق الجهاد من ضرٍّ وأذى أن يهديهم الله ويثبّت أقدامهم على سبيله، لأنهم سعوا إلى الله فتلقاهم الله بإمداد عونه وتأييده ونصره؛ فكانت لهم العزّة في الدنيا وجنات النعيم في الآخرة.

أهم المراجع

1 - التفسير القرآني للقرآن - د. عبد الكريم الخطيب - دار الفكر العربي بالقاهرة.

2 - التيسير في أحاديث التفسير- الشيخ محمد المكي الناصري- دار الغرب الإسلامي بيروت.

3 - التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم- إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن بإشراف د. مصطفى مسلم- ط جامعة الشارقة.

4 - التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم- الشيخ عبد الحميد طهماز - دار القلم بيروت.

5 - نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم- الشيخ محمد الغزالي - دار الشروق مصر.

6 - تأملات في سورة هود- حنان لحام.

7 - إلى القرآن الكريم - الشيخ محمود شلتوت - دار الشروق مصر.

8 - سورة يوسف دراسة تحليلية - د. أحمد نوفل - دار الفرقان الأردن.

9 - يوسف أيها الصديق- د. محمد عاطف السقا - دار المكتبي سوريا.

10 - تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن والسنة- د. محمد الطيب النجار- مكتبة المعارف الرياض.

11 - التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه - د. زياد الدغامين - دار عمار الأردن

12 - منهج الدعوة إلى الله كما تصوره سورة النحل - د. محمود شعلان - مكتبة زهراء الشرق القاهرة.

13 – تفسير سورة الإسراء دراسة تحليلية موضوعية– د. أحمد نوفل – جمعية المحافظة على القرآن الكريم الأردن.

14 – مباحث في التفسير الموضوعي د. مصطفى مسلم – دار القلم بيروت.

15 – القصص القرآني في سورة الكهف وبناء الشخصية الإسلامية – عارف كامل عبد الله.

16 – الناس في سورة الحج – د. محمد عطا يوسف – مكتبة الرشد الرياض.

17 – التفسير الموضوعي لسورة النور – د. جمال عبد الستار محمد – دار منارات مصر.

18 – المعجزة والرسول من خلال سورة الفرقان– د. مصطفى مسلم – دار القلم بيروت.

19 – الدعوة إلى الله تعالى، دراسة مستوحاة من سورة النمل– د. عبد الرب نواب الدين– دار القلم بيروت.

20 – سورة القصص، دراسة تحليلية– د. محمد مطني .

21 – ابتلاء المؤمنين في ضوء سورة العنكبوت– د. حسين عبد الحميد البر.

صدر للمؤلف

1 - متاع الغرور - دار طيبة حلوان (2010)، وصدرت منه طبعة ثالثة (2013).

2 - رمضان.. واهاً لريح الجنة - دار طيبة حلوان (2010).

3 - قلب موصول بالله - دار طيبة حلوان (2011)، وصدرت منه أربع طبعات .

4 - وربك فكبر (آية الكرسي سياحة في رحاب الكمال والجلال) - دار طيبة حلوان (2012) - بتقديم الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي رحمه الله .

5 - هكذا علمني رمضان - دار طيبة حلوان (2013).

6 - علمتني المحن - دار البشير (2017).

7 - جنة الإيمان - دار اللؤلؤة (2022) بتقديم د. محمد علي يوسف.

8 - من هدايات جزء عمَّ - دار البشير (2022) قدم له الأستاذ الدكتور أحمد الشرقاوي.

9 - من هدايات جزء تبارك - دار البشير (2022).

10 - فذكِّر بالقرآن (آيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة) - دار البشير (2023).

11 - شارك ببحثين ضمن موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم بعنوان (الحياة في القرآن)، و(الخوف في القرآن)، والموسوعة صدرت في 36 مجلداً في عام 2019.

فهرس المحتويات

المقدمة 5
أهمية دراسة الترابط الموضوعي للسورة القرآنية 10
موضوعات السور من (يونس – العنكبوت) 11
سورة يونس 15
سورة هود 33
سورة يوسف 50
سورة الرعد 65
سورة إبراهيم 76
سورة الحجر 85
سورة النحل 94
سورة الإسراء 112
سورة الكهف 130
سورة مريم 148
سورة طه 158
سورة الأنبياء 172
سورة الحجّ 185
سورة المؤمنون 199
سورة النور 211
سورة الفرقان 225
سورة الشعراء 236
سورة النّمل 250
سورة القصص 263
سورة العنكبوت 278